

266

الرِّحلاتُ الحِجِّيَّةُ

قِراءةٌ في المتنِ والمضامِين






الرحلات الحجية
قراءة في المتن والمضامين

الدكتور يوسف حسن العارف



قراءة في المتن والمضامين







قراءة في المتن والمضامين

الدكتور يوسف حسن العارف



المملكة العربية السعودية

عسير ـ أبها : 61411

ص.ب : 478

هاتف : 009662244210

adabiabha@hotmail.com



ص.ب. 113/5752

E-mail: arabdiffusion@hotmail.com

www.alintishar.com

بيروت ـ لبنان

هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-621-0

الطبعة الأولى 2014



المحتويات

الدراســــــة	الصفحة

الإهـــــداء

إلى سعادة الأستاذ الدكتور (العالم الأنثربولوجي) أبوبكر أحمد باقادر الذي شجع وحفز على هذا التوجه المعرفي (أدب الرحلات الحجازية) يوم أن كان في وزارة الحج مشرفاً على ندوتها السنوية ومستشاراً لوزيرها السيد إياد مدني...

وإلى أخي وصديقي الأديب الناقد الأستاذ حسين محمد بافقيه الذي فتح صفحات (مجلة الحج والعمرة) لنشر كثير من هذه الدراسات يوم أن كان رئيساً لتحريرها...

وإلى كل من معالي الأستاذ الدكتور عبدالله عمر نصيف وسعادة اللواء الركن الدكتور أنور عشقي اللذين استضافا في (أحديتيهما) إحدى أوراق العمل المهمة في هذا الكتاب.

وإلى قرائي الأعزاء الذين يتناسلون من رحم الغيب في كل زمان ومكان وتقع بين أيديهم هذه الدراسات.. قائلاً لهم لا تنسوني من دعوة صادقة في ساعة السحر بالرحمة والثواب والغفران...

إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذا الكتاب!!

تقـــديم

اللواء ركن الدكتور/ أنور ماجد عشقي(*)

اعتاد الإنسان على الرحيل من مكان إلى آخر في البر والبحر والجو لغايات مختلفة، ولعل من أهمها المعرفة، واكتشاف المجهول. وتراثنا الإسلامي عامر برصيد وافر من الرحلات التي سجلت في الكتب والأسفار، فكانت رافداً من أهم روافد التاريخ الاجتماعي والسياسي.

ولأن معظم الرحالة كانوا على جانب من العلم والأدب وحب الاستطلاع، فنشأ عن ذلك ما عرف بأدب الرحلات، ذلك الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من غرائب ومفاجآت في البلدان المختلفة، بأسلوب شيق وعبارات جميلة، حتى أصبحت كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية.

(*) رئيس مركز الشرق الأوسط للدراسات الاستراتيجية بجدة، وصاحب الصالون الفكري/ الثقافي (الأحدية).

فالكاتب في أدب الرحلات يستقي الحقائق من المشاهد الحية، والتصوير المباشر، مما يضفي عليها مسحة من الجمال والمتعة عند قراءتها، والحديث عنها، ولعل من أهم ما ينفرد به أدب الرحلات العربي هو الرحلات الحجازية التي حفظت لنا تاريخ المجتمعات في الحرمين الشريفين خلال حقب زمنية مختلفة، فتحدثت عن طرق الحج والمدن التي من حولها، ومن أبرز هذه الرحلات رحلات الباتانوني، والرحلة السنوسية، ومرآة الحرمين، ورحلة النابلسي، ومن أخصها كتاب شكيب أرسلان (الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف).

لقد كانت عناية العرب بهذا النوع من الأدب عظيمة على سائر العصور، وهذا العلم يمثل نوعاً من الكتابة التي تكثر فيه الشهادات المدونة، التي تنقل المطالع إلى أصقاع بعيدة، فيطلع القارئ على أحوال تلك البلدان.

ولعل أقدم هذه الرحلات العربية بنوعيها البري والبحري قد تمت في القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، فكان من أشهر الرحلات البرية رحلة اليعقوبي وابن وهب القرشي، وسلمان الترجمان، أما سليمان السيرافي فقد اتخذ رحلته على ثبج البحر فجر فيها مياه المحيط الهندي بحثاً عن المجهول.

كانت بعض الرحلات تتم بإرادة ذاتية، وبعضها يتم بإرادة بعض الأثرياء وولاة الأمور. ففي عام 227 للهجرة كلف الخليفة العباسي الواثق بالله سلام الترجمان بالرحلة إلى جبال القوقاز للبحث عن

سد يأجوج ومأجوج، وقد روى أخبار هذه الرحلة، (ابن خرداذبه) الجغرافي المتوفى عام 272 هـ.

وبعدها تعاقبت الرحلات مثل رحلات المسعودي صاحب كتاب مروج الذهب المتوفى عام 346هـ والمقدسي صاحب كتاب (حسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، والإدريسي الأندلسي في (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، ورحلة ابن حوقل، ثم رحلة ابن فضلان الذي حدثنا عن روسيا والقوقاز، كما كان يعتبر في حكم السفراء، ويشار إلى حياته ورحلاته اليوم في معظم المدارس والجامعات في روسيا وأوروبا الشرقية.

وفي القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي، برز في مجال الرحلات البيروني في رحلته المعروفة باسم (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة)، والتي كانت أنموذجاً فريداً طور فيه مفهوم الرحلات، فكانت رحلته وثيقة تاريخية هامة تجاوزت الدراسة الجغرافية إلى دراسات ثقافات مجتمعات الهند القديمة ممثلة في لغاتها وعقائدها وعاداتها، فنقل إلينا خصوصية لغة الهند القديمة المعروفة بالسنسكريتية، التي جرى فيها مقارنة مع اللغة العربية، فأسهم بذلك في تطوير علم اللسانيات، وقد أعانه عليها إلمامه باللغة الهندية والقدرة على البحث، وطول المكث في الهند، ومرافقته للسلطان محمد الغزنوي الذي فتحها.

ولما جاء القرن السادس للهجرة، اعتبره المؤرخون أكثر القرون إنتاجاً لهذا النوع من الأدب، وكان الرحالة المغاربة هم المتألقون، فشدوا رحالهم في اتجاه المشرق، قاصدين الحج إلى بيت الله الحرام،

بعدها تأصل في قلوبهم حب الرحلات، فأولعوا بالترحال، ودونوا ما شاهدوه في مؤلفات خالدة القيمة والأثر، ومن أهمها رحلة الإدريسي، وابن جبير، وأبو حامد الغرناطي، وابن أبي بكر الهراوي.

أما القرن السابع فقد ألقى إلينا بنماذج عديدة من أهمها رحلة ابن جبير الأندلسي المتوفى عام 614، فكانت الرحلة عبارة عن ثلاث رحلات، أولاها كانت للحج، وثانيتها للمشرق، وقد استغرقت عامين، أما الثالثة فكانت عودة إلى المشرق بعد أن شاخ عمره، وفقد زوجته عام 601هـ. فاتخذ منها إقامة نهائية ولم يعد بعدها إلى الأندلس، إذ ظل متنقلاً عشر سنوات بين مكة وبيت المقدس والقاهرة مشتغلاً بالتدريس، إلى أن وافته المنية بالإسكندرية.

لقد سجل لنا ابن جبير في هذه الرحلة كثيراً من الصور المضيئة من مقاومة المسلمين للغزو الصليبي، وكيف كان يقارعهم كل من نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي.

كما وصف في رحلته مظاهر الحياة في كل من صقلية، وبلاط النورمان، في لغة أدبية راقية وتصوير بارع، فضلاً عن تسجيله لحالة الازدهار التي كانت تعيشها مكة المكرمة.

وفي هذا السياق، جاءت رحلة ابن بطوطة في القرن الثامن للهجرة، وكانت من أشهر الرحلات العربية، فقد بدأت عام 725هـ من طنجة بالمغرب إلى مكة المكرمة، وظل يرحل خلال ثلاثة عقود من بلد إلى بلد، فما إن عاد إلى وطنه حتى أملى مشاهداته وذكرياته على محمد ابن جزي الكلبي، فصدرت بعنوان (تحفة النظار في غرائب الأمصار وغرائب الأسفار).

لقد روى ابن بطوطة مشاهداته لبلدان أفريقية، فكان هو أول المكتشفين لها، وكان بارعاً في تصوير ما شاهده من العادات في المجتمعات الأفريقية والهندية، كما كانت هذه الرحلة تمثل صورة شاملة للعالم الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري، أبرز فيها الجوانب المشرقة للحضارة الإسلامية، والإخاء الإسلامي بين شعوبه بما لا نجده في غيره من المصادر التاريخية.

كان معاصره في القرن الثامن أديب غرناطة الشهير لسان الدين الخطيب المتوفى عام 776 الذي كتب كتابه (خاطرة الطّيف في رحلة الشتاء والصّيف)، أما ابن خلدون، فقد أبدع في أدب الرحلات وكان كتابه (نفاضة الجراب في علالة الاغتراب) الذي وصف فيه مشاهداته في بلاد المغرب خلال نفيه إليه، وهناك كتاب (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً) الذي امتاز عن غيره بمزج السيرة الذاتية بأدب الرحلات، بالإضافة إلى الوصف الدقيق لرحلته إلى بلاد الأندلس وبلاد الفرنجة، بعدما أوفده أحد الأمراء من بني الأحمر إليها، كما سجل إقامته في مصر التي أتم فيها ربع قرن يعمل في القضاء والتدريس.

أما العصر الحديث، فقد ألقى إلينا بعدد من الرحالة العرب الذين تمكنوا من التجول والترحال بين بلدان العالم، فجابوها من أطرافها، فاتخذ هذا النوع من الأدب شكلاً فنياً وأدباً جميلاً، فلم تكن الرحلة مجرد دراسة جغرافية حية، كما كان في الماضي، بل أصبحت لوناً من ألوان العلوم الإنسانية، ومن أشهر هذه الرحلات، رحلة رفاعة الطهطاوي المتوفى عام 1873م إلى باريس المعروفة باسم (الإبريز

في تلخيص باريز)، وتلاه في ذلك أحمد فارس الشدياق المتوفى عام 1887م المعروفة باسم (الواسطة في أحوال مالطة) التي ركز فيها بشكل خاص على العادات والتقاليد والنساء، وجاء على نهجه أمين الريحاني في رحلته (الريحانيات) وحسين توتري في السندباد العصري و(زهرة العمر) لتوفيق الحكيم.

وفي هذا العصر ظهر نوع من الرحلات الخيالية، فكان أول من كتب في ذلك محمد المويلحي في كتاب (حديث عيسى بن هشام)، ومن أشهر السعوديين الذين تناولوا أدب الرحلات الشيخ حمد الجاسر، والأستاذ محمد عمر توفيق والسيد علي حافظ والدكتور عدنان عبدالبديع اليافي.

ومن أحدث أنواع الرحلات هي رحلات الفضاء التي تحدث عنها رائد الفضاء صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سلمان، ولكنها لم تسجل حتى الآن، وقد صدر في توصيات ندوة الدكتور أنور الأحدية التي أفردت ندوة كاملة لأدب الرحلات بتسجيل رحلة الأمير سلطان لتكون أول باكورة للرحلات الفضائية في التاريخ.

ومن أهم المتطلبات لأدب الرحلات أن يدون تدويناً موضوعياً بعيداً عن الفرضيات، مصاغاً في قالب أدبي وعبارات جميلة، تشد القارئ إليها ليعيش مشاعر الرحلة مع الأديب، ويفترض أن يتصف الرحالة بالنزاهة والمصداقية فضلاً عن حصيلته الواسعة من العلم والمعرفة.

والله الموفق،،،

أدب الحج في المشرق العربي(*)

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فإن الدارس لأدب الحج سيقف على كثير من العلوم والمعارف المتعلقة بهذا النوع من الأدب الذي يتميز بشرد المكان وشرف الموضوع الذي هو ماهية الأدب، وشرف الزمان الذي تتم فيه تلك الرحلة.

ومن هنا، نشأ مصطلح أدب الحج، أو أدب الرحلات إلى الحج، والذي يعني كل ما يتعلق بكتابات الأدباء والمفكرين الذين أعانهم الله ووفقهم وأدوا فريضة الحج، وزاروا الأماكن المقدسة ورصدوا ما شاهدوه وما سمعوه من قيم وأحداث وتواريخ اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية وثقافية وصحية وغيرها، ووثقوا ذلك كله في منجز أدبي يحمل سماتهم وخصوصياتهم الأدبية، ويتشكل منه تراثاً أدبياً

(*) ورقة عمل، قدمت في ندوة الحج الكبرى بمكة المكرمة، عام 1422هـ. ونشرت ضمن كتاب الندوة الصادر عن وزارة الحج، ط1، 1423هـ/2003م.

نتدارسه ونرجع إليه لمعرفة المزيد من الأماكن المقدسة وتاريخها وجغرافيتها وأحوال الناس فيها.

إن مثل هذا الأدب في حاجة إلى دراسة وتحليل وتعريف، وذلك من خلال الرصد الدقيق والمتابعة الناقدة لمجمل هذه الطروحات، وفي مظانها المتعددة لعلنا نصل إلى تشكيل رؤية تاريخية وفق منظومة اجتماعية / أدبية تستبطن ذلك المنجز وتضيف إليه.

ولعل ما قامت به وزارة الحج السعودية عام 1422هـ من اختيار موضوع أدب الحج وما كتب فيه من رحلات أو شعر أو رواية، محوراً رئيساً لندوة الحج الكبرى التي عقدت في مكة المكرمة في الفترة ما بين 4-1422/12/6هـ الموافق 16-18 فبراير 2002م مما يشكل هاجساً لدى المثقفين والمفكرين من حجاج بيت الله الحرام، ومطلباً تنويريا يبغون من خلاله التداخل مع ما أنجز في هذا المجال مثاقفة ومعرفة واعتزازاً.

ولهذا استكتبت الوزارة الموقرة مجموعة من الباحثين لتغطية كل ما كتب في هذا الموضوع من جميع الأقاليم الإسلامية، وجاء نصيبنا أن نكتب فيما يخص المشرق العربي من هذه الرحلات المباركة.

وما إن استقر العزم، ونضجت الهمة - وارتاح البال لارتياد هذا المرتقى الصعب، حتى بدأنا في تجميع العدة والعتاد من مادة علمية وفكرية حول هذا الموضوع، ثم عزمنا الأمر وتوكلنا على الله وقسمنا بحثنا إلى ثلاثة محاور رئيسة، عرفنا في المحور الأول بالمشرق العربي من حيث جغرافيته وتاريخيته وما يتعلق بذلك من سياسة على اعتبار

أن ذلك مدخل لابد منه لتتشكل في ذهن القارئ الخلفية المكانية والزمانية التي تؤطر موضوع بحثنا الأساس.

ثم ناقش البحث في هذا المحور أيضاً ما يتعلق ببيان الأهمية والقيمة التي تجسدها كتب الرحلات التي دونها أصحابها رصداً وتوثيقاً للرحلة المباركة نحو الأراضي والمشاعر المقدسة.

وأخيراً تعرض البحث - في هذا المحور - إلى بيان ورصد أهم الرحلات وأبرزها وذلك من خلال تحليل ودراسة ستة عشر كتاب رحلة في هذا المجال ومن خلال هذا المحور تم الإيضاح والتبسيط والتعريف بهذه الكتب/ المصادر ثم ختمنا هذا المحور بذكر بعض المراجع المختارة التي أفادت في تجهيز بنية هذا المحور النصية - وهو ما اتبعناه في نهاية كل محور والحمد لله.

أما **المحور الثاني** فقد خصص للحديث عن المشاكل والصعاب التي واجهت الحجاج أصحاب الرحلات التي تداخلنا معها سواء من حيث الطرق والمواصلات أو الأوبئة التي يعانون منها أثناء الحج، أو قطاع الطرق والمتسولين من أبناء البادية وما يشكلونه من هم وغم للحجاج أثناء سفرهم إلى المدينة أو نقلهم إلى المشاعر المقدسة.

ومن خلال هذا المحور اتضحت المعاناة والمخاطر العظيمة، والعقبات الجسيمة التي يشعر بها الحاج ويتحملها بمزيد من الصبر وطلب الأجر والمغفرة ويسعى لتجاوزها لأنه يبقى هدفاً إيمانياً تهون عنده كل المصائب والعقبات.

أما **المحور الثالث والأخير** فهو زبدة البحث، حيث وقفنا فيه على مجمل الأوضاع المعيشية في منطقة الحجاز وذلك من خلال المقولات والطروحات التي تحملها كتب الرحلات التي تداخلنا معها فأوردنا صوراً حول النواحي الاجتماعية والسكان وتعدادهم وما يتعلق بمساكنهم وبنائها وما يميزها من أدوار وأفنية وأبواب وسلالم وغيرها.

ثم تطرق البحث إلى ما يتعلق بالعادات والقيم والأخلاق والتقاليد التي يعيشها المجتمع الحجازي سواء في جانبها الإيجابي أو السلبي، وما يتعلق باللغة واللهجات وكون أهل الحجاز يمتازون في هذا الجانب بمعرفتهم للعديد من اللغات الفارسية والهندية والتركية وغيرها، بحكم اختلاطهم بالحجاج من جميع الأجناس. كما أوردنا صوراً عن النواحي الاقتصادية وكيف تتحول مكة والمدينة إلى أسواق تجارية عالمية خلال موسم الحج وأثر ذلك على المجتمع الحجازي.

وأخيراً كانت هناك وقفة مع المظاهر السياسية والدينية والصحية والثقافية أبرزت العديد من المزايا التي تحيط بمنطقة الحجاز كونه موئلاً لجميع أجناس الأرض ومهوى أفئدتهم وقلوبهم.

ومن خلال هذه المحاور التي تمثل جسد هذا البحث توصلنا أخيراً إلى مجموعة من النتائج عبرت عنها خاتمة البحث. وبهذا نكون قد قدمنا عملاً قريباً من الموضوعية والعلمية مسيجاً بسياج من المنهجية التاريخية التي نأمل أن تكون ضُبِطَت بآلياتها المتعارف عليها تاريخياً.

والحمد لله رب العالمين،،،

مدخل وتمهيد:

الحج ركن من أركان الإسلام الخمسة، فرضه الله على من يستطيع إليه سبيلاً، بينه الله في القرآن وفصلته السنة أحسن تفصيل فكانت دعوة أبينا إبراهيم التي استجاب لها كل البشر منذ أن كانوا في أصلاب آبائهم.

والحج مجمع عظيم، ومشهد جسيم تجتمع فيه الأمم من أقصى الأرض وأدناها استجابة لربهم وطمعاً في رحمته ومغفرته ورضوانه وجناته فيتحقق بينهم التعاون والتكاتف فضلاً عن فوائد ومنافع أخرى دنيوية ودينية.

والحج فوق ذلك رحلة مباركة، رحلة إيمانية، يهجر فيها الحاج أهله وأرضه ليتصل اتصالاً مباشراً بالمشاعر المقدسة ابتداءً من الكعبة وما حولها من مشاعر وانتهاءً بعرفات ومزدلفة ومنى ثم المدينة المنورة، فيحمل من خلال هذه الرحلة كثيراً من الذكريات التي يستعيد بها تاريخ الإسلام والنبوة والصحابة وما ارتبط بهم من أحداث ووقائع وأفعال رسخت دين الله في أرضه وأمّنت السبل حتى يؤدي الحاج فرضه ويقضي نسكه مغفوراً له بإذن الله.

ولقد كان ممن يحظى بشرف هذه الرحلة كثير من رجال الفكر والعلم والأدب الذين انصهرت قلوبهم بحب الله ورسوله وسعوا طوال أيامهم لكي يحوزوا هذه المكرمة الربانية، ويحظوا بهذا الشرف العظيم فيحجوا البيت الحرام، ويشاهدوا عظمة الحق ونور النبوة التي سطعت في هذه البقعة المباركة وانتشرت إلى كل أصقاع الدنيا فتحقق لهم ذلك

وسجلوا ما شاهدوا وما وجدوا من صعوبات ومهالك ورووا أحداثاً ألمت بهم، بعضها يسر وبعضها يدمي الخاطر. ولقد سجلوا كل ذلك بعبارات منمقة كلها تدل على أدب وثقافة وعلم وقدرة على الصياغة اللغوية والأسلوبية، مستخدمين في ذلك كل الدقة والأمانة العلمية، فأصبح لدينا سفراً متكاملاً لأحوال الأمة الإسلامية التي كانت تصل وفودها إلى الحج في كل عام.

ومن هنا نشأ فرع للأدب أسماه مؤرخو الأدب «أدب الرحلات في مجال الحج» وهو ما يتعلق خصوصاً بفعاليات الحج والحجاج، وما يؤطر هذه العبادة من معالم سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية وغيرها مما يتفاعل معه الأديب الحاج ويسطره فيما بعد كتاباً يخلد هذه الرحلة ويوثق ما فيها بأسلوب أدبي رائع ورصين.

ولهذا فإن أدب الحج يعد أدباً له قيمة مستمدة من قيمة المكتوب عنه، فمقصد الأديب الذي دوّن رحلته كانت العبادة وأداء ركن من أركان الإسلام وزيارة الأماكن الإسلامية والمشاعر المقدسة في منطقة الحجاز وخاصة المدينتين المقدستين مكة والمدينة.

وبناء على ذلك فقد حظيت المكتبة العربية الإسلامية بالعديد من الرحلات الحجازية أو الرحلات إلى الحج من جميع أقطار عالمنا العربي والإسلامي قسمها متابعو الأدب إلى ما يلي:

- أدب الحج في المشرق العربي.
- أدب الحج في المغرب العربي.
- أدب الحج في شبه القارة الهندية.

- أدب الحج في جنوب شرق آسيا والشرق الأقصى.

- أدب الحج في تركيا وأوروبا الشرقية ووسط آسيا.

- أدب الحج لدى الكتاب الغربيين المستشرقين.

- أدب الحج في غرب أفريقيا.

- أدب الحج في الحجاز والجزيرة العربية.

وفي المحور التالي سوف نتحدث بشكل عام - وشبه مفصل - عن الرحالة وكتب الرحلات التي تشكل جسد هذه الورقة ومتن هذا البحث وهي المتعلقة بكتب الرحلات من المشرق العربي تعريفاً بها، وتحليلاً لمباحثها وفصولها، والوقوف على أهميتها وما تضيفه إلى أدب الرحلات من أبعاد ثقافية ومعرفية.



مراجع مختارة

لقد تمت الاستفادة في هذا المدخل التمهيدي من العديد من الكتب والمجلات وهي على النحو التالي:

- محمد بن علوي بن عباس المالكي الحسيني: في رحاب البيت الحرام، جدة 1399هـ/ 1979م.
- محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف: المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة المنورة، المجلد الأول، ط 1، دار الأندلس الخضراء، جدة 1421هـ/ 2000م.
- حسني محمود حسن: أدب الرحلة عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1976م.
- أحمد أبو سعد: أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت.
- حسين محمد فهيم: أدب الرحلات (دراسة تحليلية من منظور إثنوجرافي) سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت رقم (138) شوال 1409هـ/ يونيو حزيران 1989م.
- نادي مكة الثقافي الأدبي: البلد الأمين (دورية) مقال عن: الحج إلى البيت العتيق في البلد الأمين عدنان محمد وزان، ص ص 14-16 السنة الثانية، العدد الثالث، ذو الحجة 1416هـ/ مايو 1996م.
- فراج عطا سالم: الحج في التاريخ حكايات ونوادر (مقال)، مجلة الفيصل: العدد 27، ذو الحجة 1419هـ/ إبريل 1999م، ص ص 57-64.

المحور الأول

رحلات الحج من المشرق العربي/ رصد وتوثيق/ تحليل وتعريف

أولاً: التعريف بالمشرق العربي (جغرافيا - تاريخياً - سياسياً):

ينظر كثير من المؤرخين إلى هذه المنطقة على أنها جزء من الشرق الأوسط الذي تمتد حدوده الجغرافية ما بين المحيط الأطلسي غرباً والخليج العربي شرقاً وما بين البحر المتوسط شمالاً والصحراء الكبرى والمحيط الهندي جنوباً.

ويتعمق هذا المفهوم عندما يجمع المؤرخون على أن دول هذه المنطقة يوحدها اللسان العربي والدين الإسلامي، وبذلك يقسمون المنطقة إلى جزئين شرقي وغربي. وينتظم الجزء الشرقي دول الخليج العربي والجزيرة العربية ودول الهلال الخصيب من العراق حتى سوريا ولبنان وفلسطين، كما يضم في الجهة الغربية البلاد المصرية وما جاورها جنوباً كالسودان مثلاً.

ومن خلال هذه الحدود نتبين الميزة الجغرافية التي تؤطر هذا الموقع من حيث التقاء القارات الثلاث عنده (آسيا - أفريقيا - أوروبا)، ومن حيث الربط بين العالم الغربي والعالم الآسيوي، كذلك حصانته الطبيعية حيث تحيط به العديد من البحار والجبال الأمر الذي يحقق لهذه المنطقة وحدة إقليمية متميزة.

وآخر ميزة لهذه المنطقة العربية أنها أصبحت ميداناً للتنافس الدولي والصراع العالمي لاستثماره والاستفادة من معطياته وبالتالي استعماره أو استخرابه كما هو المصطلح الحديث.

وكما قلنا آنفاً إن جغرافية هذا الإقليم - المنطقة تجعلنا في صلب العالم العربي والإسلامي فلابد - إذن - من التعريف بالدول العربية التي تدخل ضمن هذا الحيز الجغرافي وهي:

دول الجزيرة العربية (السعودية واليمن).

دول الخليج العربية (من عمان إلى الكويت).

دول الهلال الخصيب (العراق - بلاد الشام).

دول الشمال والجنوب الأفريقي من جهة الغرب (وادي النيل/ مصر والسودان).

وأما تاريخياً وسياسياً فإن الأدبيات التاريخية السياسية التي تناقش هذا الموضوع تعطيه آفاقاً مترامية الأبعاد وتجعله في صلب الأحداث التاريخية والطروحات السياسية. خاصة في العصر الحديث أي منذ أن وحدت أقطاره دولة الخلافة العثمانية والتي دام توحيدها لهذه المنطقة حوالي ثلاثة قرون وأكثر قليلاً منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي.

ولم يستثمر المجتمع العربي ولا الحكومات العربية هذه الوحدة التي فوجئت بالمد الاستعماري على بلادها من الحرب العالمية الأولى 1914-1918م والتي مكنت القوى الأوروبية أن تحقق أطماعها في السيطرة على مقدرات هذه المنطقة وتقسم دوله إلى أجزاء متفرقة وتورث بينها الأحقاد والضغائن.

استمر الاستعمار على أقطار الشرق العربي سنين طويلة بث فيها كثيراً من عناصر الضعف والانقسام والتشتت، مما جعل أبناء

هذه المنطقة وحكامها عاجزين عن مواجهة المشكلات المصيرية من سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، بحيث لم يعد أعداء الأمة العربية بحاجة إلى بذل الجهد لإضعاف العالم العربي بعد أن صار يُضعف نفسه بنفسه والعالم الاستعماري يقف متفرجاً شامتاً مبتهجاً.

ومنذ القرن التاسع عشر بدأ المشرق العربي يسترد عافيته على يد أبنائه الذين نما وعيهم من خلال احتكاكهم بالتيارات الفكرية والسياسية والاقتصادية في أوروبا والعالم الخارجي، وما إن بدأ ينحسر الحكم العثماني عن بلاد المشرق العربي حتى قاوم المستعمر وبدأ يدرك أن وحدته ضرورية وأمر لازب، فتابع مقاومة الاحتلال حتى خرج المستعمرون وبدأت أولى بوادر «العوربة» تحمل محل «الأتركة» و«الأوربة».

ومن مجمل هذه التأرخة السياسية والجغرافية لهذه المنطقة - موضوع الدراسة - يتبين أنها تضم أقدس بقاع الأرض التي تهفو إليها قلوب المسلمين وتحج إليها أفئدتهم، ويحثون الخطى استعداداً للقيام بفريضة الإسلام وشعيرته الخالدة **﴿حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً﴾** ومن هؤلاء الحجاج المفكرون والعلماء والأدباء الذين زاروا الأراضي المقدسة حجاجاً ومعتمرين ودونوا رحلاتهم في كتب حفظها التاريخ حتى نستفيد منها ونقدم عنها ثبتاً وبياناً وإيضاحاً في هذه الأيام المباركة.

وبما أن المشرق العربي - جغرافياً - مترامي الأطراف متعدد الجهات والأقطار فقد أفردنا حديثنا عن الجهات التي كثر منها كتاب

الرحلات وتوافر إنتاجهم بين أيدينا وهذا ما سنطالعه في المبحث التالي:

ثانياً: أهمية كتب رحلات الحج وقيمتها:

من خلال دراسة وتحليل أهم كتب رحلات الحج في المشرق العربي يتضح أنها تتميز في العناصر التالية:

- أنها تحمل عبق الأشواق والفطرة الإسلامية لدى كتابها فتحس من كتاباتهم أنه قد تحقق لهم أغلى وأثمن حلم إيماني/ عقدي يهجسون به ويسعون إليه، وهو الوصول إلى الحجاز (مكة والمدينة)، وأداء النسك والشعائر المقدسة.
- رصد الذكريات وما عايشه كتاب الرحلات في طريقهم إلى الحج من مشاكل ومصاعب.
- بيان الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي كانت تغلف الحياة في الحجاز وتؤثر على الحج والحجاج.
- المقارنة بين ماضي وأمس الحجاز والأماكن المقدسة، والحجاز في فترته الحديثة أو المعاصرة للحاج مؤلف الرحلة، أي تحديداً بين ثلاث فترات، الفترة العثمانية، وفترة الأشراف الهاشميين، وفترة السعوديين.
- بيان العلاقة الشعبية بين أهل الحجاز (مكة والمدينة) وبين ضيوفهم من حجاج بيت الله ولاسيما أصحاب القلم والفكر والعلم.
- معرفة اللغة والأسلوب في الفترة التي دوّن فيها الرحالة رحلاتهم وطبعوها ونشروها للقراء وكذلك الدوافع التي جعلت هؤلاء الرحالة يدونون رحلاتهم ومذكراتهم وتجاربهم.

- التعرف على المذاهب المعاصرة التي تتضح من خلال الحجاج المجتمعين في الأماكن المقدسة في وقت معلوم وبالتالي ما يخص بلاد الحرمين وسكانها من مذاهب وتأثير الحجاج فيها وتأثرهم بها،
- معرفة أحوال البلاد التي جاء منها كتاب الرحلات أي بلدان المشرق العربي سواء الاقتصادية أو السياسية أو الفكرية أو الثقافية أو الاجتماعية.
- إن هذه الرحلات جاءت سجلاً متكاملاً يرصد ما كان عليه ساسة الحجاز من ظلم للحجاج وأخذهم فادح الضرائب.
- الاطلاع على فنون وأساليب القول عند مؤلفي هذه الرحلات فنجد في كتاباتهم المسائل الشرعية، واللطائف الأدبية والخطابات المتنوعة.
- تبيان مشاعر الحجاج عند وصولهم إلى الأراضي المقدسة ولهفتهم وشوقهم أثناء أداء النسك من بكاء وخشية وتوبة واستغفار وسعادة وفرح، وأنهم ينسون تعبهم وما صادفوه من مشقة أثناء السفر لهذه البلاد.
- تتضح من خلال هذه الرحلات معاني الأخوة الإيمانية التي تتجلى أيام الحج وتحقق الآية الكريمة ﴿.. **وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**﴾.
- ترسم هذه الرحلات صورة لفعاليات الحج وشعائره وتقارب الحجاج وتكافلهم ومساواتهم وتنافسهم الشريف في أداء المناسك وتعاونهم عليها.
- يتضح من خلال كتابات الرحالة أن الحجاج كانوا يتبادلون أخبار أوطانهم مما يشكل نموذجاً للوحدة الإسلامية والرابطة القوية

التي تربط بين أجزاء العالم الإسلامي آنذاك، ويتدارسون حلول مشاكلهم.

هنا تتضح قيمة وأهمية هذه الرحلات المشرقية إلى الحجاز لأداء شعيرة الحج، سواء قيمتها الفكرية أو الأدبية، أو ما تحمله من رؤى وأفكار تنادي بتطوير الحجاز والأماكن المقدسة وحل مشكلاته مع الحجاج.

ثالثاً: أهم الرحلات من المشرق العربي وأبرزها:

لقد حظي الحجاز بالتعرف على أسماء فكرية لامعة سجلت حضورها الثقافي من خلال ما دونوه عن الحجاز من كتب ومذكرات ومقالات حول الحج وما يرتبط به من فضاء سياسيٍ واجتماعي واقتصادي، الأمر الذي جعل لهذه الرحلات اهتماماً خاصاً بها وبأصحابها، ومن هذه الرحلات المدونة ما يلي:

1/3: رحلة إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين (الرحلات الحجازية ومشاعره الدينية):

يعتبر اللواء إبراهيم باشا من القيادات العسكرية البارزة التي حظيت بقيادة إمارة الحج المصري في أربع سنوات متتالية وهي: عام 1318هـ/1901م، عام 1320هـ/1903م، عام 1321هـ/1904م، عام 1325هـ/1908م. وفي كل هذه الرحلات قام بتدوين مشاهداته منذ أن خرج من مصر مروراً بالسويس (براً) وحتى وصل جدة.

لقد قسم إبراهيم باشا كتابه إلى ثلاثة أجزاء تحوي كل الرحلات الأربع، وجاء الجزء الأول مهتماً بالعناصر التالية:

- يتحدث عن المحمل المصري وأهميته التاريخية ودوره في حل كثير من المشاكل الاقتصادية لدى عرب الحجاز وشرافة الحجاز السياسية.
- يذكر الطريق من مصر إلى الحجاز عبر السويس بحراً ثم رابغ حيث يحرم منها الحجاج ثم الوصول إلى جدة ومظاهر استقبال الحجاج فيها والحجر الصحي.
- يذكر السفر إلى مكة من جدة والطريق الموصلة إليها عبر بحرة وحداء ووسائل المواصلات التقليدية في تلك الفترة.
- يصف مكة وجبالها وشعابها وأماكن إقامة الحجاج، والمطوفين ويذكر الآثار الإسلامية في مكة والمشاعر المقدسة، ووصف كامل ودقيق لشعيرة الحج والمناسك، وكذلك الكعبة المشرفة وبئر زمزم والمقامات داخل الحرم والمآذن وغيرها من المشاهد المهمة في الحرم وما حوله.
- يذكر أهم قادة الحج من البلدان الإسلامية وما يقدم لهم من واجب الضيافة والاحترام.
- يصف الطريق والمواصلات بين المشاعر المقدسة من مكة حتى منى يوم التروية، أو من مكة إلى عرفات ثم إلى مزدلفة ثم إلى منى ثم إلى الحرم بمكة حرسها الله.
- يصف بعض العادات والتقاليد الاجتماعية في مكة المكرمة أثناء الحج.
- يصف مشاعر المسافرين نحو المدينة المنورة وزيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسلام عليه وعلى صاحبيه ثم يذكر وسائل المواصلات ومعاناة الحجاج في هذه المسألة.

- يصف المدينة المنورة والآثار الإسلامية فيها والمساجد التي ينبغي التعرف عليها وزيارتها.

أما الجزء الثاني، فقد خصص للحديث عن الأوبئة والأمراض التي تنتشر أثناء موسم الحج ويعاني منها الحجاج ويحصل فيهم وفيات كثيرة. كما يذكر أهم المشافي التي تقدم العلاج وهي قليلة العدد ضعيفة الإمكانات مما يسهل انتشار الأوبئة والأمراض بين حجاج بيت الله الحرام.

وأما الجزء الثالث والأخير، ففيه وصف واستعراض للمشاكل والمتاعب التي يصادفها الحجاج من عربان الحجاز وسبل التخلص من أذاهم، مرة بالطرق السلمية ومرة بطريقة العنف والحرب.

وفيه استعراض ووصف للطريق بين مكة والمدينة المنورة، والمدة التي يقضيها الحجاج في هذا السفر المضني، وذكر للقرى والمراحل التي يقف عندها الحجاج للاستراحة والتزود بالماء. وفيه كذلك ذكر لبعض العادات والتقاليد لأبناء البادية وسكان القرى التي يمر منها طريق الحج الحجازي - المدني.

كما نجد في هذا الجزء الحديث عن المشاكل التي تعترض المحمل المصري ووسائل تجاوزها وذلك ضمن إطار الحديث عن سياسة الشريف حاكم مكة آنذاك. وأخيراً هناك ذكر للموازنة المالية التي تصرف على الحج المصري والمحمل وسبل صرفها في الحجاز وطريقة توزيعها.

ومن خلال هذه الرحلات التي سجلها ودونها أمير الحج المصري اللواء إبراهيم رفعت باشا يتضح لنا عمق التجربة ومصداقيتها التي

نقلها لنا هذا الرحالة عبر كتابه مرآة الحرمين الشريفين، الذي يتميز بالصور الشمسية/ الفوتوغرافية لأغلب المشاهد والآثار والأماكن التي جاء ذكرها في كتابه، وهي صور رائعة ونادرة ومعبرة حوالي 362 صورة، كلها تؤرخ للفترة التي حج فيها هذا الرحالة أي الأعوام 1318هـ- 1325هـ الموافق 1901م - 1908م.

2/3: رحلة إبراهيم عبدالقادر المازني: رحلة الحجاز:

وهو رجل وأديب من كبار الكتاب في مصر، قام برحلته هذه عام 1930م الموافق 1349هـ وطبعت في نفس العام بمطابع فؤاد عبدالحق السنباطي بالقاهر، ثم أعيد تصويرها ونشرها عن طريق مكتبة القاهرة.

تطرح هذه الرحلة مجموعة من المحاور التي عالجها صاحب الرحلة بأسلوب أدبي شيق يجمع بين ثناياه الجدية والسخرية، وبين إعطاء المعلومة الثقافية والتساؤل الاستنكاري.

ومن خلال تحليلها ودراستها يمكن الوصول إلى أهم معطياتها وعناصرها:

- إنها رحلة تمت في بداية العهد السعودي، حيث يفرض هذا الوضع السياسي التاريخي الجديد أن يعقد المؤلف مقارنة بين الحج في هذا العهد والعهد السابق.
- يصف الطريق من السويس إلى ينبع عن طريق البحر ويذكر ما يشاهده في هذا الطريق وخاصة أثناء نزوله في ينبع متحدثاً عن أميرها آنذاك من قبل ابن سعود واسمه عبدالعزيز بن معمر.
- يصف رابغ أنها المحطة التي يُحْرِم من عندها الحجاج المصريون.

- يتحدث عن ميناء جدة وقائم مقامها الشيخ عبدالله رضا زينل، وذلك أثناء وصول الباخرة إلى جدة.
- يصف ميناء جدة ذاكراً فنادقها ومبانيها وطرقها والبلدية فيها وآثارها وبوابتها الشهيرة ويقف طويلاً عند قبر حواء.
- يذكر بعض المعطيات الحضارية التي بدأت تدخل إلى الحجاز مثل الهاتف ونظام الأكل والأمن والأمان في العهد السعودي والحضارة التي يستوعبها الحجازيون بسرعة.
- يتحدث عن مشاهده في الطريق من جدة إلى مكة المكمة ومُركزاً على الأمن ونظام التأديب الذي مارسه النظام السعودي لتحقيق الأمن المفقود في العصور السابقة.
- يصف الحرم والكعبة المشرفة وبئر زمزم والحجر الأسود وكسوة الكعبة والمصنع المعد خصيصاً لذلك.
- يقف على نقطة جديدة وهي إنشاء مدرسة للمطوفين وهي من حسنات العهد السعودي الجديد.
- يصف مقر الملك عبدالعزيز في مكة واستقبال الأمير فيصل آل سعود نائب الملك على الحجاز.
- وأخيراً يصف زيارة الأمير فيصل للحرم الشريف ودخول الكعبة وما شاهده من الحجاج المتزاحمين آنذاك ويصوغها في عبارات تقطر بالسخرية والتهكم.

وفي الجملة فإن هذه الرحلة قطعة أدبية تتضح فيها روح المازني وثقافته ودعابته وسخريته. وأعتقد أنها ليست رحلة حج، وربما هي عمرة أو زيارة لأنه لم يشر إلى المشاعر المقدسة (عرفات - ومزدلفة

- ومنى) التي لابد لكل حاج يكتب رحلته أن يشير إليها. على أن أهم ما نفيده من هذه الرحلة هو معرفة واقع الحجاز في بداية العهد السعودي وهذا يكفي.

3/3: حسن بن عبدالله الكاف: رحلة وديوان (الطرف الشهية المستفادة من الرحلة إلى الديار المصرية والحجازية):

وهذه الرحلة تمت في عام 1330هـ، وذلك عن طريق مصر التي سافر إليها هذا الرحالة بقصد الحج من بلاد اليمن. وقد طبعت عام 1321هـ - 2000م ونشرتها مكتبة تريم الحديثة بحضرموت بالجمهورية اليمنية، وبعد تحليلها ودراستها توصلنا إلى أهم العناصر والمحاور التي تتبناها هذه الرحلة وهي على النحو التالي:

- يصف الديار والمناطق التي مر بها في طريقه من حضرموت إلى مصر ويذكر الأشخاص والأسر التي مر عليها وزارها ممن يعرفهم ويحرص على زيارتهم.
- يصف وصوله إلى مصر وزيارته المقامات والأضرحة والتبرك بها، وهذا مما يخالف الشرع ولكنه عند كثير من أهل الطرق والمتصوفة أمر ضروري لابد منه، ويبدو أن صاحب هذه الرحلة من أولئك المتصوفة حيث يثبت في كتابه هذا كثيراً من الأفكار والطروحات الصوفية.
- يصف وصوله إلى أرض الشام/ فلسطين حيث يمر بيافا وحيفا ويصف مبانيها.
- يصف الطريق من فلسطين إلى تبوك ومدائن صالح حتى وصل إلى مدينة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

- يذكر المدينة وما فيها من آثار وقباب على قبور الصحابة ويشير إلى التوسل بالأولياء والصالحين والصحابة وهذا فيه مخالفة شرعية.
- يصف الطريق من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة والمراحل التي بينها بتفصيل جيد.
- يصف الحج والمشاعر المقدسة منذ دخوله مكة حرسها الله مع ذكر إمامة المذهب الحنفي.
- يصف الطريق من مكة إلى جدة وذلك أثناء الحديث عن عودته من مكة ثم يصف جدة ومرساها والمدينة، ثم يصف الطريق البحري من جدة إلى كمران ثم الطريق البري إلى المكلا حيث يصل دياره سالماً غانماً بعد أداء فريضة الحج.

ومن خلال هذا التحليل نقف على صورة واقعية لطريق الحج اليمني كما نقف على كثير من الصور الاجتماعية عن الحجاز في هذه الفترة.

4/3: الأمير شكيب أرسلان: الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف: «الرحلة الحجازية».

وهي رصد وتوثيق لرحلة الحج التي قام بها المؤلف عام 1348هـ، ومن خلال دراستها وتحليلها يتضح أنها تحتوي على العناصر التالية:

- أن المؤلف كان في سويسرا أثناء عزمه على الحج فاتخذ طريق البحر من لوزان إلي بورسعيد في مصر ومنها إلى الحجاز.
- يصف طريق البحر من السويس إلى جدة مروراً برابغ وهي نفس الطريق التي تسلكه رحلات الحج من مصر.

- يهدي هذا الكتاب لجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود وبهذا يتضح أن حجته جاءت في أول العهد السعودي وهو بذلك يقارن بين عهدين عهد الأشراف والعهد السعودي.
- يصف جدة وميناءها وبحرها وبرها مشيراً في كل ذلك إلى الأمة العربية ودورها الريادي وكأنه يُذكر بالقومية العربية ويبشر بها.
- يصف الطريق من جدة إلى مكة المكرمة ويقف بشكل كبير عند بحرة الغربية الواقعة بين مكة وجدة ويصفها بشكل مهيب.
- وعندما يصل إلى مكة يصف مبانيها ويصف الحرم والمشاعر المقدسة وخاصة عرفات والوقوف بها يوم التاسع من ذي الحجة والاختلافات التي تحصل بين الشيعة والسنة في تحديد هذا اليوم المعظم والشهر المقدس.
- يشير إلى قضية المياه في مكة المكرمة وندرتها وعين زبيدة والمساعي السعودية لحل مشكلة المياه.
- يصف حال المطوفين بمكة والمزورين ويتعرض لمسألة الأوقاف بالمدينتين المقدستين واعتداء بعض الحكومات على الأوقاف الخاصة بالحرمين الشريفين.
- يتحدث عن الأشراف في الحج واستئثارهم بالأراضي وامتلاك الأماكن الحساسة الرائعة.
- يقدم اقتراحات مهمة للحكومات العربية للاهتمام بالحج والحجاج وتوعيتهم قبل الوصول إلى الأراضي المقدسة.
- يذكر بعض المشاكل الصحية أثناء الحج مثل كثرة البعوض وما يسببه من أمراض تؤدي إلى وفيات الحجاج.

ومن خلال هذه العناصر المهمة تبدو روح الأديب والكاتب الذي جمع بين الشعر والأدب والسياسة والتاريخ ومن أجل ذلك سمي بأمير البيان.

5/3: رحلة جغمان: (إسماعيل بن حسين جغمان): نيل الوطر في ذكر أحوال السفر إلى الحرم الأزهر والنبي الأنور:

وهي رحلة يمنية تمت عام 1241هـ، وقد عُرف صاحبها أنه أحد الرجال المؤثرين في أحداث عصورهم - وعلى الأقل في بلاد اليمن وليس مجرد عالم، كان له دور في السياسة ومكانة في الشعر والأدب.

ومن خلال التعريف بهذه الرحلة نقف على أهم عناصرها والموضوعات التي تناقشها وهي كما يلي:

- يصف الرحالة طريقه البري من صنعاء إلى الحديدة إذ يعبر على كثير من القرى والهجر والمدن ويصف ما شاهده فيها وما تعرض له من مشكلات مثل اللصوص وقطاع الطرق.
- يصف الطريق البحري من الحديدة إلى القنفذة والمدن التي يمر بها مثل كمران واللحية وجازان.
- يصف الطريق البري من القنفذة إلى مكة والقرى والهجر التي مر بها وقد توقف عند الميقات المسمى بالسعدية حيث أحرم منه
- يصف وصوله إلى مكة ويصف الحرم الشريف وماء زمزم وعين زبيدة مشيراً إلى بعض البدع والمنكرات التي تحصل من بعض الحجاج في الحرم الشريف.

- يذكر العلماء في مكة، ويصف منارات الحرم والطريق إلى المشاعر المقدسة (عرفات، مزدلفة، منى).
- يذكر أن حجته كانت موفقة لأن الموقف بعرفات كان يوم الجمعة ويشير إلى فضل هذه الحجة.
- يشير إلى احتيالات المطوفين ومشاكلهم مع الحجاج ويصف موكب الشريف الذي أدى الحج وخاصة في عرفة.
- يصف الطريق إلى المدينة المنورة وأسعار المواصلات بواسطة الجمال وغلاء أسعارها، مشيراً في هذا الصدد إلى بعض المحطات التي أصبحت اليوم جزءاً من مكة المكرمة مثل جرول والزاهر والعمرة.
- يصف القرى التي يمر عليها إلى المدينة والمراحل التي يقف عندها الحجاج أثناء هذه الرحلة الميمونة.
- يصف وصوله إلى المدينة وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، كما يقول، واصفاً إياه وصفاً دقيقاً، كما يصف قباء وأهل المدينة.
- يصف رحلة العودة من المدينة إلى جدة وما عاناه من اللصوص وقطاع الطرق في إحدى قرى طريق الهجرة.
- يصف جدة ومنازلها وطواحينها وأبوابها ومساجدها ويقف عند مقبرة حواء واصفاً ومحققاً.
- يذكر عودته إلى اليمن عن طريق البحر جدة - الليث - القنفذة - جازان، اللحية، ومنها يتحولون إلى الطريق البري، وادي مور إلى صنعاء، ذاكراً القرى التي مر بها والأصحاب الذين قابلوه واستضافوه مشيراً إلى إكرامهم وحسن استقبالهم.

ومن خلال هذه الرحلة يقف الباحث على صور جديدة تعبر عن الحج اليمني وتضيف إلى معلوماته أشياء كثيرة ومفيدة.

6/3: عباس متولي حمادة: مشاهداتي في الحجاز:

وهي رحلة مشرقية من أرض الكنانة (مصر) تحققت لصاحبها المؤلف عام 1354هـ وتم طبعها ونشرها في 17 رمضان 1355هـ الموافق ديسمبر 1936م، أي بعد الحج بعام تقريباً. وهذا يعني أنه كان ينوي الكتابة عن رحلته، بعد أن طلب منه ذلك بعض أساتذته - كما يقول في استهلاله للكتاب/ الرحلة.

ويبدو أنه حاذق بكتابة المذكرات والذكريات، ورصد المشاهدات وتحويلها إلى لغة سلسلة وقصة سردية جميلة لاسيما وأنه من أبناء الأزهر الشريف حيث يهدي هذا الكتاب/ الرحلة إلى فضيلة شيخ الأزهر آنذاك الشيخ محمد مصطفى المراغي.

ومن خلال تحليل الرحلة/ الكتاب نقف على مجموعة من المحاور والعناصر ونبرزها فيما يلي:

- يبدأ حديثه عن توفير نفقات الحج التي تدخل في باب الاستطاعة الشرعية لكل من يقرر الحج وما يلزم ذلك من جوازات سفر له ولوالده - كما يقول - وأدوات وملابس واحتياجات. ولعل الميزة في هذا الكتاب ذكر المبالغ التي يدفعها الحاج بالجنيه المصري وهي تشمل جميع المصاريف اللازمة للحج والزيارة والتأمين عدا أجرة السكن بمكة والمدينة ومصاريف الانتقال بين المشاعر.

- يصف الطريق البحري من السويس إلى رابغ ثم جدة متوقفاً عند وصف الباخرة «زمزم» التي أقلت الحجيج آنذاك في رحلة الحج، ومتعرضاً للإحرام بمحاذاة رابغ.
- يصف شاطئ جدة، ووكلاء المطوفين وميناء جدة ويصف المدينة نفسها ومبانيها وطرقها.
- يشير إلى قضية هامة لاحظها وهي مشكلة الزواج في جدة وأن الشباب من الطبقات الفقيرة يشكون من أزمة الزواج، وما يمكن أن تشكله هذه الظاهرة اللافتة فعلاً في تلك الفترة.
- يتحدث عن شح المياه في جدة ويصفها بأنها مشكلة من أهم المشاكل التي تواجه الحجاج.
- يصف الطريق إلى مكة المكرمة ويقف عند مسألة الأمن في الحجاز ويقارن بين عهدين، عهد الأشراف والعهد السعودي.
- يصف لقاءه الأول البصري والجسدي بالكعبة المعظمة ويصفها وصفاً دقيقاً، كما يصف الطواف والسعي ويبدي ملاحظاته حول التطويف والترجمة.
- يصف الحرم والمسعى ومدينة مكة المكرمة ذاتها.
- يشير إلى التجارة في الحجاز ويركز على تجارة السلع وتجارة النقود وتجارة الرقيق.
- يفرد فصلاً خاصاً عن نظام الحكم في الحجاز، والمذاهب الدينية والتعليم والصحافة والكتاب والأمن وحجاب النساء ثم يعيد النظر في مشكلة الزواج.

- يتكلم في رحلته عن أنواع وجنسيات الحجاج ذلك العام، وكيف تتأثر لغة الحجازيين بذلك.

- تحدث عن الآثار الإسلامية في مكة والمشاعر، ودور المذهب السلفي الذي يمثله السعوديون ونادى به ابن عبدالوهاب رحمه الله حول القبور والقباب التي بنيت عليها، وآثار النبوة والصحافة في مكة والمشاعر والمدينة وهدم كثير منها وإزالة بعضها.

- يتحدث عن ظاهرة التسول في مكة والمشاعر، ويشير إلى موضوع الصحة والأمراض والمشافي بمكة وموضوعات المواصلات والسيارات خاصة التي تديرها شركة السيارات العربية ودورها في تخفيف السفر من مكة إلى المدينة.

- يصف الطريق بين المشاعر (عرفات - ومزدلفة - ومنى - ومكة) وكل ما يتعلق بهذه المناطق أثناء تأدية المشاعر وتزاحم الناس وخطبة الحجيج على صعيد عرفات.

- يصف حضوره لحفلة ملكية أقيمت بمكة يوم السادس من الحجة 1354هـ، تحدث فيها الملك عبدالعزيز مخاطباً الحجيج والأمة الإسلامية.

- يتحدث عن دور الكشافة في الحج وهذا ثاني رحالة يلاحظ هذه المسألة.

- يقف عند ظاهرة جديرة بالتنويه وهي الفقراء والمعوزين والعجزة الذين يحجون وهم لا يستطيعون، وما يشكلونه من جهل بآداب الحج ومقتضياته، ويدعو المتعلمين والموسرين لأداء هذه الفريضة.

- يصف الطريق من مكة إلى المدينة وما يلاقيه الحجاج من أبناء البادية المتسولين، ويتحدث عن الأعراب أهل البادية وفصاحة لغتهم ورضا أنفسهم وعزتها وشموخها.
- يصف المسجد النبوي وخطبة الجمعة التي سمعها لأول مرة في الحجاز، والسلام على المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويصف الروضة الشريفة، ويذكر موقفاً شاهده بعد خروجه من المسجد النبوي وهو معاقبة شاهد زور حكم عليه بطلاء وجهه باللون الأسود ويُشهّر به رجال الشرطة!!.
- يصف مسجد قباء والمساجد المشهورة في المدينة ويزور قبور البقيع ويقف كثيراً عند آثار المدينة المنورة.
- يصف أهل المدينة وسكانها وحالتهم المعيشية وأخلاقهم.
- يصف عودته إلى جدة ثم إلى مصر عن طريق السويس.
- يقف وقفة ناقدة حول أخلاق الحجاج قبل الحج وبعده، وكيف كان مزيجاً من الرهبة والخشوع والإيمان والتواضع لله، ثم ينقلب الحال إلى أسوأ مما كانوا عليه قبل الحج من المعاصي وقد ألقى فيهم خطبة ينبههم إلى أثر ذلك ودور الحج في تطهير القلوب.
- يورد كثيراً من الصور الفوتوغرافية التي يوثق بها هذه الرحلة فنجد صوراً للمساجد والمآذن وبعض الشخصيات من أهل مكة والمدينة والبادية، وهذا يعتبر إضافة رائعة للكتاب ولعله الكتاب الثاني الذي يوثق معلوماته بمزيد من الصور النادرة.

ومن خلال هذا العرض الإجمالي تتضح قيمة الرحلة والأفكار الواردة فيه، ولاسيما بعض المعلومات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي ستفيدنا أثناء الحديث عنها.

7/3: الحاج عبدالعزيز صبري بك: تذكار الحجاز (خطرات ومشاهدات في الحج): «الجزء الأول»:

وهي رحلة مشرقية من أرض الكنانة (مصر)، قام بها صاحبها ومؤلفها في عام 1342هـ. وهذا التاريخ يذكرنا بالفترة الهاشمية للحجاز - فترة الأشراف - حيث يؤكد ذلك المؤلف بإهدائه هذا السفر الكبير إلى صاحب الجلالة الهاشمية ملك العرب الأكبر كما يقول، ومن خلال استقراء هذه الرحلة نجدها تتمحور فيما يلي:

- يبدأ رحلته بقصيدة شعرية بنفس عنوان الكتاب، يصف فيها أرض الحجاز وأنها أرض النبوة والرسالة، ثم يشير إلى حاكم الحجاز وهو الشريف حسين ودوره في نصرة الدين ويصفه بالعدل بين الرعية ونشر ألوية السلام على الحجاز.
- ثم يشير إلى دور الشريف حسين في الحرب العالمية الأولى وإعلان الجهاد على الحكام الأتراك وما اتهمته به بعض الحكومات من أنه خرج على الخلافة، ومالأ الإنجليز، ويدافع عن هذه التهمة حيث يرى أن موقف الشريف حسين ما هو إلا استعادة لحق قديم.
- ثم يُعرِّض بالحكام الأتراك وخاصة الخليفة محمد رشاد الخامس - الذي جاء بعد السلطان عبدالحميد الثاني - وقادة الاتحاد والترقي. إلى آخر ما في القصيدة وهي حوالي خمسة وستين بيتاً، يختمها بالدعاء لحاكم الحجاز الشريف حسين:

لازلت بالشرف الرفيع متوجاً ومـؤيـداً بـالـعـدل والإيمـان
وأعـز بـالحـرمين عرشك دائـمـاً وحبـاك في الإسـلام خير أمـان
وأدام نصرك في العلا حتى ترى كل الـعـدى خـروا إلى الأذقـان

- يتحدث في صفحات كثيرة عن تاريخ العرب، وحدود البلاد واتساعها، وعن حكومة العرب في الجاهلية، والنهضة العربية قبل الإسلام، ثم يتحدث عن ظهور الإسلام ودور العرب فيه وانتشار الإسلام. ثم يستعرض مراحل التاريخ الإسلامي من خلافة راشدة ودولة أموية، فعباسية، ثم يتوقف عند النهضة العربية الأخيرة/ عهد الملك الحسين.
- يتحدث عن المشاق والمصاعب والمشاكل التي لاقاها في الرحلة إلى الحج عن طريق البر في القطار «الخصوصيٍ» وفي البحر بواسطة الباخرة «الكويتٍ» التي حُشر فيها الناس حشرا حوالي «700» راكب ومدة السفر بحرا كانت «خمسة أيام بلياليها»، وذكر معاناتهمٍ مع الماء الذي لا يحصلون عليه إلا «بقدر معلوم». ثم يذكر طرفا من المعاملة الحسنة التي وجدها الحجاج في تلك السنة في مكة ومع الحكومة الهاشمية.
- يصف الوصول إلى جدة، ومقابلة رئيس الجمرك/ ناظر الرسوم الجمركية/ محمد بك الطويل، وهمته العالية وأخلاقه الراقية، ثم يصف جدة، ويشير إلى الاتهامات بين الحكومتين المصرية والحجازية حول حج هذا العام، ويصف المنازل في جدة والنظام الجمركي فيها.
- يصف الطريق إلى مكة عبر بحرة، ووسائل المواصلات المتوفرة آنذاك، ويصف بأنها قرية «قطعة من السعير وشرها مستطير» شديدة الحرارة، ومنازلها من الأكواخ، وماؤها كريه!!

- يصف الوصول إلى مكة، واستقبال الشريف حسين لحجاج هذه الرحلة ودخوله الحرم وما أحس به من خشوع ورهبة.
- يصف الشريف حسين وعهده والأمن الذي يتغنى به الجميع، ويصف حفل استقبال الشريف حسين لبعثة الحج المصرية والإكرام الذي لقوه من الشريف، وعلاقة الشريف بالدولة العثمانية وآل سعود. ويقف طويلاً عند قضية المحمل المصري الذي أعيد في هذا العام، ويكمل رحلة الحج المعتادة وما دار حول هذه القضية من مناقشات بين الحكومتين المصرية والحجازية.
- يصف الحرم الشريف بمكة والكعبة المعظمة وذلك من خلال حديثه عن الحج وتاريخه، ودور الحكومات الإسلامية المتعاقبة في الاهتمام بهذه الشعيرة المقدسة ويذكر بالشخصيات المصرية التي استطاعت إلى هذا الفرض سبيلاً.
- يستعرض الآثار الإسلامية في مكة ويصف أهلها وطيبتهم وكرم ضيافتهم وخاصة السيد أحمد السقاف رئيس الديوان الهاشمي ومسامراته.
- يصف حضور حفل مدرسي برعاية أمير مكة الشريف حسين وما قدم فيه من حفاوة بالطلاب والمعلمين، مشيراً إلى كلمات الترحيب من الوفود المشاركة.
- يصف الأمن في الحجاز وخاصة (أمن الطرق) وقدرة الشريف على نشر الأمن خاصة بإقامته لحدود الله.
- يطالب بمد سكة الحديد وخاصة من الوجه إلى المدينة المنورة.

- يتحدث عن المسائل الصحية ويقدم اقتراحات في هذا المجال.
- يصف التعلم والتعليم والاقتصاد والسكان والصناعة والقضاء والشرطة والأمن والصحافة والنقود والأمور الحربية، وكل ذلك في بساطة ودون استطراد أو خروج عن الهدف المنشود.
- وينهي هذا الكتاب الرحلة/ بقصيدة أخرى عن الحجاز.

ومن خلال هذا الاستعراض نستطيع التأكيد على أن المؤلف الحاج عبدالعزيز صبري بك، صاحب كلمة وموقف سياسي محدد، وصاحب دين ومشاعر إسلامية فياضة، وصاحب أسلوب لغوي واضح ومبين، وما تتميز به هذه الرحلة/ الكتاب أنها تحتوي على قصائدة شعرية في مواطن مختلفة من الكتاب مما يدل على شاعريته وفحولته.

8/3: محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية:

وهي رحلة ملكية للخديوي عباس باشا سنة (1327هـ) وكان من ضمن رجال الحج فيها الأستاذ الأديبِ والمؤرخ محمد لبيب البتنوني المصري، الذي اختاره الخديوي مرافقا معه.

إذاً نحن أمام رحلة مشرقية من مصر، تمتاز عما سواها بأنها رحلة ملكية/ خديوية تُؤرَّخ من قبل شخص آخر، وهو هذا الكتاب الذي يكاد يسجل كل صغيرة وكبيرة أثناء هذه الرحلة. ولذلك فمن خلال دراستها وتحليلها تتضح لنا العناصر التالية:

- يصف الطريق البري الذي يسلكه موكب الخديوي من القاهرة إلى السويس بواسطة القطار، والترتيبات التي عملت للخديوي في كل مكان ينزل فيه وخاصة الحجاز حيث أرسل مندوبين من مصر إلى هناك ليكونوا في استقبال الخديوي، كما يذكر هنا مراسيم الوداع.

- يشير إلى السبب من وراء هذه الرحلة الملكية الخديوية، وذلك من خلال خطاب الخديوي إلى نائبه في الحكم حيث يقول: «وإنا لنرجو أن يكون توجهنا إلى تلك الأقطار المباركة ووقوفنا بالذات على أحوال الحجاج المصريين وحاجاتهم، باعثاً في المستقبل لراحتهم واطمئنان بالهم...».
- يتضح أن هذه الرحلة تجيء في ظل العهد العثماني المتأخر حيث يرد اسم خليفة المسلمين السلطان محمد رشاد الخامس وأن الخديوية المصرية تقدم له الولاء والطاعة وتدعو له بالنصر والمنعة والعزة.
- يقتضب في وصف البحر والطريق إلى جدة فيشير إلى مدينة رابغ التي أحرم الحجاج من عندها، ويصف مبانيها وجغرافيتها ويذكر المسافة بينها وبين جدة.
- يصف وصول الموكب الملكي الخديوي إلى شاطئ جدة، ويصف المرسى وبواخر الحجاج القادمين من الهند وروسيا وتركيا وبلاد المغرب وبورتسودان، ومصر، وغيرها.
- يشير إلى الحجر الصحي وآلة تكرير المياه الموجودة في جزيرتي سعد وسعيد الواقعتين في عرض البحر أمام مدينة جدة من ناحية الجنوب.
- يصف مدينة جدة وأسوارها وشوارعها وأبوابها ثم يشير إلى مبانيها ومياه الشرب فيها. كما يذكر جنسيات السكان في جدة والتجار وعدد السكان والمدارس وطلابها والصحف الصادرة فيها، ويقف أخيراً عند الحكومة التي تنوب عن الشريف وهما القائمقام ووكيل

الشريف أحدهما يختص بالمالية والجمارك والثاني يختص بأمور العرب والعسكرية. ويشير في هذا المجال إلى أن مدينة جدة تشهد حركة دائبة أثناء موسم الحج.

- يصف قبر السيدة حواء وما قيل حوله من الكلام ضمن كتابات الرحالة السابقين، ويخلص إلى رأى خاص يقول فيه إن هذا القبر ما هو إلا بعض الهياكل المقدسة في الجاهلية وجاء الإسلام ومحاها فلما ضعف أثر الإسلام في نفوس الناس عادوا إلى هذا الأثر فبنوا عليه القبة لتكون مزارا، ثم يقدم دراسة نقدية حول هذا الأثر يفند فيه رأي من يقول إن هذا هو قبر حواء.
- يصف الموكب الخديوي ووصوله إلى ميناء جدة واستقبال الناس له وتحركه من هناك نحو مكة متوقفاً عند بحرة حيث يصف هذا الطريق الممتد من جدة نحو مكة.
- يصف بحرة وأنها تتميز بالقهاوي والاستراحات التي يفيء إليها الحجاج، ثم يحدد معالم الطريق بين بحرة ومكة وما بينها من مراحل حتى يصل الموكب إلى مكة المكرمة.
- يصف دخول الخديوي وحاشيته إلى مكة والاستقبال الحافل فيها، ثم وصوله إلى الحرم والطواف والسعي، ثم صلاة الجمعة وزيارة المقابر.
- ثم يعود الكاتب في رؤية تاريخية إلى طريق الحج بين مصر والحجاز في القديم والحديث وهو ما أسماه بطريق الحرمين، ومفصلاً ذلك بالمراحل والزمن بالساعة مما يعد إضافة جديدة لكتب أدب الرحلات.

- يعود إلى وصف مكة وتاريخها والمساكن المهمة فيها وسكانها من جميع الأجناس، مشيراً إلى اللهجات الحجازية/ المكية.
- يشير إلى شيء من عادات أهل مكة وبعض المشاهد والمقامات الموجودة فيها مع ذكر لأخبار البريد والتجارة والعمولات المالية والأسواق والأمراض المنتشرة في موسم الحج ومشكلة المياه والمقاهي والقلاع والمدارس والأجواء في مكة كذلك.
- يصف مجالس الحكم في مكة وخاصة ما يتعلق بالشريف سواءً في الأيام العادية أو يوم الجمعة.
- يذكر اهتمام أهالي مكة بالطعام وتهيئة موائده بطريقة حضارية.
- يورد ثبتاً تاريخياً بحكام أهل مكة من الأشراف مذكراً بأهم أيامهم في الحجاز وتواريخهم.
- يتحدث عن (الوهابية) - كما يقول - وعلاقتهم الحربية بمحمد علي باشا ويشير إلى شيء من تاريخ آل سعود. وكطبيعة أي مؤرخ فهو يمجد الفترة التي عاشها وتفاعل معها، ويلقي باللوم على الفترة الثانية دون معرفة كاملة وإحاطة شاملة!!
- يصف الحرم المكي منذ أيام الرسول صلى الله عليه وسلم وما أدخل فيه من زيادات وإضافات عبر تاريخه الطويل وخلال ذلك يصف الكعبة المعظمة وشكلها مع إيراد لتاريخها منذ الجاهلية وحتى الإسلام، ويصف الطواف بالبيت العتيق وما قاله الرحالة في ذلك مثل ابن بطوطة، كما يشير إلى فشل الملوك والحكام في تحويل الكعبة مثل أبرهة الحبشي، والقرامطة، وبعض ولاة الدولة الفاطمية.

- يذكر الهدايا التي كانت ترسل من قبل الملوك والقادة والتجار إلى الحرم المكي الشريف وأهم هدية كانت الكسوة، فيذكر تاريخها وأنواعها وهندستها وكل ما يتعلق بها.
- يصف المحمل المصري وما يقدمه من هبات وعطايا لأهل الحرمين الشريفين، ويقدم في هذا الإطار جدولاً بمصروفات المحمل وميزانيته لنفس العام الذي حج فيه عام 1327هـ.
- يتوسع في ذكر الحج كشعيرة مقدسة وتاريخ هذه الشعيرة، وما يتوجب على الحاج فعله من إحرام وطواف ووقوف بعرفة وأداء المناسك كاملة.
- يشير إلى أهم الآثار في منى، ثم يقف لذكر صفة الموكب الخديوي في حجه وانتقاله بين المشاعر (عرفات - مزدلفة - منى) ويشير إلى أيام الخديوي في منى وكيف كان يقضيها بين رمي وزيارات وحفلات تتلى فيها الفرامانات.
- يصف سفر الحجاج من مكة نحو المدينة، مبيناً الطريق إلى المدينة والمراحل التي يمر بها الحاج، والطرق الأفضل سلوكها نحو المدينة، ونظام القوافل، ثم يفرد فصلاً خاصاً ليوضح كيفية سفر الخديوي إلى المدينة والطرق التي سلكها: البحرية أولاً من جدة إلى الوجه، ثم الطريق البري ثانياً من الوجه إلى البدائع بواسطة القطار وفي هذا الإطار يصف مدينة الوجه وبماذا تتميز، ويذكر كل المحطات والقرى التي توقف عندها في طريقه من الوجه إلى المدينة المنورة.
- يصف وصول الموكب الخديوي إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وكيف انفرد كاتب الرحلة بزيارة للمسجد النبوي والصلاة

في الروضة الشريفة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، ثم يصف زيارة الخديوي للحرم النبوي والأعمال التي قام بها هناك.

- يصف الحرم النبوي/ المدني وما فيه من أبواب وأعمدة ونوعية السجاد المفروش بالحرم، ثم يورد تاريخاً للحرم النبوي، وما طرأ عليه من الإضافات والزيادات، كما يشير إلى الهدايا التي كانت تهدى للحرم النبوي، ومازال التجار والملوك يتسابقون إلى مثل هذه الإهداءات، ويصل أخيراً إلى بيان مصير هذه الهدايا!!
- يصف - بشكل تاريخي - بيوت المصطفى صلى الله عليه وسلم وحجراته الشريفة، ثم يتعرض إلى تاريخ المدينة المنورة وأسمائها، ويصل إلى حاضرها حيث يتحدث عن بعض العادات المدنية، والمكتبات والمدارس، والمياه وغير ذلك.
- يشير - وبشكل تاريخي - إلى فترة النبوة والخلافة الراشدة معرفاً بها وذاكراً في هذا الإطار جدولاً يبين أمراء المدينة المنورة، ويشير هنا إلى أنه اقتبس هذا الجدول من كتاب مرآة الحرمين الذي قدمنا عنه دراسة سابقة (انظر 1/3).

وأخيراً يتحدث عن عودة الموكب الخديوي من المدينة إلى مصر عن طريق تبوك بواسطة القطار، كما يشير هنا إلى الطرق الكثيرة التي يستخدمها الحجاج في العودة إلى بلادهم ويذكر أنها أربعة طرق: طريق نجد، طريق الوجه، طريق ينبع، ثم طريق السكة الحديد إلى الشام.

ولعل ما يميز هذا الكتاب عن نظرائه من كتب الرحلات أن المؤلف رحمه الله يستفيد من كتب الرحلات القديمة ويشير إليها بكل أمانة علمية، كما أنه يستشهد بأقوال المؤرخين والجغرافيين في كل موضع يحتاج فيه إلى استشهاد. وأخيراً فإن الكتاب يعتمد بشكل موثق على التاريخ فبينما هو يؤرخ للرحلة الخديوية نجده يخرج إلى أطر عامة تاريخية قد لا تفيد من يريد التعرف على خصوصية هذه الرحلة الخديوية.

ولكن الكتاب - على أية حال - يشكل حلقة مهمة لمعرفة الحجاز والحرمين الشريفين من خلال العام الذي تمت فيه هذه الرحلة عام 1327هـ مما سيفيد في حديثنا اللاحق إن شاء الله.

9/3: محسن بن عبدالكريم إسحاق ورحلته إلى الحج عام 1237هـ:

وهي رحلة منظومة شعراً، ولعل هذا ما يميزها في سياق دراستنا عن أدب الحج في المشرق العربي.

وتأتي هذه الرحلة في سياق الرحلات اليمنية التي وثقها ورصدها وحفظها المؤرخ اليمني الكبير عبدالله محمد الحبشي في كتابه (الرحالة اليمنيون).

والرحالة الذي نتداخل مع رحلته الآن هو العالم المتبحر في شؤون العلم والأدب، الذي كان يعد من نحاة اليمن الكبار وممن يجيد فن النثر والشعر. ولما لهذه الرحلة الدينية إلى المشاعر المقدسة من أهمية عند صاحبها فقد رغب أن يكون تسجيله لها شعراً لأن «النثر في هذا المجال دون مكانته وقدراته الأدبية الفائقة» كما يقول راصد هذه

الرحلات عبدالله محمد الحبشي. وعلى أية حال فمن وجهة نظري لا يمكن اعتباره شعراً كما هو متعارف عليه عند دارسي الشعر والنقد المحدثين، ولكنها أقرب إلى النظم من الشعر، بل هي تدخل في باب (الأراجيز) وهو صنف أدبي ينظم فيه الموضوع نظماً شعرياً لكل بيت قافيته الموحدة صدراً وعجزاً.

وبعد دراسة وتحليل هذه الرحلة (القصيدة الأرجوزة) وما قاله عنه الراصد والمحقق تتضح لنا مجموعة من العناصر وهي كما يلي:

- يذكر في مطلع الرحلة/ القصيدة سبب كتابة هذه الذكريات عن رحلته إلى الحج وأن الدافع لذلك هو التذكرة للأحباب والتحية للأصحاب الذين يقيمون في صنعاء، وتعريفهم بما حصل له في هذه الرحلة/ السفر.
- يبدأ في ذكر الرحلة وخروجه من صنعاء نحو مكة والحجاز وذلك يوم الخميس 21 شوال 1237هـ. ويذكر المراحل التي يسير فيها والقرى والمدن التي ينزل فيها وذلك كله عن طريق البر وبواسطة الحمير كوسيلة نقل مهمة آنذاك توصلهم إلى مدينا الحديدة.
- يصف الطريق من منطقة لأخرى وما يحدث لهم من مفاجآت سارة وغيرها، ومشاكل بين مجموعة من الحجاج الذين معه ويذكر الناس الذين استضافوهم أثناء نزولهم.
- يصف الحديدة - أثناء وصولهم إليها - واستقبال عامل الحديدة لوفد الحجاج ثم رحيلهم بحراً، ويصف البحر الذي لم يشاهده من قبل لأنه من أهل الجبال ويقول في ذلك قولاً جميلاً حيث يصف

البحر بالزمان الذي يجري وأهله في غفلة عنه وبهذا يستخلص هذا الرحالة حكمة عظيمة يقيس بها أمر الدنيا وأهلها.

- يصف السفن الشراعية التي يركبها الحجاج لأول مرة وما يحصل لهم من غثيان وأمراض لم يعرفوها من قبل.

- ولما يصل بحراً إلى القنفذة يصف هذا الميناء ويرغب في العودة إلى الطريق البري نظراً لما عاناه من مصاعب في البحر.

- ومن القنفذة يتعامل مع الجمال والقوافل كوسيلة للمواصلات البرية ويذكر إيجارها الغالي وسعرها المرتفع، كما يذكر من قابل من الحجاج فيها وخاصة من السودان.

- يذكر القرى والمراحل التي يمر بها ويقف عندها للراحة والأكل ويصفها وصفاً شعرياً جميلاً حتى يصل إلى الليث ومنها إلى الميقات يلملم حيث يحرم منه الحجاج.

- وحينما يصل إلى مكة مع قرب صلاة الفجر ويشاهد القناديل المضاءة على منارات الحرم يعلن ابتهاجه وسروره بهذا المنظر ويبدأ في شعر الحج من طواف وسعي وصعود إلى عرفة ويكمل باقي المناسك.

- يصف خروجه من مكة إلى المدينة وأهم القرى التي يمر فيها والمحطات التي يستريح فيها، وما إن يصل المدينة المنورة حتى يزور المسجد النبوي ويصلي فيه ويسلم على الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبيه واصفاً مشاعره تجاه هذا الموقف العظيم. ثم يختتم رحلته بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن خلال هذا العرض نلاحظ أن النص الشعري مهما كان جيداً لا يمكن أن ينقل لنا الصور والمشاهد والعادات والتقاليد كما ينقلها النثر. ولهذا فإن قيمة هذه الرحلة في لغتها وقدرة مبدعها على الصياغة، وتعرفنا على المواطن والمناطق التي يمر بها ركب الحجيج اليمني في تلك الفترة ووسائل المواصلات، وما يصادفه الحاج من مصاعب وآلام.

10/3: الإمام محمد رشيد رضا: رحلة الحجاز:

وهي إحدى الرحلات من المشرق العربي من مصر، قام بها عام 1334هـ الموافق 1916/1917م. ومعروف من هو الإمام محمد رشيد رضا أو رشيد رضا صاحب مجلة المنار التي كانت صدى لهموم العالم العربي والإسلامي في قضاياه المصيرية.

يعتبر رشيد رضا من العلماء المجددين المصلحين، قام بالعديد من الزيارات والرحلات التي سجل أكثرها في المنار نشراً في حينها ثم جمعها الدكتور يوسف إيبش في كتاب مطبوع بعنوان «رحلات الإمام محمد رشيد رضا»، وكانت الطبعة الأولى في حزيران/ يوليو 1971م، وهي التي نرجع إليها.

ومن ضمن هذه الرحلات التي يوثقها هذا الكتاب رحلته إلى الحج عام 1916/1917م الموافق 1334هـ، والتي بدأ نشرها في مجلته الشهيرة المنار في الأجزاء: 10، 20، (1916/1917م).

وبعد تحليل ودراسة الرحلة في مصدرها الثاني الذي سبق الإشارة إليه وهو كتاب يوسف إيبش نخلص إلى الموضوعات التالية:

- يشير في بداية رحلته إلى ظروف الحرب العالمية الأولى وكيف توقف الحج عن طريق البحار ولكن الله فرّج هذه الأزمة في هذا العام بجهود الشريف حسين والتعاهد بين الدول بحق التصرف في البحار.
- ثم يذكر أسباب عدم تمكنه من الحج في السنوات السابقة وهي خوفه من الدولة العثمانية وحكامها الاتحاديين، وعدم استطاعته المالية، وعجز السيدة الوالدة على الرحيل كما يقول.
- ثم يشير إلى أسباب تأدية الفريضة في هذا العام، ويذكر منها أن الحكومة المصرية قد سمحت بالحج إلى مكة بمبالغ مالية قليلة ودون أي تأمين مالي كما كان في السابق، وأن حكومة الشريف قد سهلت أمور الحج وقضت على كل المنغصات، وأن الاستطاعة المالية والبدنية قد تسهلت، إضافة إلى ذلك الرغبة الشخصية في استثمار هذا الموسم الرباني في النصح والأمر بالمعروف للأمة الإسلامية في المشاعر المقدسة لاسيما وأن الحجاج في حاجة إلى مثل ذلك.
- يصف بداية الرحلة من القاهرة بواسطة القطار متجهين إلى السويس وفيها تم تطعيم الحجاج ضد وباء الكوليرا ومغادرة السويس في 26 ذو القعدة.
- يصف الباخرة المسماة (النجيلة) التي حملته مع الحجاج إلى مكة المكرمة، ويقول إنها بطيئة وقديمة وقذرة وليس بها ضوء كهربائي... إلخ.
- يشير إلى كثير من البدع والمنكرات في السفينة من لهو ولعب وطرب وما يفعله المتصوفة من ذكر أقرب إلى الرقص واللعب.
- يذكر أنهم أحرموا بالحج عندما حاذت الباخرة منطقة رابغ.

- يشير إلى وصول الحجاج إلى جدة ويصف مبانيها والمرسى الذي ترسو عنده السفن ويصف الجو في جدة والسكن الذي نزل فيه، ومن قابله واستقبله من القيادات الحجازية أمثال محمد نصيف وكيل الشريف على جدة.
- يذكر موقف الشريف حسين من الاهتمام به واستقباله كمفكر إسلامي وعالم له وزنه وثقله المؤثر في مجريات السياسة آنذاك.
- يشير إلى بعض البدع التي يمارسها بعض الحجاج وهي عدمٍ لبس الإحرام والاعتماد على الفدية ويفصل في ذلك تفصيلاً كثيراً.
- يذكر سفره من جدة إلى مكة وسفر المحمل مشيراً في هذا الإطار إلى المواصلات وهي الجمال والحمير، كما يشير إلى أهمية الماء في هذه الرحلة عبر الطريق إلى مكة. كما يذكر بحرة التي استراح فيها ويصف الأمن في الطريق وأنه لم يقع أي اعتداءات في هذاالموسم ماعدا حادثة واحدة، ولكن الرجال المسلحين من أمن الطرق متواجدون بشكل واضح وأن الفضل في ذلك يعود للشريف حسين.
- يصف مشاعره عند أداء المناسك وأثناء التلبية، ويصف الحرم الشريف والكعبة المعظمة ويصف الطواف والسعي والوضع في مكة من حيث النواحي الاجتماعية والسياسية، ويشير إلى رخاء المعيشة في مكة طوال أيام الحج.
- يصف الطريق إلى المشاعر المقدسة ويقيس المسافات بينها ويُذكّر بحدود المشاعر، ويثبت وصفاً دقيقاً لكل مشعر من هذه المشاعر استناداً إلى كتاب الرحلات أمثال محمد لبيب البتنوني ومحمد

صادق باشا وابن جبير، ويقدم اقتراحاً لتنظيم محلات إقامة الحجاج في عرفة بشكل أفقي ويقسمها شارع رئيس وتخصيص كل ناحية لسكن جماعة من الحجاج وتوضع لذلك علامات، ويعين لهذا النظام من يحافظ عليه.

- يُذكّر بالحالة السياسية في الحجاز في أواخر سنة 1334هـ ويفرد فصلاً خاصاً، ويلمح في هذا الجانب إلى مسألة الخلافة ومطالبة الشريف بها والبيعة له، كما تردد في الصحف المصرية وبين الحجاج كما يشير إلى موقف الشريف الرسمي منها وهو ما لمسه محمد رشيد رضا وأثبته في هذه الرحلة.
- يذكر مشاركته في الحفل الخطابي السنوي بمنى الذي يحضره الشريف وإلقاء كلمة نشرتها جريدة القبلة، وهي خطبة طويلة أكد فيها ضرورة الاستقلال عن الحكم العثماني الذي يقوده جماعة الاتحاد والترقي، وأن الشريف حسين هو راعي هذا الاستقلال وأهل له.
- يصف دخوله الكعبة وما فيها، حيث تمكن من ذلك يوم الجمعة 15 ذي الحجة 1334هـ وبين فضل ذلك وأنه اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم.
- يشير إلى ظاهرة اجتماعية وهي كثرة الفقراء والمتسولين في مكة المكرمة وما يجب تجاههم.
- ثم يصف العودة بعد الحج من مكة إلى جدة ثم إلى مصر بواسطة الباخرة (النجيلة) التي جاءوا بها.

ومن خلال هذا العرض يتضح أن رحلة الإمام محمد رشيد رضا من الرحلات المهمة لما فيها من صور وأحداث ومشاهدات سياسية واجتماعية واقتصادية تفيد الدارس لهذه المسائل.

كما يتضح أسلوب الإمام محمد رشيد رضا الأدبي وإيراده الكثير من الموضوعات غير المتعلقة بالحج بشكل مباشر وإنما للإحاطة الفكرية والأسلوبية للأديب الكاتب العالم محمد رشيد رضا.

11/3: محيي الدين رضا - رحلة الحجاز:

وهي الرحلة المشرقية التي قام بها المؤلف عام 1353هـ الموافق 1935م، والمؤلف أحد الصحفيين والمحررين بجريدة المقطم ومراسل جريدة البلاد العراقية، وتم نشر فصول هذا الكتاب في الصحف المصرية وخاصة المقطم، الجهاد، نور الإسلام، ثم طبع هذا الكتاب عام 1354هـ أي بعد عام من الرحلة. وقد تميز هذا الكتاب/ الرحلة بإيراده صوراً فوتوغرافية لبعض الشخصيات الحجازية، وصوراً تذكارية له على ظهر الباخرة، وفي الاحتفالات الحجازية بمناسبة عيد الأضحى وغيرها.

وهو بذلك ثالث كاتب رحلة يهتم بالصور ويفرد لها مساحة في كتابه، رغم أنه استفاد من مجموعة صور أعارتها له صحيفة (اللطائف المصورة).

وتعتبر هذه الرحلة/ الكتاب شاهد حال على بداية العهد السعودي وما أحدثه من تنظيمات تتيح للحجيج راحة ورعاية وتنظيماً دقيقاً يسهل عليهم أداء الفريضة في يسر وسهولة.

ومن خلال استعراض ودراسة وتحليل هذه الرحلة يمكن الوصول إلى المحاور التالية:

- أنه يدعو الناس إلى الحج، والبعد عن الأقاويل والوشايات التي تذكر أن الحج محفوف بمخاطر البارجات الإيطالية في البحر الأحمر وأن

سفن الحجاج ستكون معرضة لقصف هذه البوارج. ويؤكد على ذلك بأن الأخبار تناقلت وصول الحجاج من جاوة وغيرها.

- يتحدث عن الأمن في الحجاز، ورخص الأسعار وهذا مدعاة لزيادة أعداد الحجاج لاسيما وأن يوم عرفة سيصادف يوم الخميس أو الجمعة، ويؤكد على مسألة الأمن والمواصلات والصحة الجيدة، وانعدام اللصوص وقطاع الطرق، والسبب في ذلك هو سياسة ابن سعود الداخلية والحزم في معاقبة المجرمين.
- يشير إلى وصول البواخر الجديدة التي أمنتها الحكومة المصرية وخُصصت لنقل الحجاج وهي الباخرة (الكوثر) التي ركب فيها مؤلف الرحلة ويصف ما فيها من أسباب الرفاهية.
- يصف ساعة الوداع في مرسى السويس ومشاركة زعيم مصر العظيم - كما يقول - محمد طلعت حرب باشا، ويعرب عن مشاعره تجاه هذه الرحلة الإيمانية وأنها رحلة صحية وجميلة والبحر هادئ وأشعة الشمس تتكسر على تاج الماء.
- يصف ساعة الوصول إلى محاذاة رابغ حيث يحرم الحجاج المصريون من هناك وتتحول ألوان ثيابهم إلى البياض الذي يوحي بالتوحد والسواسية فكل من على ظهر السفينة يتوشحون برداء وإزار واحد بلون واحد.
- يصف ميناء جدة وطريقة رسو السفن، وجمرك جدة، ويشير إلى الحادثة التي حصلت قبل عام للسفينة المغربية التي احترقت قريباً من ساحل جدة وراح ضحيتها حجاج كثير، ولاتزال السفينة المحترقة موجودة أمام الساحل وهي فرنسية كما يقول.

- يصف مكتبة نصيف في جدة وأنها تضم أنفس المطبوعات، ويصف الدار النصيفية التي تضم هذه المكتبة وهي دار العالم الوجيه السيد محمد نصيف الذي يوسم بالكرم والشهادة وحسن الضيافة ولم نجد غيره من الرحالة السابقين قد وصف هذه المكتبة.
- يشير إلى إحدى المدارس الابتدائية بجدة وناظرها وعدد فصولها ومعلميها مما يعطي انطباعاً يفيدنا فيما بعد عن الحركة التعليمية في بداية العهد السعودي.
- يصف الطريق إلى مكة المكرمة، ووسائل المواصلات، ويشير في هذا الصدد إلى أن السيارات حلت محل الجمال وهذا مدخل للمقارنة بين العهدين، ويصف الطريق وأنه ليس ممهداً وفيه رمال وأخاديد مما يسبب المتاعب للركاب وخاصة كبار السن.
- يقدم عدة اقتراحات لإصلاح الجمرك ومسألة المطوفين وضرورة إصلاح أحوالهم التعليمية حتى يقوموا بدورهم خير قيام.
- يشير إلى كثرة البعوض في مكة ولاسيما في الليل، وكثرة التراب وعدم إصلاح الطريق حول الحرم، وكذلك الطريق الخاص بالمسعى الذي يشبهه بالسوق يعج بالباعة والسيارات مما يفقد شعيرة السعي قداستها وخشوعها ويطالب بحل المشكلة.
- يصف مناسك الحج وشعائره من صعود لعرفات ونفرة إلى مزدلفة ومنى وإتمام المناسك ويقترح تنظيف عرفات وتقسيمها إلى أقسام لكل طائفة قسم خاص حتى يسهل الرجوع إلى المخيم.
- يصف دخوله الكعبة المشرفة في 14 من ذي الحجة (19 مارس 1953م). ويصف الكعبة من الداخل، كما يصف صعوده إلى غار

حراء ويطالب الحكومة السعودية بالاهتمام بهذا الأثر وتحسين الطريق إليه ليكون رمزاً دينياً ومدخلاً لزيادة ميزانية الدولة.

- يصف يوم مقابلة الملك عبدالعزيز آل سعود وبرنامج الاستقبال حيث بدئ بتلاوة القرآن ثم قام الملك بإلقاء خطبة دينية عن آداب الإسلام وفضائل الدين ويتحدث عن نعم الله عليه.

- يذكر حادث الاعتداء على الملك وولي عهده في الحرم من قبل بعض المجرمين اليمنيين وذلك يوم الجمعة يوم عيد الأضحى 15 مارس، وتبعات هذا الحادث الذي نجا منه الملك وأصيب الأمير سعود بضربة خنجر في كتفه وكان سموه يقي والده من الطعن كما يشير في هذا الصدد إلى موقف الملك من الحادثة وشجاعته النادرة.

- يصف العرض العسكري الذي أقامه الجيش السعودي، وبطولة الخيالة والهجانة ونشاطهم العسكري الذي اتضح من خلال العرض.

- يتحدث عن الأمير سعود، والأمير فيصل، والأمير عبدالله الفيصل حديثاً شيقاً يبين مدى علاقته بالقيادة السعودية، واحترام الأمراء السعوديين لهذا الكاتب، كما يتحدث عن فؤاد حمزة بك وعبدالله السليمان كلاماً جميلاً يدل على حسن العلاقة.

- يتحدث عن الباخرة (زمزم) التي حملتهم في رحلة العودة من الحجاز إلى مصر ويصف مكتبتها ومسجدها، ويصف منكرات الحجاج وهم عائدون من طرق ومدائح وأغاني، ويشير إلى تغير بعض الناس وكأن الحج لم يؤثر فيهم سلوكياً.

- يتحدث عن الكشافة العراقية الذين شاركوا في حج هذا العام ويصفهم بالتدين والخلق القويم، ويثني على جهودهم، ويشير إلى بعثة الحج العراقية ووسائل مواصلاتهم والزمن الذي استغرقته رحلتهم من النجف بالعراق إلى مكة المكرمة، وما قدموه من اقتراحات لتطوير وتحسين طرق الحج، ولعله بذلك أول رحالة يلاحظ هذه المسألة.

- ثم يتحدث عن الطرق الجديدة بين العراق والحجاز وعدد الحجاج العراقيين الذين جاءوا بطريق البر وذلك عن طريق السيدة زبيدة القديم وهو نفسه الجديد بعد استخدام السيارات.

- يصف الأحوال الصحية في الحجاز وبعثات الحج الطبية وخاصة البعثة المصرية والبعثة السورية ومصلحة صحة الحجاز ودور هذه المؤسسات الطبية في الإشراف الطبي على كل المشاعر المقدسة سواء عرفات أو مزدلفة أو منى أو مكة.

- يتحدث عن «الوهابيين» - كما جاء في الرحلة - وما يقال عنهم في مسألة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ويرد أنها فرية سيئة يروجها القالون لهذا الفكر السلفي الذي يسمونه «وهابي» ويستشهد بما قاله الملك عبدالعزيز في خطبته وما أورده ابن بليهيد في كتابه عن المناسك، وغيره من علماء نجد، ويستشهد كذلك بمقابلة صحفية أجراها مع الملك عبدالعزيز حول هذا الأمر، وكان الحال كذلك في المدينة المنورة مؤيداً ذلك بخطبة إمام الحرم المدني يوم الجمعة 29 مارس.

- يصف مكتبة الحرم النبوي ومكانها والمشرف عليها، ويطلب من

المؤلفين والناشرين إهداء كتبهم إلى هذه المكتبة لتزداد حصيلتها من الكتب النافعة.

- يتحدث عن النهضة العلمية في الحجاز وحاجتها إلى التطوير وزيادة عدد المعاهد والمدارس التي تقدم التعليم العصري. ويشير في هذا الصدد إلى الصحف والجرائد وصعوبة إنشائها، وكذلك يشير إلى التأليف ودور هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الاطلاع على كل عمل يراد تأليفه ونشره!!
- يصف منى، وإقامة الحجاج فيها لثلاثة أيام المعروفة بأيام التشريق ويطالب حكومة ابن سعود بتخطيط وتنظيم منى، كما يشير هنا إلى الذبح في منى حيث ينحر الحجاج هديهم ويرمى أو يدفن دون استفادة منه، ويقترح أن تقوم جمعية خيرية بالاستفادة من هذه اللحوم وتوزيعها على الفقراء المنتشرين في الحجاز!!
- يصف الفنادق في مكة، وسكن الحجاج ودور المطوفين في ذلك، ويشير إلى كرم الضيافة عند الحجازيين وتسابقهم إلى إكرام الضيف ويذكر أبا السمح إمام الحرم، ومحمد نصيف في جدة، كمثالين لهذا الكرم.
- يصف سفره إلى المدينة المنورة والطريق السيئ الذي أزعجه وما لقيه من مصاعب وما لمسه من بؤس أبناء البادية وشدة فقرهم وعوزهم ويشيد بالأمن الذي ضرب أطنابه في العهد السعودي.
- يصف المدينة المنورة ومكانتها وما قيل فيها من أحاديث نبوية، ويصف المسجد النبوي وما فيه من تحف ونفائس. وذكر المدارس

ومعاهد التعليم فيها. كما يصف الآثار والمزارات في المدينة المنورة، وكذلك المكتبات.

- يشير إلى المواطنين المصريين الذين استقروا في الحجاز وأصبحوا من مشاهيره (مثقفين وأئمة في الحرمين الشريفين ورجال أعمال ومطوفين) وغيرهم.
- يختتم كتابه بمجموعة من الأحاديث عن الأدعية والأمراض والجيش المصري، ومعاملة الحجاج الأجانب، وعدم حج الوفد السوري والمحاجر الصحية ودورها، ويطالب أهل الخير أن يتصدقوا على الحجازيين لشدة العوز والبؤس كما يقول.

ومن خلال هذا الإجمال يتضح أن هذه الرحلة/ الكتاب تحمل من الموضوعات المتعلقة بالحجاز ما يؤكد أهميتها كمرجع لدراسة رحلات الحج لاسيما وأنها مزودة بمجموعة من الصور، وتعالج بعض القضايا السياسية خاصة أنها في العهد السعودي.

ولعل ما يميز هذا الكتاب/ الرحلة أنه صنف على هيئة مقالات صحفية كانت تنشر في حينها فتجد كثيراً من التداخل والتكرار بين الموضوعات مما يؤكد أن العمل الصحفي إذا أريد له أن يتحول إلى كتاب فلابد من المراجعة والتدقيق والحذف حتى يخرج بصورة جديدة ومفيدة.

12/3: محمد صادق باشا - الرحلات الحجازية:

وهي أربع رحلات للحج/ لأولى عام 1277هـ الموافق 1860م والثانية سنة 1297هـ الموافق 1880م والثالثة عام 1302هـ الموافق 1884م

والرابعة عام 1303هـ الموافق 1885م. ولكل رحلة من هذه الرحلات ألّف كتاباً مطبوعاً على النحو التالي:

الرحلة الأولى بعنوان «نبذة في استكشاف طريق الأراضي الحجازية من الوجه وينبع البحر إلى المدينة النبوية وبيان خريطتها العسكرية».

الرحلة الثانية بعنوان «مشعل المحمل في سفر الحج براً».

الرحلة الثالثة بعنوان «كوكب الحج في سفر المحمل بحراً وسيره براً».

الرحلة الرابعة والأخيرة بعنوان «مهمة تسليم قمح صدقتي مكة المكرمة والمدينة المنورة بجدة».

وقد قام الباحث محمد همام فكري بإعادة طبعها ونشرها مجتمعة في كتاب بعنوان «الرحلات الحجازية» ضم فيه كل تلك الكتيبات/ المؤلفات المتفرقة، بعد ضبطها وتحقيقها وإضافة بعض العناوين إليها لتكون في متناول الجميع كما يقول.

والمؤلف الأساسي/ الرحالة محمد صادق باشا، المهندس والضابط الجغرافي المصري، كان خروجه إلى الحجاز برفقة المحمل المصري بوظيفة أمين الصُّرَّة، ومن هنا تكتسب رحلاته أهميتها فهو شاهد عيان ينقل بكل أمانة الأوضاع الحجازية في فترة النصف الثاني من القرن التاسع عشر، 1277هـ/1860م.

تتميز رحلاته عن الرحلات السابقة، بأنه تزوَّد بالأجهزة العلمية التي أعانته على تسجيل البيانات ورسم الخرائط وتعيين المحطات وذكر أسماء النباتات والصخور والجبال وطبيعة الأرض. وهي بذلك

تصبح ذات قيمة علمية مميزة فيها من المعلومات الجغرافية ما لا نجده في سواها من كتب الرحلات الحجازية.

وبعد دراسة وتحليل هذا المنجز الرحلاتي وصلنا إلى أهم العناصر والموضوعات التي تناقشها هذه الكتب وهي كما يلي:

- **الكتاب الأول:**

- بعد المقدمة، يصف الأداة التي أحضرها معه لقياس المسافات والأبعاد ويسهب في وصفها حتى تتضح مكوناتها وطريقة عملها.
- يصف رحلته من القاهرة إلى السويس بواسطة القطار، ثم إلى الوجه بواسطة البحر.
- ويصف ميناء الوجه وصفاً دقيقاً، ويصف انطلاقتهم إلى المدينة المنورة بواسطة الجمال.
- يصف القلعة العسكرية والمعروفة بقلعة الوجه وهي في الطريق بين الوجه والمدينة المنورة بمسافة (9000 متر)، وما يعانيه حرسها من صولة العربان ولصوصيتهم، ويصف الجمال المعدة للركوب وأنها هزيلة.
- يصف الطريق من قلعة الوجه إلى المدينة المنورة والمحطات التي يتوقف عندها الحجاج والزوار، ويشير إلى الأمطار وقلتها.
- وبعد الراحة في كثير من المحطات يصل المؤلف إلى المدينة المنورة، ويصف حال المزورين والموظفين وحاجة الحجيج إليهم للتعريف بالمدينة وأماكن الزيارة. كما يصف دخوله إلى الحرم النبوي وصلاته بالروضة ثم السلام على المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبيه رضي الله عنهما.

- يصف قبور الصحابة في البقيع والمزارات المشهورة هناك، كما يصف خدم المسجد النبوي وهم الأغوات. كما يصف أهل المدينة وأصولهم، والبيوت التي يسكنوها وتجارتهم من التمر لكثرة النخيل إلى غير ذلك.
- ينهي هذه الرحلة بالحديث عن طريق العودة من المدينة إلى الجديدة ثم إلى ينبع البحر، واصفاً هذا الطريق ومبيناً المسافات بين كل مرحلة وأخرى ثم يشير إلى العودة من ينبع إلى السويس بواسطة البحر.

• **الكتاب الثاني:**

وهو خاص برحلة الحج التي قام بها محمد صادق باشا عام 1297هـ/1880م وفيها وصف دقيق لأهم المراحل والمسافات والمنازل والمحطات التي يقف فيها الحاجٍ المصري في طريقه من السويس إلى جدة فمكة المكرمة والعكس أيضا أثناء عودته.

ولعل أهم ما جاء في هذه الرحلة ما يلي:

- يصف العربان - ويقصد بهم البدو من أهل الحجاز - وصفاً غريباً، حيث يشير إلى سوء أدبهم، وعدم توقير كبيرهم، وليس لديهم أمان، وشيمتهم الغدر والخوف من السلطان.
- يصف دخوله مكة المكرمة والحرم والطواف والسعي ويورد بعض الأدعية المناسبة للطواف والسعي، أما الحرم فيقف عند وصفه على كل صغيرة وكبيرة وهو ما لم نجده في كثير من الرحلات التي اطلعنا عليها. ثم يصف المشاعر المقدسة ومناسك الحج في أيامه الأولى.
- يقدم لنا صورة واقعية عن «منى» وكيف تتحول إلى روائح كريهة

من بقايا جثث الهدي والأضاحي والجزور التي تذبح في منى خلال الأيام الثلاثة.

- يصف حادثة غريبة وقعت بين الحجاج المصريين أثناء سفرهم بالباخرة من السويس حيث ادعى أحد الحجاج القدرة على السحر والشعوذة فخدع أحد الموسرين وأخذ ماله.
- يصف الطريق والمراحل والمسافات بين مكة والمدينة حتى يصل إلى مدينة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وزيارة المسجد النبوي، والصلاة فيه، ثم السلام على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصاحبيه رضي الله عنهما ثم يتحدث عن زيارته للمصحف العثماني الموجود بجوار قبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالحجرة الشريفة وهو ما لم يذكره أحد من المؤرخين والرحالة. ثم يواصل وصف البقيع وبعض المزارات في المدينة النبوية.
- يختتم رحلته الثانية بفكرة عن صعوبة ومشاق الرحلة للحج من مصر إلى الحجاز وما يعانيه الحاج في سبيل الوصول إلى بيت الله الحرام ومسجد نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام، وما إن يصلوا إلى تلك الديار المقدسة حتى ينسوا كل تعب ومشقة ويقبلون على الله بقلوب مؤمنة، ولما يكملوا نسكهم، تتحرق الأشواق للعودة للأوطان... إلخ ما يقول.

- **الكتاب الثالث:**

وهو رسالة ملحقة بالرحلة السابقة (الثانية) واستكمالاً لها «لتتم الفائدة وتكتمل» كما يقول في مقدمة هذه الرحلة.

ومن أهم الموضوعات التي يتعرض لها ما يلي:

- يكرر ما قاله سابقاً عن وصف الطريق من السويس إلى جدة، مشيراً إلى وصول المحمل واستقباله والاحتفال بذلك.
- يصف مكة المكرمة وعادات أهلها في الزواج، ويصف الطريق بين جدة ومكة، كما يصف الحرم المكي.
- ولعل الجديد الذي يضيفه في هذه الرحلة هو وصفه لتأمين الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة من مهاجمة العربان وقطاع الطريق بأمر شريف مكة.
- يتحدث عن سكان الحجاز والقبائل القاطنة فيه، وغرائب عاداتهم في الملبس والسكن والزواج وغير ذلك.
- يتحدث عن إحدى القبائل بين رابغ والمدينة واسمهما قبيلة (اللهبة) ودورها في سرقة الحجاج، ويشير كذلك إلى حوادث النهب في الطريق وموقف الحجاج من ذلك.
- وعندما يصل إلى المدينة المنورة يتحدث عن القرامطة وغلاة الشيعة القاطنين بجوار المدينة.
- يورد صوراً نادرة لمكة والمدينة والحرمين الشريفين، وهذه تعد مكسباً للباحثين والمصورين ليؤرخوا بهذه الصور النادرة.
- يشير إلى رحلة جديدة خرج فيها إلى مكة والمدينة في سنة 1302هـ/1885م في مهمة رسمية وهي تسليم صدقة القمح على مستحقيها في الحجاز، وما صادفه من حوادث وقضايا مثل ثورة عربان بني إبراهيم، كما يصف الكعبة وقد دخلها يوم غسلها والعادات المتبعة في غسيل الكعبة المشرفة.

- يشير إلى حادثة قتل في مكة شهدها وسجلها، قبيل مغادرته مكة إلى جدة ثم السويس ثم إلى القاهرة.

- **الكتاب الرابع:**

وفيه يجمع كثيراً مما كتبه في الكتب الثلاثة السابقة مما رأى أنه يفيد الحجاج والزوار ليكون علماً يهتدي به براً وبحراً كما يقول المؤلف محمد صادق باشا. وفيما يلي بيان بأهم الموضوعات التي جاءت في هذا الكتاب.

- يتحدث عن الإحرام وشروطه وكيف يحرم كلاً من الرجل والمرأة.
- ثم يتحدث عن العمرة ومناسك الحج، ويشير إلى كثير من عادات أهل مكة، ويتحدث عنٍ عين زبيدة وجريانها وبناء قناتها بين منبعها في وادي نعمان مرورا بعرفات إلى مكة المكرمة، ثم يذكر شيئاً عن العملات المستخدمة في الحجاز وأسعارها وقت الحج وبعده.
- يشير إلى ولاية الحجاز وحدودها، وهو أول رحالة يذكر هذه الحدود التي يؤكد أنها تمتد من القنفذة وحتى المدينة، ثم يذكر إقليم الحجاز وجغرافيته وسكانه وطبائع أهله.
- يصف المشاعر المقدسة وما فيها من مناسك أثناء الحج، ويؤكد على ما يصاحب النفرة من عرفات إلى المزدلفة من احتفالات وموسيقى عسكرية مصاحبة وأصوات الطبول والمزامير، وكل هذا ينافي الروحانية والسكينة المطلوبة في هذا الموقف.
- يصف منى وما فيها من نسك وأهم إشارة في هذا المجال هو ذكر قيمة الذبائح والأضحيات وكانت من ريال ونصف إلى ثلاثة ونصف وهذا يفيدنا أثناء الحديث عن الأحوال الاقتصادية.

-يصف المدينة المنورة، وكيفية الزيارة، والحرم النبوي، والمزارات بالمدينة، وعادات أهلها.

- وهناك إشارة مهمة إلى الوهابيين ويقصد السعوديين أهل نجد وحروبهم في المدينة، وينقل عن الجبرتي كيف استسلم الشريف للوهابيين الذين طبقوا السلفية في الحجاز بكل حذافيرها، ومنع وصول المحمل بالصورة المعروفة، وهدم القباب والمزارات في مكة وينبع والمدينة، ويشير في هذا الصدد إلى نهاية الدولة السعودية الأولى على يد محمد علي باشا والدولة العثمانية.

ومن خلال هذا الاستعراض السريع لمجمل الموضوعات التي يناقشها الرحالة الحاج محمد صدقي باشا في كتبه ورحلاته الأربع نلحظ تميزاً واضحاً في الجانب التفصيلي والتوضيحي الأشمل لكل نواحي الطريق الذي يسلكه الحاج المصري وما فيه من صعوبات ومشاكل، بل إنه يدقق الوصف في كثير من العادات والأخلاق المستحبة والمستقبحة عند أهل الحجاز عموماً. وهو في وصفه ذلك لا يتجاوز منزلاً أو مرحلة إلا وأكد على كل ما يتعلق بها فكأنك تشاهدها بعين الحقيقة.

13/3: يحيى بن المطهر بن إسماعيل: بلغة المرام في الرحلة إلى بيت الله الحرام:

وهي إحدى رحلات الحج من المشرق العربي وخاصة من الأراضي اليمنية، قام بها المؤلف سنة 1221هـ، وفيها إشارات كثيرة إلى ما يتعلق بهذه الرحلة من وصف للطرق والقرى والأماكن التي يمر عليها

الحاج اليمني، ويفرد فصولاً خاصة للتعريف بمكة والمدينة والمشاعر المقدسة.

ومن خلال استعراض مادة الكتاب/ الرحلة نستطيع أن نخرج بالموضوعات التالية:

- يصف الطريق من صنعاء إلى جدة ماراً بالحديدة، ثم كمران فحمضة فالقنفذة فالليث فجدة، وذلك عن طريق البحر.
- يصف السفينة التي أقلته من ميناء الحديدة إلى ميناء جدة وما لاقاه من أهوال ومصاعب في البحر، ويرسم صورة يدوية لمجسم السفينة وأقسامها.
- يصف بحر جدة ومرساها ورجال المال فيها، كما يشير إلى غلاء الأسعار وأنواع الأطعمة مقارنة بما في بلاده اليمن.
- يتحدث عن معاملة الحجاج اليمنيين من قبل الجنود الحجازيين، جند الشريف الذين كانوا يسبون بأغلظ الشتائم ويصفون الحاج اليمني بأبشع الأوصاف ويستغرب ذلك منهم.
- يصف الكعبة المعظمة عندما يصل إليها طائفاً وما لها من أبواب، كما يقف مندهشاً عند المحمل المصري ويتحدث عنه ويورد رسماً يدوياً للكعبة، والرسم يدل على حرص المؤلف على تفريعات الحرم وتقسيماته كما هي على الواقع.
- يتحدث عن المشاعر المقدسة ومناسك الحج عندما يشير إلى وصف الطريق من مكة إلى عرفات، ولكنه يقف بنا عند حادثة مهمة وهي الخلاف الذي وقع في تلك السنة التي حج فيها حول يوم الوقفة بعرفات والآراء المتفرقة هل هو يوم الأحد أو يوم الاثنين، ويشير إلى

اجتهاده وأصحابه من حجاج اليمن فوقفوا يوم الأحد احتياطاً ويوم الاثنين مع عامة الناس، وقد ثبت فيما بعد أن يوم الأحد هو يوم الوقفة بشهادة قامت في المدينة المشرفة، (كما يقول).

- يتحدث عن بعض المنكرات في مكة وخاصة الاعتقاد في الأولياء الصالحين والتبرك بهم وشرب الدخان، ويشير في هذا الصدد إلى موقف الشريف وسياسته وجبروته وظلمه ويورد في ذلك قصصا عجيبة.
- يتحدث عن أيام منى والزحام وكثرة الناس، ويصف الألعاب النارية التي تصاحب المحمل ويلهو بها الناس في ذلك المكان والمشعر المقدس.
- يصف خروجه إلى المدينة المنورة بعد الانتهاء من الحج، ووسائل المواصلات كانت الجمال، وعندما يصل المدينة يبدأ في وصفها ووصف حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يصف أهل المدينة بمكارم الأخلاق والكثير من المزايا الحسنة.
- يذكر العودة من المدينة ويصف الطريق إلى جدة ثم إلى القنفذة ثم إلى جازان فاللحيّة حتى يصل بلاده صنعاء اليمن، وما قابله من مشاكل في الطريق البحري من حيث العواصف والأمواج الشديدة قبالة ميناء جازان.

ومن خلال هذه الطروحات نستنتج أن الزمن الذي قضاه الحاج/ الرحالة صاحب كتابنا هذا قد استغرق من 11 شوال 1211هـ الساعة الثالثة، حتى آخر نهار الخميس 10 صفر 1212هـ أي ثلاثة أشهر وواحد وعشرين يوماً.

وهذا يعطينا فرصة المقارنة بين الحج قديماً وحديثاً والتسهيلات الكبرى التي قدمت للحجيج حتى لا يشعروا بأي مشقة أو تعب فرحلة الحج كلها لا تستغرق أسبوعاً لمن يتعجل.

14/3: جمعية الهداية الإسلامية في دمشق/ سوريا:

الرحلة إلى المدينة المنورة، كتبها الشيخ محمود أحمد ياسين رئيس الجمعية.

وهذه الرحلة مخصصة لزيارة المدينة المنورة وليست للحج وقد أدخلتها في باب رحلات الحج لارتباطها بأحد الأماكن الشريفة التي تشد إليها الرحال، لأنها من منطقة الحجاز ولأنها رحلة من المشرق العربي من بلاد الشام (سوريا). وهذا ما يدفعنا لتحليلها ودراستها والوقوف على أهم عناصرها، وذلك فيما يلي:

- يقدم المؤلف لرحلته مبيناً أهداف هذه الرحلة وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسعي مع الحكومة السعودية لإعادة بناء الخط الحديدي الذي يربط بين الشام والمدينة والذي دمر أثناء الحرب العالمية الأولى.
- يشير إلى كثير من النواحي الدينية والأخلاقية التي كان يبثها بين رفاق الرحلة وعندما استقر في المدينة كان يقابل العلماء من أهلها ويتحاور معهم في شتى الأمور الدينية.
- يذكر في رحلته كثيراً من الآراء التاريخية وخاصة فيما يتعلق بالخط الحديدي الذي هو محور هذه الرحلة، كما يشير تاريخياً إلى حضارة هذه الأمة الإسلامية وتاريخها منذ أيام المصطفى صلى الله عليه

وسلم، وعبر القرون والدول التالية وحتى عهد الملك عبدالعزيز آل سعود.

- يصف المسجد النبوي وتاريخه بكثير من الشمول والدقة، كما يتحدث عن مقابر البقيع ومدافن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.
- كما يشير في رحلته إلى كثير من الجوانب الأدبية واللغوية ويذكر بعض المواقف الإعلامية التي واكبت هذه الرحلة، كما ينقل لنا صورة من الخطب والقصائد والكلمات التي كانت تلقى بين يدي الوفد.
- كما نجد في هذه الرحلة كثيراً من الجوانب الجغرافية من حيث وصف الطريق بين دمشق والمدينة المنورة والقرى التي يمرون بها مع إشارات عن أهل هذه البلاد وسكانها وقوفاً عند تبوك ومدائن صالح من الأراضي السعودية، كما يتحدث عن الأعراب سكان البادية وفصاحة لسانهم، ثم يتحدث عن المناخ والأجواء من عواصف وأمطار، وقلة الماء وكثرته إلى غير ذلك.
- يصف كثيراً من النواحي الاجتماعية لسكان الحجاز في الطريق من الشام إلى المدينة، ولا ينسى أن يعرفنا بالأشخاص الذين قابلوه وأبرز القيادات الحجازية التي تحدث عنها.
- يصف أيضاً كثيراً من النواحي الاقتصادية التي يمكن أن تؤثر أو تتأثر بفعل الخط الحديدي، ويشير إلى ميزانيات التكايا المصرية والأموال التي تنفق في المدينة من أوقاف الخديوي محمد علي باشا وإلى مصر آنذاك.

وهكذا كانت هذه الرحلة المشرقية/ الشامية تحمل في طياتها كثيراً من الأفكار والمعارف التي سوف يستفيد منها الباحث، ويوظفها في المحاور التالية إن شاء الله.

15/3: محمد بهجة البيطار الدمشقي: الرحلة النجدية الحجازية «صور من حياة البادية»:

وهي الرحلة التي قام بها عام 1338هـ من دمشق متجهاً نحو نجد لتسليم رسالة للملك عبدالعزيز آل سعود من قبل الملك فيصل بن الحسين والسيد محمد رشيد رضا ولكنه لم يوفق في الوصول إلى نجد فحول وجهته إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، والسلام عليه وعلى صاحبيه رضي الله عنهما.

وبعد الاطلاع على هذه الرحلة يمكن استخلاص أهم ما جاء فيها وذلك على النحو التالي:

- يصف السبب في عدم وصوله إلى نجد وذلك بسبب العربان الذين قطعوا طريقه وسلبوا أمواله، ويصف لجوءه إلى قرية الحائط في ضيافة حاكمها الشريف عبدالمطلب بن غالب، وتخوفه من القتل على يد النجديين المتدينة كما يقول.
- يصف قرية الحائط الواقعة شمال المدينة المنورة، ويصف أهلها بالكرم والشجاعة وانتمائهم لحكم الأشراف.
- يصف عزمه على زيارة المدينة المنورة وكيف تحقق له ذلك، ويثبت في صدر رحلته هذه قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم أنشأها يوم وصوله المدينة.
- يصف دخوله المدينة، ثم زيارة حاكمها الشريف علي - ولي عهد الإمارة الهاشمية - ثم يصف دخوله الحرم النبوي والخشوع الذي اعتراه والدموع التي انهمرت من عينيه وسلامه على المصطفى صلى الله عليه وسلم وصاحبيه.

- يصف الحالة العلمية في المدينة المنورة، والتأخر الذي تعيشه نتيجة للحرب ونقص الأموال والأنفس والثمرات. ويشير هنا إلى العلماء المجاورين بالحرم النبوي وهم غرباء عن المنطقة.
- يذكر رسائله التي كتبها للإمام عبدالعزيز آل سعود وبيّن فيها المصاعب التي حصلت له في الطريق. ويطلب من الإمام عبدالعزيز أن يرسل بعض الوعاظ والمرشدين للقرى البعيدة عن نجد لتعليم الناس الدين والعقيدة، أما رسالته إلى الإمام محمد رشيد رضا فقد تحدث فيها عن المشاكل التي واجهته في الطريق إلى نجد وزيارته للمدينة المنورة، كما يشير إلى أنه أمضى في المدينة المنورة ثلاثة أيام فقط ثم عاد منها إلى دمشق واصفاً الطريق وصفاً إجمالياً.

ومن هذه الرحلة يتضح لنا حالة الفوضى السياسية التي عانتها الجزيرة العربية في نهاية الحرب العالمية والخلاف بين آل سعود والأشراف على حكم الحجاز ومحاولة العلماء والوجهاء السعي بالصلح بين الفريقين ومنهم صاحب هذه الرحلة.

16/3: د. محمد حسين هيكل: في منزل الوحي:

وهو الأديب المصري الكاتب والصحفي والمؤرخ المعروف، قام برحلته إلى الحج سنة 1936م مبتدئاً طريقه من السويس - وعبر البحر - إلى جدة.

ومن خلال تحليل هذه الرحلة نصل إلى الموضوعات التي تناولها وهي على النحو التالي:
- يصف وصوله إلى جدة والجمرك المظلم الذي يفتش فيه الحجاج، وأمتعتهم، والفندق الذي استراحوا فيه ولم يعرف من جدة غيره كما يقول.

- يذكر السبب في تسهيل حجته وأنها دعوة من وزير المالية السعودي عبدالله السليمان الذي عرفه في بيروت عام 1935م حث ضمهما مجلس فتذاكرا في كتاب هيكل حياة محمد، ودعاه إلى زيارة الحجاز والحج على ضيافته، فرحب هيكل بهذه الدعوة التي استجاب لها.
- يصف الطريق من جدة إلى مكة، ويشير إلى المباني الحكومية في الطريق وأنها بدائية ولا شيء فيها من نظام العمران الحديث، ويذكر وسيلة المواصلات آنذاك وهي السيارات.
- يصف دخوله مكة في منتصف الليل، وهو في إعياء ومشقة من الطريق لكنه فضّل العمرة حين وصوله، ويصف الكعبة ومشاعره عندما رآها لأول مرة من خشوع وخشية ورهبة، كما يصف الطواف والسعي ومحلات الحلاقة بجانب المسعى.
- يصف لقاءه مع مضيفه وزير المالية ووصفه لهذا الرجل الإنسان. ويذكر هنا فكرة سياسية مميزة وهي إنشاء عصبة الأمم الإسلامية، وأن يكون مقرها مكة المكرمة.
- يصف الخروج إلى عرفات والوقفة بها والمشاعر المقدسة والطريق بينها، ويقف عند معرفته برجل أوروبي أسلم وحسن إسلامه وحجٍ إلى بيت الله الحرام ضمن حجاج ماليزيا هو وزوجته المسلمة أيضاً وتناقشا فيما يهم العالم الإسلامي وسبل وحدته واندماجه والوقوف ضد الحضارة الأوروبية المادية.
- يصف يوم عرفة والوقوف بها وخطبة نمرة ويشببها بأنها «تقليدية مثل خطب الجمعة في مصر»، كما يقول. ويذكر المطر الذي نزل ذلك اليوم والريح القوية التي استمرت إلى وقت متأخر، ثم يصف

إفاضته إلى مزدلفة بعد تحسن الأحوال الجوية ثم إلى حيث رمى الجمرة الكبرى وأفاض إلى مكة لطواف الإفاضة.

- يصف المسعى وحالة الناس فيه فمنهم الماشي على قدميه ومنهم الراكب على جواد ومنهم المتطي جمله أو سيارته، وهكذا كان المسعى والسعي!! ويصف المقاهي والحوانيت على جانبي المسعى ويتألم لهذا الوضع السيئ لقدسية المكان وحرمته.

- يصف جبل حراء ويتمنى الوصول إلى الغار ليتزود من ذلك بما ينفعه قبل رجعته إلى قومه فإذا عاد إليهم، عاد وفي يديه قبضة من أثر الرسول كما يقول.

- يتحدث عن بعض العادات في مكة مثل عادة الولائم والطعام وتقليدهم للغرب والمدنية. ويشير إلى ر[illegible]ة الشباب الحجازي في نشر التعليم الذي يفتقدونه في الحجاز.

- يشير إلى صلاة الجمعة في الحرم وأثرها في نفسه والزحام الشديد، ويتألم لعدم سماع الخطبة لعدم وجود مكبر الصوت، ويشير إلى أثر صلاة الجمعة في نفس المسلم.

- يصف خروجه من مكة إلى المدينة وما شاهده من المتسولين في هذا الطريق، ويقترح على حكومة الحجاز أن تولي هذا الأمر كل عناية.

- يصف وصوله إلى المدينة واستقبال الناس له وخروجه لزيارة المسجد النبوي، ويشير في هذا الصدد إلى زحمة الناس وتوافدهم على الروضة الشريفة عند السلام على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبيه رضي الله عنهما.

- يتحدث عن سكان المدينة وقلتهم والسبب في ذلك الحرب العالمية الأولى وتدمير الخط الحديدي الحجازي، ويصف أسواق المدينة وشوارعها وبعدها عن التحديث والتعليم، وقلة المدارس، كما يصف جمال الطبيعة وكثرة البساتين.
- يتحدث عن المكتبات في المدينة ويقف عند أهم مكتبة وهي مكتبة عارف حكمت ويصف أمينها ويشير إلى عدم فهرستها وتصنيفها، ويقترح أن تجمع كل المكتبات في دار واحدة وتنظم بشكل مكتبي متميز يستفيد منها كل من يزورها.
- يصف رحلة الوداع وزيارة المصطفى صلى الله عليه وسلم والسلام على صاحبيه وتوديعهم ويذكر الأدعية التي دعا بها.

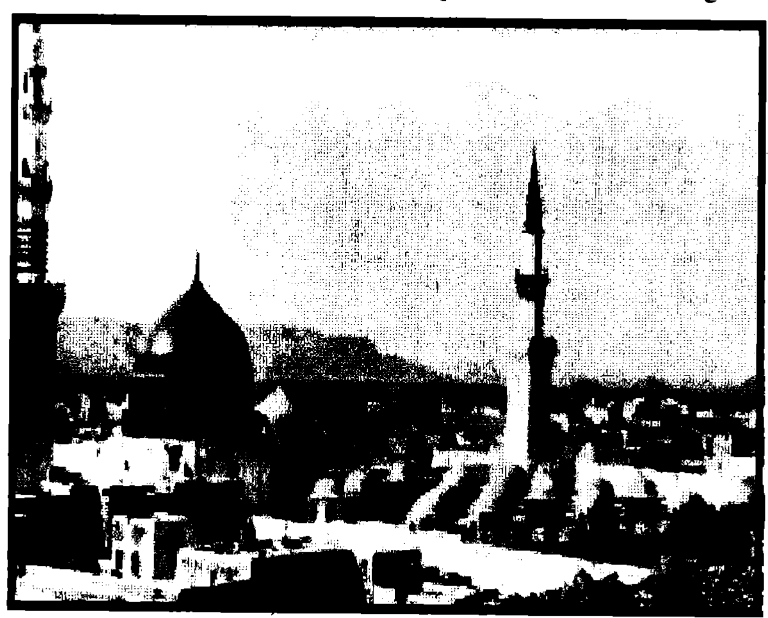
ومن خلال هذه الموضوعات المتفرقة نتلمس واقع الحجاز في ذلك العام الذي تمت الحجة فيه، وهو عام 1936م أي بداية العهد السعودي وهذا له دلالته التي تفيدنا إن شاء الله في المحاور التالية.

وعلى أية حال، فإن هذه الرحلات الستة عشر التي حللناها ودرسناها لا تعني أنها كل ما كتب في رحلات الحج من المشرق العربي، وبالتأكيد فإن هناك ما هو أكثر مما لم يقع في أيدينا ولكن هذه الست عشرة رحلة هي التي سنتداخل معها فيما سيأتي من محاور لأنها أبرز الرحلات التي وقفنا عليها، ولعل فيها ما يفيد ويوضح كثيراً من معطيات هذا البحث.

* * *

مراجع يمكن استشارتها

- عمر عبدالعزيز/ تاريخ المشرق العربي 1922-1516م، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1405هـ/1985م.
- محمود حسن صالح منسي: تاريخ الشرق العربي الحديث، القاهرة دار الوزان للطباعة والنشر: 1990م. القسم الأول الشرق العربي المعاصر، الهلال الخصيب 1990م.
- صلاح العقاد: المشرق العربي المعاصر، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية 1983م.
- ستيوارت: تاريخ الشرق الأوسط الحديث (معبد جانوس)، ترجمة زهدي جار الله، بيروت: دار النهار للنشر 1974م.
- محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، المجلد من (1-4)، ط 1، دار الأندلس الخضراء، 1421هـ/ 2000م.
- جميع كتب الرحلات الستة عشر التي تم دراستها وتحليلها.



المحور الثاني

الرحالة/ الحجاج والمشاكل التي واجهتهم

أولاً: أهم الطرق التي يسلكها الحجاج:

من خلال تحليلنا ودراستنا لأبرز وأهم الرحلات الحجازية من المشرق العربي، وقفنا على العديد من الصور الانطباعية التي سجلها أصحابها حول الطرق التي كانوا يسلكونها ويصفون كثيراً مما شاهدوه فيها، وسجلوا معاناتهم ومشاكلهم أثناء السفر على هذا الطريق أو ذاك، مشيرين وموضحين، أو مؤكدين على ما قيل من غيرهم أصحاب الرحلات القديمة، ومبرزين في هذا الجانب، تجاربهم الشخصية، وقناعاتهم الفكرية، واقتراحاتهم لتحسين هذا الطريق أو التخفيف مما يعانيه الحجاج والمسافرون.

1/1: الطرق التي يسلكها الحجاج من ديارهم إلى مكة، والمواصلات المستخدمة:

يجمع كثير من الرحالة/ الحجاج الذين تداخلنا مع كتبهم على أن طرق الحج متعددة ومتنوعة فالحجاج المصريون يسلكون في غالبهم الطريق البري من أنحاء مصر إلى السويس ثم يبحرون منها إلى جدة، وبمحاذاة رابغ يحرمون ويُلبُّون بالحج[1]. وهذا الطريق يختلف عن طريق الحج المصري الذي تثبته بعض الأدبيات التاريخية بأنه كان برياً إلى درجة كبيرة فقد كانت القوافل المصرية تعبر شبه جزيرة سيناء

حتى تصل إلى بلدة (إيلة) الواقعة على خليج العقبة، ثم تواصل سيرها نحو الجنوب حتى تصل (البدع / مدين) ومن هنا ينقسم الطريق إلى قسمين: طريق داخلي يتجه إلى المدينة ويمر بوادي القرى - وكان هذا الطريق أكثر استخداماً في القرنين الأول والثاني الهجريين (السابع والثامن الميلادي) أما الطريق الآخر فيمر بجوار ساحل البحر الأحمر ويمر بمحطة (عيونا) و(المويلح) و(ضبا) و(العوينه) و(الوجه) و(الحوراء) و(نبط) و(ينبع) إلى مكة المكرمة[2].

ويبدو أن ظهور البواخر كوسيلة مواصلات عرّف الحجاج المصريين على هذا الطريق البحري الذي يختصر المسافة ويحقق الغاية، بعد مشيئة الله.

وفي هذا السياق نجد الرحالة اليمني حسن بن عبدالله الكاف الذي حج عام 1330هـ وسلك طريقاً من اليمن إلى مصر عن طريق البحر يسلك في طريق حجه من مصر إلى جدة طريقاً طويلاً متشعباً، فعن طريق السويس واصل سيره حتى بورسعيد ومنها إلى المدن الفلسطينية (يافا وحيفا) ثم إلى تبوك فمدائن صالح حتى يصل إلى المدينة المنورة[3].

أما الرحَّالة/ الحاج الذي حدد ملامح هذه الطرق وبين المراحل والمسافات فهو اللواء محمد صادق باشا في كتابه (الرحلات الحجازية) الذي سلك الطريق التالي:

من القاهرة إلى السويس (براً)، ومنها إلى الوجه (بحراً) ومنها إلى وادي أبي العجاج إلى محطة مطر، فوادي القلعة والقصر الأحمدي

فمحطة الفقير، النفارات، محطة أبي الخلو إلى اصطبل عنتر، ثم محطة الضعيني إلى أن يصل المدينة المنورة[4].

ومن خلال هذه الطرق يتضح أن وسائل المواصلات هي القوافل (الجمال) حتى يصلوا إلى ميناء السويس، ويركب الحجاج البواخر التي كان بعضها قديماً خرباً مزعجاً - كما يشير بعض الرحالة -، والبعض الآخر منها جديداً ممتازاً ومرفهاً. ومن البواخر التي وردت أسماؤها زمزم، كوثر، الكويت، البحرين، المحروسة، المنصورة، النجيلة[5].

أما الرحالة اليمنيون فإن طرق الحج لديهم إما أن تكون بحرية أو تكون برية، فالبحرية تبدأ من الحديدة فكمران فالحمضة فالقنفذة فالليث ثم جدة. وبعضهم يعبر في طريقه البحري مناطق أخرى مثل بحيص، والحنة، والبرك، وحلى. والبعض الآخر يعبر في طريقه بمدينة جازان.

أما الطرق البرية التي يسلكها الحجاج اليمنيون إلى مكة فتبدأ من القنفذة بعد أن يصلوا إليها بحراً ومنها يمرون على الحسبة/ (الأحسبة)، دوقة، الشاقة الأولى، فوادي الأراك، فالليث، فالخضراء، ثم السعدية، ثم البيضاء، فمكة المكرمة[6].

ولو قارنا هذه الطرق بما تعارف عليه الحجاج الأقدمون، لوجدنا أن طريق الحج اليمني كله بري وينقسم إلى قسمين: القسم الساحلي وهو بمحاذاة البحر الأحمر أي تهامة. والقسم الداخلي وهو الأكثر استخداماً لتوافر المياه والطعام حيث يمر الحجاج بالسهل الشمالي

الغربي لليمن ثم منطقة عسير الجبلية ثم ينحدرون إلى الحجاز مروراً بالطائف(7).

وهنا يتضح أن وسائل مواصلات الحج اليمني كانت القوافل من جمال وحمير حتى تصل إلى ميناء الحديدة ومنها يستقلون البواخر التي تحمل أسماء عثمانية مثل كنجا وديكي، فتح جنك، وفتح إسلام(8).

أما الرحالة من بلاد الشام فإنهم يسلكون - غالباً - الطرق البرية ولعل رحلة جمعية الهداية الإسلامية بدمشق إلى المدينة المنورة عام 1353هـ توضح هذه الصورة، فمن دمشق إلى درعا إلى عمان، ثم القطرانة وكلها في الأراضي الشامية، ثم إلى ذات الحج وهي أول الأراضي السعودية، ثم تبوك، ثم مدائن صالح والعلا، ثم محطة عنتر، ثم المدينة المنورة.

وبعض الحجاج من بلاد الشام يشير إلى القريات كإحدى المناطق التي يمرون بها في طريقهم إلى تبوك(9).

وفي الجملة فإن هذا الطريق البري الشامي هو نفسه الطريق المتعارف عليه منذ القدم والمعروف بالتبوكية نسبة إلى بلدة تبوك وهو الذي يمر ببصري ثم أدرعات في سوريا والمدورة في الأردن ثم يدخل الحدود السعودية ذات الحاج - تبوك - الأخضر - المعظم - الأقرع - الحجر - العلا (مدائن صالح) ثم المدينة المنورة(10).

ومن خلال هذه الطرق الشامية تتضح وسائل المواصلات التي كانت أغلبها بالقوافل ثم استبدلت فيما بعد بالسيارات، لأن بلاد الشام من أوائل البلاد العربية التي استخدمت هذه الوسيلة الجديدة.

1/2: الطرق التي يستخدمها الحجاج بين جدة ومكة والمشاعر المقدسة:

وإذا ما وصل الحاج - من أي قطر مشرقي - فإنه ينزل في جدة ومنها يغادر إلى مكة فالمشاعر المقدسة، وهذا الأمر يدعونا إلى التعرف على الطرق والمواصلات التي سينتقل عبرها في أداء نسكه وحتى يعود إلى جدة أو المدينة بعد الانتهاء من الرحلة الإيمانية المباركة.

إن كثيراً من كتب الرحلة تُعَرِّف بهذه الطرق، وتشير إلى وصفها والتفصيل فيها إلى درجة كبيرة من الدقة وتقيس المسافة بين كل مرحلة وأخرى وكأني بهذه الرحلات/ تجمع على أن الطريق من جدة إلى مكة يمر بالقرى والمراحل التالية: جدة - رأس القائم - الرغامة - جرادة أم السلم - بحرة - وادي فاطمة - حده (حداء) - الشميسي - (الحديبية) - قهوة العبد - قهوة أم الدود - قهوة البستان - جرول - مكة المكرمة.

وفي الرحلات التي تداخلنا معها كانت وسائل المواصلات إما القوافل الجمال والبغال والحمير في عهد الأشراف أو السيارات في بداية العهد السعودي[11]. ولعل الأديب إبراهيم المازني صاحب رحلة الحجاز قد أشار إلى أن الطريق إلى مكة المكرمة ينقسم إلى قسمين قسم تسير فيه السيارات وقسم مخصص للقوافل والمشاة[12].

وجميع هؤلاء الرحالة يصفون هذا الطريق بأنه واد غير ذي زرع وغير معبد، وكثير الالتواء، وعظيم الارتفاع والانخفاض، قليل الماء، ويوجد به القهاوي (المقاهي) والاستراحات لخدمة الحجيج، وتتوافر فيه مركز الشرطة/ المخافر، ويسلكه الحاج في عدة ساعات إذا كانت

الوسييلة السيارات واليوءم واليومين إذا كانت الوسية القوافل بالجمال أو الحمير[13].

أما الحجاج اليمنيون فإنهم لا يمرون على جدة بل يقفون عند القنفذة بعد وصولها بحراً ثم يسلكون خطاً واحداً من القنفذة، ويمرون فيه بالحسبة (الأحسبة) - دوقة - الشاقة - الليث - الهضب - يلملم (السعدية) - أدام - البيضاء - مكة[14].

وعندما يعزم الحجاج السفر إلى المدينة المنورة بعد إكمال نسكهم في مكة المكرمة والمشاعر المقدسة فإن كتب الرحلات التي بين أيدينا تشير إلى مجموعة من الطرق التي يسلكها الحجاج القاصدين مدينة المصطفى صلى الله عليه وسلم مع اختلاف بسيط في بعض المحطات التي يقفون عندها للاستراحة فمثلاً نجد بعض المصادر تشير إلى الطريق التالي: مكة - جدة - ذهبان - رابغ - مستورة - أبيار علي (ذي الحليفة) ثم المدينة المنورة. وهنا نلاحظ أنه يمر بجدة ثم ينطلق منها نحو المدينة[15].

ولكن بعض المصادر تشير إلى أن هناك طرقاً أربعاً يسلكها المسافر من مكة إلى المدينة وهي:

1 - **الطريق السلطاني:**

مكة - وادي فاطمة - عسفان - خليص - القضيمة - رابغ - مستورة - بئر الشيخ - ديار بني حصاني - الحمراء - الجديدة - بئر عباس - بئر درويش - آبار علي - المدينة.

2 - الطريق الفرعي:

مكة - جدة - رابغ - وادي حرشان - نقر الفأر - بئر رضوان - أبو ضباع (أمر ضباع) الرياض (وادي الريان) - الغدير - وادي المعظم - بئر الماشي - آبار علي - المدينة.

3 - طريق الغاير (الطريق المدني):

مكة - جدة - رابغ - مستورة - جبل الغاير -.. إلى المدينة.

4 - الطريق الشرقي:

مكة - بئر البارود - وادي الليمون - الحفاير - بركة سمرة - بركة المسلح - الحبيط - سفينة - السويرقية - الحجرية - عزابة - الغدير - سيدنا حمزة - المدينة المنورة.

وأفضل هذه الطرق وأحسنها وأكثرها ماءً وارتياداً للقوافل والحجاج هو الطريق السلطاني، الذي جاء ذكره لدى الرحالة اليمنيين ومجموعة من الحجاج المصريين(16).

وأما طريق العودة من المدينة إلى مكة، فقد ذكر إبراهيم رفعت، أنه سلك الطريق التالي: المدينة - بئر رومة - بئر الضغيني - الملاليح - قصر عيلة - آبار الحلو - الحفائر - الفقير - العقلة - المطر أو العجلة - الناضوح - الخوتلة - الوجه(17).

وبعضهم أشار إلى طريق آخر وهو من المدينة - وادي العقيق - بئر المشي - وادي ريم - عقبة الغاير - المخاضة - رابغ - القضيمة - الدفة - عسفان - وادي فاطمة - وادي سرف - مكة المكرمة(18).

وهذا الطريق يقترب من الطريق المدني الذي ألمحنا إليه آنفاً، وإن كان يلتقي مع الطريق السلطاني في بعض المحطات.

ومن الجدير بالذكر هنا أن وسيلة المواصلات كانت الجمال والبغال والحمير والخيول في فترة حكم الأشراف، أما في بداية العهد السعودي فقد كانت السيارات هي وسيلة المواصلات كما أثبتها جميع الرحالة الذين تداخلنا مع كتبهم.

كما أنه جدير بالذكر أخيراً أن جميع هذه المصادر تجمع على سوء الطريق وعدم تمهيده ووعورته، وأنه رمال متحركة، وجبال عالية ومنخفضات مزعجة مخيفة، يعاني فيها الحجاج الكثير من المشاكل والتعب والانزعاج ولا يريحهم إلا منظر مآذن المدينة المنورة والشوق إلى السلام على المصطفى صلى الله عليه وسلم، والصلاة في الروضة المطهرة.

ثانياً: أهم المشاكل والصعاب التي يعانيها الحجاج:

ومن خلال الدراسة والتحليل اتضح أن المشكلات والصعاب التي يعانيها الحجاج منذ سفرهم إلى الديار المقدسة وحتى الانتهاء من مشاعر الحج والزيارة، تتمحور في مجموعة من المصاعب أشار إليها أصحاب هذه الرحلات.

ولعل الطريق وصعوبته والمواصلات وبداءتها وسوءها من الصعاب التي أشرنا إليها آنفاً وبذلك فإن أدبيات البحث تتطلب منا المزيد، وهو ما سنتحدث عنه فيما يلي:

2/1: الأوبئة والأمراض:

أشارت مجموعة من كتب الرحلات التي بين أيدينا إلى هذه المشكلة، واعتبروها إحدى أهم الصعوبات التي يواجهها الحجاج أثناء تواجدهم في منطقة الحجاز عامة ومكة والمشاعر المقدسة خاصة.

ففي عام 1319هـ، أشار إبراهيم رفعت باشا إلى أنه حصل وباء كبير في مكة وأصيب به الحجاج وفتك فتكاً ذريعاً رغم وجود أطباء برفقة المحمل المصري لعلاج المرضى لكن الوباء كان أكثر انتشاراً[19].

كما أشار البعض[20] إلى أن من أسباب الأوبئة والأمراض أثناء الحج الحر الشديد ورياح السموم التي تؤدي إلى ضربة الشمس وقد يتوفى على إثرها مجموعة من الحجاج وقد حصل مثل ذلك في حج عام 1348هـ حيث أصيب بها الحجاج الهنود وتوفي منهم حوالي (250) مائتين وخمسين حاجاً، رغم أنه من فوائد الحرَّ الشديد في مكة أنه يقتل الجراثيم المضرة والتي تنقل الأوبئة السارية[21].

والجدير بالذكر هنا أنه كانت تتخذ بعض التدابير الوقائية الصحية للتخفيف من الأمراض الوبائية التي تكثر في أشهر الحج، لذلك فإن الحاج المصري لابد أن يتطعم (بحقن) ضد الكوليرا، والتيفوئيد، والجدري وهي من الأمراض المنتشرة آنذاك[22].

ويقال إن الذي يفسد الهواء في مكة أيام الحج كثرة الساكنين بها من الحجاج، وقلة النظافة، وهذا يؤدي إلى ظهور الأوبئة والأمراض مثل أمراض الصدر، والاحتقانات الدماغية، وأمراض الكبد والجهاز الهضمي والدوسنتاريا وخصوصاً بين الأطفال، كما يكثر مرض الجدري

ويموت بسببه خلق كثير من الحجاج. كما أن الكوليرا قد ظهرت في مكة سنة 1246هـ أما باقي الأمراض فلم يأت لها ذكر في أغلب الرحلات لكنهم أشاروا إلى بعض الشكاوى المرضية التي يشتكي منها الحجاج مثل الصداع والإمساك والبرد والأنفلونزا، وأمراض الأسنان والعيون وبعض الكسور نتيجة السقوط أو الصعود[23]، والتي يوليها الأطباء في الحجاز والمصاحبين لوفود الحج كثير الاهتمام والعناية تشخيصياً وتطبيبياً.

2/2: العربان واللصوص والتسول:

ولعل من أهم المشاكل والمصاعب التي يلاقيها الحجاج في الحجاز/ وأثناء أداء الحج أو السفر نحو المدينة، أو العودة منها، ما يصفه الرحالة الحجاج في كتبهم من تسلط العربان/ رجال البادية على قوافل الحجيج ونهبها، وتعرض اللصوص لأخذ الرسوم المالية أو السرقة، ووجود الفقراء والمعوزين على طول الطريق للتسول وطلب الأرزاق، فهذا إبراهيم رفعت باشا يشير إلى واحدة من أهم الأحداث والمشكلات التي وقعت له وهو يقود المحمل المصري ويشرف على تحركاته في الحجاز، وهي تعرض قبائل «الرحلة» و«الردادة» و«الأحامدة» لركاب المحمل أثناء عودته من المدينة ومطالبتهم بمبلغ «160» ريالاً رسوماً للمرور في بلادهم. وبعد مفاوضات دفع المحمل المصري هذا المبلغ المطلوب، وبعد قليل من المسير في تلك الديار باغتهم آخرون بوابل من الرصاص وطالبوا المحمل المصري بالمزيد من الريالات واتضح أنها قبيلة أخرى وهكذا كان اللصوص من العربان يتخفون في الطرقات

ليسلبوا أموال الحجاج بحجة الرسوم للمرور في ديارهم. وقد أدى ذلك إلى عودة المحمل إلى المدينة المنورة.

كما يشير رفعت باشا أنه في السابع عشر من شهر ذي القعدة 1321هـ وقبل الوصول إلى مكة سطا العربان على قافلة في بحرة وقتلوا من رجالها ونسائها وجرح الكثير وسلبوا المتاع من حجاج مصر والسودان.

وفي مكان آخر يشير رفعت باشا أن بعض العربان حاولوا في مكة أن يسرقوا بعض أمتعة المعسكر الذي أقام فيه المحمل المصري ولكن اللصوص لم يتمكنوا من تحقيق آمالهم. وللتأكيد على ذلك يورد بياناً بأسماء الحجاج المصريين المعتدى عليهم في 17 ذي القعدة 1321هـ[24].

ويصف أحد كتاب الرحلات هذه المشاكل التي يعانيها الحجاج أثناء موسم الحج بقوله: «إن الحجاج في المحمل يتعرضون لفتك العربان ونهبهم وسلبهم في أيام الحج مما يجعل الفوضى والاضطراب تسود الحجاج. وكان أشبه بنار موقدة، ولذلك فإن الحاج يودع أهله ويوصيهم، لاعتقاده أنه لن يعود إلى أهله ودياره سالماً فهو إذا نجا من العربان لم يثق أنه سينجو من طغيان الوباء والأمراض».

كان ذلك على عهد الأشراف أما العهد السعودي فإن الأمن وارف وتم القضاء على اللصوص والعربان الذين يقطعون الطريق. ورغم ذلك فإن الفقر والبؤس والتسول أمور لابد منها في الحجاز وخاصة

على الطريق بين مكة والمدينة ولكن هؤلاء لم يلجأوا إلى السرقة واللصوصية لأنهم خافوا من أحكام الشرع التي طبقها ابن سعود في الحجاز، وعلى كل من تسول له نفسه العبث بالأمن(25).

كما أشار إلى هذه المشكلة الحاج الإمام محمد رشيد رضا الذي نقل لنا صورة معبرة عن الحجاج «الأفارقة» الدكرور «وأنهم يسيرون بأقدامهم أثناء السفر من جدة إلى مكة ولا يخشون لصوصاً ولا قطاع طرق لأنهم لا يحملون شيئاً يسرق أو يخشون عليه». كما يشير إلى العربان وكثرتهم وقدرتهم على السرقة ولما جاء الحكم السعودي استبدلوا ذلك بالتسول. ولكنه أشار إلى أن هذا العام - يعني السنة التي حج فيها عام 1334هـ/1916م - «كان الطريق إلى مكة آمناً مطمئناً ولم يحدث به اعتداءات وأن مخافر الشرطة على طول الطريق حفاظاً على الأمن. ويثني على قبائل هذيل وأبنائها الذين لا يعتدون على الحجاج ولا يسرقون وإن ماتوا جوعاً، أما عرب الشمال فهم اللصوص وقطاع الطرق»(26).

ولم يكن الحجاج المصريون أو الشاميون وحدهم الذين عانوا من عنت اللصوص وسطوة العربان وإنما عانى منه - كذلك - حجاج اليمن، وهذا جغمان يحدثنا عن معاناته مع العربان وقطاع الطرق الذين أخذوهم وهم في صلاة الفجر بقرية مستورة على الطريق إلى المدينة(27).

وهكذا يتضح أن رحلة الحج في ذلك العهد محفوفة بالمخاطر، من العربان واللصوص، والمتسولين.

2/3: مشكلة الماء في الحجاز:

ومن المشكلات والمصاعب التي يعانيها الحجاج أثناء تأدية هذه الشعيرة المقدسة قلة الماء وغلاء سعره وكونه مثلجاً بارداً قذراً ومتسخاً وعذوبته أو ملوحته، وكيف جلبه والتزود به طوال طريق الحج سواء المصري أو الشامي أو اليمني.

وفي هذا الصدد أشار أحد الرحالة/ الحجاج الذين دونوا رحلات حجهم أن المياه في مكة نوعين:

- نوع صالح للشرب نوعاً ما يمكن الوصول إليه من خلال حفر الآبار، والعيون، والمخزون في الوهاد والحفر وصهاريج المنازل. وهذا النوع رخيص الثمن، ويشير هنا إلى بئر زمزم تدخل في هذا النوع من المياه.
- والنوع الآخر الماء العذب، وهو المستخرج من البحر بواسطة التبخير (الكنداسة)، وثمن الصفيحة في موسم الحج قرشين سعوديين، أو الماء المستخرج من العيون البعيدة مثل عين زبيدة التي تسير في قنوات تسقي مكة. وهذا النوع سعره غال في مكة وجدة ولكن حكومة الشريف آنذاك ثم الحكومة السعودية فيما بعد - كانتا تحدان من تلك المبالغة في الأسعار.

كما يشير هذا الحاج/ الرحالة/ المؤرخ لرحلته أن هناك نوع جديد من المواقع التي تكثر فيها المياه ويستفيد منها الحجاج وهي «البازانات» وهي: خزانات يتجمع فيها الماء قبل موسم الحج بفترة طويلة، وأهم

هذه البازانات - كما يقول - بازان أم عباس الذي بناه الملك فؤاد الأول وكان مبرة لجميع الحجاج وخاصة الحجاج المصريين.

ورغم ذلك فإن الماء قد ينقطع ويقل، ولذلك كانت من أهم المشاكل أن يزيد سعر الماء فيضطر الحاج أن يشتريه تحت ضغط الاحتياج الضروري، وقد يكون الحمالون هم المسؤولون عن رفع أسعاره أثناء موسم الحج لاسيما إذا كانت خيمة الحاج بعيدة[28].

وفي هذا السياق يذكر إبراهيم باشا عين زبيدة ودورها في التخفيف من حدة مشكلة المياه في الحجاز وفي مكة خاصة، ويعتبرها المصدر الأول للمياه حيث تسير قنوات من مصدرها إلى عرفة وبقية المشاعر وحتى مكة، ومن هذه القنوات يستقي الحاج ويشرب الأهالي ويملأون منها الصهاريج.

ويشير كذلك إلى أن المياه لا تكفي للحجيج نساءً ورجالاً وأطفالاً، ولا حتى لوسائل نقلهم من الدواب والحيوانات التي تحتاج إلى الماء فيكثر الزحام وتتسخ المياه حتى لا تعد صالحة للاستخدام الآدمي من شرب وغيره.

وبعض الحجاج يتوضأ في هذه الأحواض والمجاري بل ويغتسل ويغسل ملابسه مما يسبب الأوبئة والأمراض الخطيرة في الحج.

ولعل أهم إشارة هنا أنه لا يوجد بيوتاً للخلاء يقضي فيها الحجاج حاجاتهم فيلجأون إلى الأماكن الفارغة خارج الخيام والبيوت ويخرجون من بطونهم ما سهَّل الله، فتكثر الروائح الكريهة وتتصاعد حتى تزكم الأنوف وتفسد المياه المجاورة.

والجدير بالذكر هنا أن قلة الماء في مكة والمشاعر المقدسة يقابلها ندرة وقلة متناهية في ينبع وذلك لعدم نزول الأمطار ولهذا يزيد سعر القربة من خمسة قروش حتى ستة، وذلك لأن الحمالين يحملون الماء على متون الإبل مسيرة عشر ساعات ذهاباً وإياباً[29].

ومن المشكلات التي تواجه الحاج في هذا المجال المائي، أن الآبار تجف ويقل ماؤها، بل وتنضب ويروح ضحية ذلك كثير من الحجاج ظمأً ثم موتاً ووفاةً. ولذلك عندما جاء الحكم السعودي تنبه لقيمة وجود الماء في المشاعر المقدسة وعلى طول طريق الحج فحفر الآبار الارتوازية، واستخدم الآلات الحديثة لاستخراج الماء من جوف الأرض، فزاد سبيل الماء في مكة والمشاعر المقدسة. كما أسست الحكومة السعودية معامل حديثة لإنتاج الثلج الذي يبحث عنه الحاج في المواسم الحارة[30].

وبذلك نتيقن أن الماء من ضروريات الحاج الذي يسعى لتوفيرها وتنوع مصادرها والأخذ منها على قدر حاجته، لاسيما إذا كان من بلاد تكثر فيها المياه متدفقة من الأنهار وتحلية البحار والآبار وغيرها.

2/4: بعض المشاكل المتفرقة:

ومن المشكلات التي تصادف الحجاج ما ذكره الحاج عبدالعزيز صبري بك في حجه عام 1342هـ حول السفينة الباخرة (الكويت) التي خصصت لنقل الحجيج من السويس إلى جدة فهي ضيقة والعدد المحمول عليها ألف وسبعمائة راكب، غير مجهزة بمراحيض للمياه مما دفع بالحجاج أن يقضوا حاجاتهم على ظهر السفينة ويظل الحجاج

«يسبحون في بحيرة من البول والأقذار» كما يقول. أضف إلى ذلك المعاملة السيئة التي يعانيها الحجاج من قبل البحارة والمسؤولين عن الباخرة، ونقص الماء المعد للشرب فما يقدرونه «إلا بقدر معلوم» كما يقول[31]. ورغم أن حاجاً آخر في عام 1354هـ يصف لنا الباخرة (زمزم) بأفضل الوصوف والنعوت سعة وتنظيماً وطعاماً وبيوت خلاء، ويشيد بطاقمها من البحارة والقبطان، وما عليها من أطباء ومستشفى، والبريد والمذياع الذي ينقل الأخبار. لكنه يشير إلى أن ركاب الدرجة الثالثة يعانون من المشاكل الكثيرة فيحصل الاختلاط بين الرجال والنساء وقد يختلط الرجل بالمرأة الأجنبية وهو ما لا يتفق مع الآداب الإسلامية ولا يوجد أماكن مخصصة للأمتعة وليس لها مكان معد للأكل أو الجلوس والسمر، وعمال الباخرة يسيؤون إلى الحجاج بشكل خطير. وهنا يؤكد على أن البواخر السابقة التي خصصت للحجاج كانت سيئة ويعاني منها الحجاج أشد المعاناة حيث يتعرضوا للإهانة والمشقة ويشحنون ركاب الدرجة الثالثة مع الخيول والدواب ويُضَنُّ عليهم بالماء العذب ويتحملون مشاق الطعام والطهي على الباخرة ويتعرضون للأمراض المعدية[32]. وكأني به يشارك الحاج عبدالعزيز في رؤيته السابقة.

ويضيف الإمام محمد رشيد رضا معاناة جديدة مع البواخر الخديوية التي تنقل الحجاج إلى الحجاز فيصف الباخرة (النجيلة) في حج عام 1334هـ بأنها «أبطأ بواخر الدنيا سيراً، وهي قديمة وليس فيها ضوء كهربائي ولا أجراس ولا مقاعد للاستراحة»[33].

أما الحاج والرحالة اليمني يحيى بن المطهر الذي حج عام 1211هـ فيصف حالته أثناء السفر للحج عن طريق البحر وركوبه الباخرة لأول مرة ويصف الباخرة وصفاً بليغاً ويتعجب من ضخامتها ويقوم برسمها وتجسيدها وكأنه أول حاج يمني يركب الباخرة[34].

ومن المشكلات التي يواجهها الحجاج علاقتهم بالمطوفين في مكة وما يعانوه من أسلوب التعامل والاحتيال - على حد قول جغمان/ الرحالة اليمني، الذي أشار إلى هذه المسألة - ووصف المطوفين بأنهم ذئاب عليهم ثياب، وإنما بلا مخالب، فتراهم يصيدون الحجاج بمخالبهم الصائدة...، ويذكر إحدى الطرف عن هؤلاء المطوفين في النصب والاحتيال فيقول: إن أحد المطوفين طوف حاجاً يمنياً ولما فرغ من ذلك عاد به إلى ما بين الركن والمقام وقام يدعو: اللهم إني نويت لمطوفي هذا بريال، فقال اليمني بديواني وهو عملة أقل من الريال، فغضب المطوف وأخذ يسبه ويشتمه شتماً بليغاً[35].

أما الأديب المصري إبراهيم عبدالقادر المازني، فيشكو من هؤلاء المطوفين وما يقومون به من ترتيل للأدعية ولحن واضح في لغتهم وأغاليط في الدعاء ويشبههم بالتراجمة والأدلاء في مصر ويقترح إنشاء مدرسة لتعليم المطوفين وتخريجهم على أحسن حال[36].

وهذا ما نادى به أيضاً الحاج محيي الدين رضا الذي حج عام 1353هـ ورأى من مشاكل المطوفين وقلة علمهم ما رأى، فهم في جهل فاضح وكثير منهم ينظر إلى الحاج نظرة بعض التراجمة في مصر إلى السائحين وهمهم الربح والاستفادة المالية[37].

ولعل من أهم المشاكل التي يصادفها الحجاج ما عبر عنه بعض كتاب الرحلات عند وصولهم إلى جدة ومعاناتهم عند الميناء ومرسى السفن فيها، حيث أشاروا إلى وجود الصخور والشعب المرجانية على مسافة بعيدة حوالي أربع كيلومترات من جدة مما يفرض على البحارة أن يتخذوا مكاناً آمناً في عرض البحر لرسو السفن ومن ثم تأتي البواخر والمراكب الصغيرة لحمل الحجاج وأمتعتهم نظير رسوم مالية وهذا يسبب عناء ومشقة على كثير من الحجاج، بل إن بعضهم يصاب بالدوار والإرهاق البدني والأمراض المزعجة عند ركوبهم هذه الزوارق الصغيرة.

ويجمع كتاب هذه الرحلات على اقتراح هام وهو تحسين مدخل الميناء ليكون في وضع مريح لحجاج بيت الله الحرام حتى يتجنبوا الصخور المرجانية التي هلك عندها كثير من البواخر وراح ضحيتها كثير من الحجاج(38).

وهكذا يتضح من هذا المحور أن الحجاج يعيشون أياماً صعبة منذ أن يقرروا سفرهم لأداء هذا الشعيرة المقدسة وحتى يعودوا إلى ديارهم، وذلك من خلال معاناتهم عبر الطرق التي يعبروها سواء من بلادهم إلى الحجاز أو من جدة إلى المشاعر المقدسة والمدينة المنورة.

كما يتضح في هذا المحور جملة من أهم الصعاب والمشكلات التي يعانيها الحجاج وتواجههم أثناء تأدية فريضة الحج ومنها الأمراض والأوبئة، وقطاع الطرق واللصوص من العربان (بدو الحجاز) والمتسولين على الطرق الداخلية بين مكة والمدينة المنورة. ومنها كذلك

مشكلة الماء العذب الذي ينقص ويقل لدرجة تزعج كثيراً من الحجاج. وهذا فضلاً عن بعض المشكلات المتعلقة بالسفن والبواخر التي تنقل الحجاج أو المطوفين الذين لا يأبهون بمتطلبات الحاج الروحية والنفسية وغير ذلك.

وبهذا نكون قد ناقشنا أهم وأبرز المصاعب والمشكلات التي واجهت أصحاب الرحلات التي درسناها.

المحور الثاني
الهوامش والإحالات

(1) انظر كتب الرحلات المصرية التي أوردناها في هذا البحث.

(2) وكالة الآثار والمتاحف: طرق الحج القديمة في الجزيرة العربية، وزارة المعارف، الرياض: 1420/2000م.

(3) حسن عبدالله الكاف: الطرق الشهية المستفادة من الرحلة إلى الديار المصرية والحجازية، ص ص 83-101.

(5) المرجع السابق، وانظر:

الحاج عبدالعزيز صبري بك: تذكار الحجاز ص ص 52-54.

عبدالعزيز متولي حمادة: مشاهداتي في الحجاز ص ص 13-14.

محيي الدين رضا: رحلتي إلى الحجاز، ص 11.

محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية، ص 3.

يوسف إيبش: رحلات الإمام محمد رشيد رضا، ص 105.

(6) عبدالله محمد الحبشي: الرحالة اليمنيون:

يحيى المطهر: بلغة المرام، ص 88.

محسن عبدالكريم إسحاق، ص 132 وما بعدها.

رحلة جغمان: نيل الوطر... ص 155 وما بعدها.

(7) وكالة الآثار والمتاحف: طرق الحج القديمة (سبق ذكره)، ص 10.

(8) انظر رحلة يحيى المطهر: بلغة المرام، ضمن كتاب عبدالله الحبشي، الرحالة اليمنيون، ص 88.

(9) مأمون محمود ياسين/ من أدب الرحلات (الرحلة إلى المدينة المنورة) - رحلة جمعية الهداية الإسلامية بدمشق، بقلم رئيس الجمعية الشيخ محمود ياسين، الطبعة الأولى 1407هـ/1987م، ص 30 وما بعدها.

(10) وكالة الإثار والمتاحف: سبق ذكره، ص 8.

(11) انظر: رفعت باشا: ص ص 24-30، الحاج عبدالعزيز صبري: ص ص 63-66.

البتنوني، ص ص 18-20 محمد رشيد رضا: ص ص 122-128.

(12) إبراهيم المازني: الرحلة الحجازية، ص 52.

(13) عباس متولي: 29-30.

(14) رحلة يحيى بن المطهر، ص 101 وما بعدها.

(15) عباس متولي حمادة: مشاهداتي في الحجاز، ص ص 112-113.

(16) انظر: البتنوني: الرحلة الحجازية، ص ص 109-313.

إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ص ص 369-380 جـ 2، ص ص 200-207.

محسن بن عبدالكريم إسحاق: الرحلة شعراً، ص ص 148-149.

عن كتاب الرحالة اليمنيون.

إسماعيل جغمان: نيل الوطر، ص ص 171-175.

(17) إبراهيم رفعت باشا: سبق ذكره، ص ص 482-491.

(18) حسن بن عبدالله الكاف: سبق ذكره، ص ص 116-117.

(19) إبراهيم رفعت باشا: سبق ذكره، جـ 2، ص 1.

(20) شكيب أرسلان: سبق ذكره، ص 19، عباس متولي حمادة: سبق ذكره، ص 68.

(21) الإمام محمد رشيد رضا: سبق ذكره، ص 103، محيي الدين رضا: سبق ذكره، ص111.

(22) محمد لبيب البتنوني: سبق ذكره، ص 63-64.

(23) محيي الدين رضا: السابق، ص ص 92-95.

(24) إبراهيم رفعت باشا: سبق ذكره، ص ص 70-74، ص ص 78-81، ص ص 210-211.

(25) محيي الدين رضا: سبق ذكره، ص ص 12-18، وانظر محمد صادق باشا: ص ص 115-116، وانظر المازني: سبق ذكره، ص ص 50-51.

(26) الإمام محمد رشيد رضا: سبق ذكره، ص ص 122-124. ص 206.

(27) عبدالله الحبشي: الرحالة اليمنيون: رحلة جغمان ص ص 178.

(28) عباس متولي حمادة: سبق ذكره، ص ص 28-29، 73-77.

(29) إبراهيم رفعت باشا: السابق، ص ص 209-208، جـ 1، ص 5، حـ 2، وانظر محمد صادق باشا: مرجع سابق، ص 108.

(30) شكيب أرسلان: مرجع سبق ذكره، ص ص 19-20، وانظر إبراهيم عبدالقادر المازني: رحلة الحجاز، ص 40.

(31) الحاج عبدالعزيز صبري بك: ص ص 52-53.

(32) عباس متولي حمادة: سبق ذكره، ص ص 51-71.

(33) الإمام محمد رشيد رضا: سبق ذكره، ص 107-108، وانظر رفعت باشا: ص ص 15-16، جـ 1.

(34) يحيي المطهر: بلغة المرام في الرحلة إلى البيت الحرام، ص ص 87-94.

(35) عبدالله الحبشي: رحلة جغمان، ص ص 167-168.

(36) إبراهيم عبدالقادر المازني: سبق ذكره، ص ص 76-77.

(37) محيي الدين رضا: سبق ذكره، ص ص 33-43.

(38) محيي الدين رضا، 28-30، المازني، 38، رشيد رضا، 108-109، شكيب أرسلان، 9، عباس متولي، 24-25، يحيى المطهر، 91.

المحور الثالث

الواقع المعيشي لمناطق الحج

جدة - مكة - المدينة

لقد تعرض كثير من كتاب الرحلات الذين تداخلنا مع كتبهم - دراسة وتحليلاً - إلى وصف الأحوال الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والدينية، والثقافية والأمنية/ والطبية التي شاهدوها ووقفوا عليها في منطقة الحجاز وخاصة مناطق الحجٍ فيها، مكة والمشاعر حولها، والمدينة المنورة، وجدة. وبينوا لنا كثيراً من الصور التي تعطينا معرفة عن الواقع المعيشي في هذه الأماكن وتجعل القارئ أكثر إحاطة وإلماماً بالفترة الزمنية التي تمت فيها رحلة الحج وما صادفه الحاج/ الرحالة من وقائع وملابسات، وما ارتآه من ملاحظات واقتراحات.

وفيما يلي سيتمحور حديثنا عن تلك الأحوال والمظاهر في أبعادها المتعددة.

أولاً: أبرز المظاهر الاجتماعية/ البعد الاجتماعي:

للوهلة الأولى يبدو تعمق الرحالة/ الحجاج في النسيج الاجتماعي لمناطق الحج، ويبدو ذلك جلياً من خلال رصدهم الموثق للأحوال الاجتماعية التي عايشوها أثناء رحلة الحج المباركة.

ولعل أبرز المظاهر الاجتماعية التي وقفوا عليها ما يلي:

1/1 ما يتعلق بالسكان من مواطنين وحجاج:

تشير بعض كتب الرحلات إلى أن السكان في مناطق الحج - جدة - مكة والمدينة - خليط من أجناس مختلفة، فيهم المواطن الأصلي الحجازي الصميم، ويطلق عليه المكي، الحجازي، وفيهم الأعراب من أهل البادية المحيطة بهذه المناطق، وفيهم الحضارم من جنوب الجزيرة العربية، وفيهم من أهل نجد، وفيهم العرب المصريون والشوام والمغاربة، وفيهم الترك والهنود والأفغان والجاوة (من أندونيسيا) والبخارية من بخارى[1].

وقد ذكر أحد الرحالة/الحجاج في مذكراته أن أعداد السكان في مكة المكرمة عام 1907م/1325هـ كما ورد في الإحصائيات العثمانية (150,000) مائة وخمسون ألف نسمة موزعة على النحو التالية:

50,000 (خمسون ألفاً) من أهالي مكة.

10,000 (عشرة آلاف) سليمان وأفغان.

12,000 (إثنا عشر ألفاً) من الهنود.

25,000 (خمسة وعشرون ألفاً) من البدو، واليمن والحضارم.

5,000 (خمسة آلاف) من بلاد الشام.

5,000 (خمسة آلاف) من المغاربة.

8,000 (ثمانية آلاف) من الأتراك والمصريين وغيرهم.

15,000 (خمسة عشر ألفاً) من جاوة[2].

ولعل السبب في هذا الخليط المركب من الأجناس المختلفة هو ما يفد من الحجاج إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج، ثم

البقاء والاستيطان في هذه المناطق طلباً للرزق أو مجاورة الحرمين الشريفين.

لقد أدى هذا التمازج بين الأجناس المختلفة إلى بروز قيم اجتماعية جديدة أثرت على المسكن والملبس واللغة بحيث أصبح كل ذلك صورة مما يجده الإنسان في معظم البلاد العربية والإسلامية.

ومما يزيد في هذا التمازج والاختلاط، الأعداد الكبيرة من الحجاج التي تفد في كل عام إلى مكة المكرمة، وقد بلغ عددهم في عام 1354هـ (100.000 مائة ألف حاج) من أقطار العالم العربي والإسلامي، وفيهم قبائل همجية لا نظام لها، مطبوعة على الفوضى، ومتميزين بالقذارة في المظهر والملبس(3).

وتبعاً لذلك تحددت أنواع المساكن والعمارة الملائمة لمنطقة الحجاز وأجواءها المناخية التي يغلب عليهاالحرارة طوال أشهر العام، ولذلك نجد البيوت والعمارة الحجازية تمتاز بالعلو والارتفاع ما بين دورين إلى ثلاثة أدوار، وتوزع الغرف والحجرات عليها، فيخصص الدور الأعلى لحجر الاستقبال، وفي الدور الأسفل غرف المائدة والمطبخ.

ولكل بيت بوابة تفتح وتغلق ولها باب صغير يسمى خوخة، وله كذلك فناء متوسط وسلم للصعود للأدوار العليا، وتتميز بأن درجاتها مرتفعة جداً وبعضها أعلى من بعض وأضيق وتشكل خطراً أثناء النزول، وقد يكون للبيت الواحد أكثر من سلم، كما أن له نوافذ تسمى بالمشربيات،

وفي الجملة فإن المساكن في الحجاز صغيرة وجميلة طرازها شرقي عتيق مؤثث بالأثاث الفاخر والذوق السليم[4].

2/1 ما يتعلق بالعادات والأخلاق والتقاليد:

تتحدث الكتب التي بين أيدينا بشيء من التفصيل عن العادات والتقاليد الحجازية، وأخلاق الأهالي، فيذكرون من ذلك الكرم، فالحجازيون كرام يبذلون فوق مقدورهم، وكان كبار الشخصيات الحجازية أمثال محمد نصيف وإمام الحرم الشيخ أبو السمح يستقبلون الضيوف على موائدهم العامرة طوال أيام الحج، وكان أهل المدينة المنورة أهل وداعة وكرم نفس وشجاعة أبية ويمتازون بالعلم والتواضع والصبر والجلد، كما يتصفون بالهدوء والسكينة والرزانة وسمو النفس وحسن الطباع في غير تصنع أو ادعاء أو تظاهر وإنما كل ذلك غريزة وصفات ثابتة، وليس هذا غريب لأنهم من السلالة الطاهرة من الأنصار والمهاجرة، كما يصف السكان في جدة بعادات الحلم والأناة لا يُسْتَفَزُّون ولا يغضبون[5].

ومن العادات الحسنة لدى أهل الحجاز - وخصوصاً الأشراف منهم - إرسال الأبناء إلى البادية حول مدينة الطائف لتعلم الفروسية والبداوة الحازمة، واللغة الفصيحة. كما يتصفون بالتدين الشديد حيث تتضح مظاهره من كثرة ازدحام المصلين في مساجد جدة، وكذلك إقامة شرع الله[6].

ومع كل هذه العادات الحميدة، والصفات الخلقية المميزة، نجد لدى الحجازيين بعض العادات المستقبحة/ السيئة، كشرب التتن/ الدخان، والشيشة، وربما تصل بهم إلى شرب المسكر من خمر

وغيرها، وكذلك بعض العادات والسلوكيات المشينة كارتكاب الفواحش المخالفة للدين كالزنا واللواط والقتل والسرقة وقطع الطريق.

وهناك بعض العادات والأخلاق المرفوضة مثل التسول الذي لاحظه معظم الحجاج الرحالة/ في مكة وجدة وعلى طول الطريق إلى المدينة، حيث يشاهد المسافرٍ جماعات كثيرة من الرجال والنساء والأطفال والشباب يقفون صفوفاً يتسولون الحجاج وفيهم من الفاقة والمسكنة والعري ما يدفعهم لذلك وهؤلاء من سلالة البدو الذين كانوا قبل ذلك يقطعون الطريق ويأخذون رسوماً من الحجاج فأصبحوا سائلين متسولين، ولكن في الفترات التاريخية التي حكم فيها ابن سعود قضى على هذه الظاهرة[7].

ولعل أغرب ما قيل في مسألة العادات والتقاليد، ما نقله الحاج اليمني يحى بن المطهر يصف فيه الشريف غالب عام 1211هـ بأنه يحمل الغليون ولا يخشى من استخدام التتن وهو مجال متاح للأشراف ولغيرهم من الطبقات الاجتماعية والمجتمع الحجازي. كما يصف الشريف غالب بالظلم والجبروت والإسراع في إزهاق النفوس البريئة[8].

أضف إلى ذلك عادة الاستماع إلى الطرب والغناء، وقضاء الأوقات في اللعب والتسلية وخاصة أيام الحج حيث يحيون أيام منى بالألعاب النارية التي أبهرت أحد الحجاج اليمنيين وأعجب بها ووصفها وصفاً دقيقاً.

ومن عاداتهم أيضاً الأناقة في المأكل والمشرب واللباس ذو الألوان الزاهية وتقديم الشاي والقهوة للضيف في أي وقت. ومن عادات الشباب

أيضاً تكحيل العين وتظفير شعر الرأس وشدة المراس على ركوب الخيل والفروسية. كما يوصف أهل الحجاز بأنهم شعب مترف وخاصة على مستوى الشخصيات الكبيرة حيث نجد الماء المعدني وأشهى المأكولات ونظام الطبخ الراقي، وطريقة تنظيم الموائد على الأسلوب الغربي والشرقي، وتوفر الفواكه الطازجة ورخص أسعارها وأثمانها[10].

هذا على مستوى النصف الأول من المجتمع (الرجال)، أما النصف الآخر فهم النساء اللواتي وصفهن أحد الرحالة الحجاج بأنهن يتميزن عن كل النساء في الأقطار الإسلامية، فالمرأة الحجازية «متمسكة بدينها، صائنة لعفافها وشرفها، حافظة لأنوثتها، لم تنغمس في تيار المدنية الجارف الفاتك بالأعراض والمضيع للآداب، تلبس الثياب الفضفاضة الواسعة التي لا تحيط بأعضائها ولا يظهر تفاصيل جسمها، تغطي وجهها بغطاء كثيف له فتحتين أمام العينين وبعضها منسوج لإتاحة الرؤية الجيدة للمرأة، ولا يمكن للخادم الدخول عليهن وإنما يكلمهن من وراء حجاب».

هذا في الجانب الإيجابي، أما في الجانب السلبي فإن بعض الكتب التي بين أيدينا تذكر: أن المرأة في الحجاز تشرب النارجيلة/ الشيشة، وتقصر في خدمة منزل زوجها، وأن بعض النساء يتكلن على الخدم ويثقلن كواهل الأزواج بالطلبات الباهظة.

كما نجد في هذا السياق كثيراً من عادات الزواج والمآتم واحتفالات المجتمع بحفظ أبنائهم للقرآن الكريم. ولكن الجميل في الأمر أن أحد الكتاب أشار إلى أزمة الزواج في المجتمع الحجازي - وخاصة

المكي - وأكد على أنه تابع المسألة فوجدها تشكل أزمة كبيرة خاصة لدى الطبقات الفقيرة والمتوسطة، ويعيد السبب في ذلك إلى المغالاة في المهور وهذا لا يتفق مع الحالة المالية وما هم فيه من بؤس وشقاء وفاقة[11].

3/1 ما يتعلق باللغة:

أشرنا سابقاً أن من عادة الأشراف إرسال أبنائهم إلى البادية لاكتساب المهارات اللغوية الفصيحة والتدريب على الرجولة والفروسية والشجاعة وغيرها. وما ذلك إلا لما صاحب المجتمع المكي من تخالط الأجناس والشعوب فضعفت على إثر ذلك ا للغة الفصيحة وحل محلها كلام شعبي دارج لا هو بالفصيح ولا هو بالعربي بل هو خليط من لغات أخرى غير مفهومة ألفاظ عربية غير فصيحة، لهجة حجازية دارجة. وهذه سلبية تحسب على أهل الحجاز، ومكة خاصة.

ولكن الميزة في هذا الوضع أن المكيين أصبحوا يعرفون مجموعة من اللغات غير العربية مثل الفارسية، والجاوية، والتركية، والهندية، ولا يملك هذه الخاصية سوى المطوفين لاحتكاكهم المباشر مع أهل هذه اللغات. أما أهل البادية فلغتهم العربية الفصحى لعدم اختلاطهم. ولهم لهجات خاصة بكل قبيلة يصعب على الحاج التواصل معها[12].

ثانياً: أبرز المظاهر الاقتصادية/ البعد الاقتصادي:

يعتبر الحج وأيامه التي قد تمتد إلى شهرين أو ثلاثة أشهر أحد المواسم الاقتصادية الحولية التي تمر بها منطقة الحجاز عامة، ومناطق الحج (جدة - مكة - المدينة) بشكل خاص. والذي ينتظره

أهالي الحجاز كل عام يديرون فيه شؤونهم الاقتصادية ويكسبون من ورائه مالاً وفيراً يكفيهم طوال عامهم حتى يأتي الموسم الجديد.

ولذلك يشير كثير من أصحاب الرحلات التي بين أيدينا إلى أن مكة تتحول إلى أسواق متكاملة ومتعددة أثناء موسم الحج، حيث يرد إليها الكثير من المنتجات الصناعية والتجارية والزراعية، مثل العطور والسبح والسجاد والمنسوجات الحريرية والقطنية. والخضروات والفواكه والصناعات الفضية والذهبية والأواني النحاسية والخردوات التي يشتريها الحجاج كهدايا يعودون بها لأسرهم وأهاليهم[13].

أما القيمين على التجارة في الحجاز في عهد الأشراف فقد كان الأغراب والأجانب وخاصة الهنود الذين سكنوها واستوطنوها. أما الأهالي فإنهم يكتفون بالتجارة من خلال الطوافة التي تدر عليهم دخلاً يسترزقون منه طوال العام، ولذلك فإن الحجازيين لا يستفيدون من العوائد المالية التي يجنيها التجار الأجانب[14].

وتعتمد التجارة الحجازية على أنواع متعددة من حدادة، وصناعة، وتداول العملات بيعاً وشراءً، والطوافة، وتأجير المنازل، وتجارة الرقيق.

فأما الحدادة، فهي بسيطة جداً وينتج عنها عمل الأسلحة التقليدية. أما الصناعة، فلم يهتم بها الحجازيون بشكل كبير واكتفوا بالمصانع التي تنتج القطع والحلي الذهبية والفضية والدبل والنياشين الحكومية، وصناعة الهياكل النحاسية والمعدنية المستخدمة للنرجيلة/ الشيشة.

وقد أقيم لهذه الصناعات مصنعاً سماه الشريف حسين (دار الصنعة) التي تحتوي على أقسام متعددة، فقسم للخراطة الفولاذية، وقسم للمخارط، وقسم للمقاطع، وآخر للمسابك وقسم للأدوات الحربية أو الصناعية[15].

أما الأسواق التي كانت موجودة في مكة فقد ذكرها بعض الرحالة الحجاج على النحو التالي:

سوق الشامية: ويقع شمال الحرم المكي، وهو سوق كبير مسقوف بالخشب أشبه ما يكون بالأسواق التركية أو سوق خان الخليلي بمصر، وشوارعه ضيقة وتمر فيها الجمال والمتسوقين من الرجال والنساء، وفي هذا السوق تباع السبح والأقمشة الهندية والتركية وغيرها، كما تباع الأحجار الكريمة من فيروزٍ وياقوت وعقيق يقبل على شرائها حجاج اليمن بأثمان رخيصة جداً.

السوق الصغير: ويقع تجاه باب إبراهيم الخليل عليه السلام ويتميز هذا السوق بتجارة الغذاء والطعام فيجد فيه المتسوق الخبز واللحوم والبقول والفواكه والخضار التي تستورد داخلياً وخارجياً من المناطق المجاورة لمكة المكرمة كوادي فاطمة والحسينية والطائف، كما يجد المتسوق دكاكين لبيع السمك المقلي.

سوق الليل: ويقع شرق المسجد الحرام، وهو سوق كبير تختلط فيه البضائع، ويجد فيه الحاج المتسوق كل احتياجاته[16].

والمتأمل في واقع مكة المكرمة أثناء الحج يجدها تتحول إلى أسواق دائمة وفي كل جهة منها، ثم إن بعض القادمين للحج يصف مكة بذلك

منذ دخوله إلى جرول ثم الشبيكة ثم الشامية ثم جياد، ويلاحظ كثرة الأسواق وكثرة المتسوقين في هذه الأماكن والأحياء المحيطة بالحرم المكي الشريف، وتشير أغلب الكتب التي بين أيدينا إلى أن التجارة في الحجاز متأخرة جداً وذلك لصعوبة المواصلات ووسائل النقل إذ كان التجار يستخدمون الإبل لنقل تجارتهم في العهد الهاشمي ولما دخلت السيارات في بداية العهد السعودي تحسنت التجارة في مكة، وأصبحت الواردات الاقتصادية تصل في موسم الحج تباعاً وخاصة من اليابان والصين، حيث المنسوجات القطنية والحريرية والسجاد والسبح والأواني النحاسية. ولما فتح مصنع للسبح اليسر في مكة اكتفت السوق الحجازية بما ينتجه هذا المصنع آنذاك(17).

وأما النقود والعملات المستخدمة في البيع والشراء، فقد أشارت الكتب التي بين أيدينا إلى مجموعة من العملات يتعامل بها التجار في مكة مثل: الجنيه المصري، والجنيه الإنجليزي، والجنيه العثماني، والريال بطاقة، والريال الشنكو والريال المجيدي، والروبية، والفرنك والقرش المصري، والبنتو، وأكثر هذه العملات استخداماً الجنيه العثماني.

ولما بدأ الحكم الهاشمي يستقر في الحجاز سك عملة خاصة في مكة سميت بالنقود الهاشمية وهي الدينار، والريال والربع ريال واستمرت حتى جاء الحكم السعودي حيث كانت هناك عملتان رئيستان في مكة إحداهما ثابتة وهي الجنيه الإنجليزي وثمنه محدد وقد يرتفع في الحج. والثانية عملة فضية تسك في الدولة السعودية وهذه ليس لها سعر محدد(18).

وهناك تجارة الرقيق، وكانت سوقاً رائجة ومنتعشة أثناء الحج لكنها بدأت تفقد بريقها بظهور العهد السعودي، حيث كان التجار وملاك الرقيق يبيعون ويشترون في المماليك (العبيد والجواري) من الأحباش وغيرهم الذين يستوردون من الحبشة أو المولودين في مكة[19].

هذا في مكة المكرمة، أما الحالة الاقتصادية في المدينة المنورة فهي ليست بعيدة عما في مكة فوارداتها خارجية من جاوة والشام والهند مثل الأقمشة القطنية والصوفية والحريرية والسبح والليف الأبيض والحناء والسجاد والبسط. لكن أهم تجارة في المدينة المنورة هي تجارة التمور لكثرة النخيل والبساتين المنتجة له والتي يقال إنها تنتج أكثر من سبعين صنفاً من التمور.

ولا تقوم الأسواق في المدينة بشكل كبير إلا أيام الحج والموسم الرجبي حيث يجد الحاج والزائر جميع متطلباته ابتداءً من الباب المصري إلى الحرم عبر شارع ضيق طوله حوالي 500 متر[20].

وعلى أية حال فقد كانت الحالة الاقتصادية في الحجاز، وفي مناطق الحج خاصة تسير بشكل جيد، لأن ما يصرفه الحجاج أثناء فترة بقائهم في الحجاز وفي مكة خصوصاً - يصل إلى مليون جنيه تقريباً خلال فترة وجيزة تقدر بشهر واحد، وذلك في أجرة المساكن والمطوفين والزمازمة وشراء بعض الهدايا، ولذلك فإن بعض سكان مكة ينظرون إلى الحاج وإلى فترة الحج أنها مصدر رزقهم ولابد من الاستفادة منهم قدر الإمكان[21].

أضف إلى ذلك أن الأسعار رخيصة والأثمان زهيدة مما يتيح للحجاج أن يشتروا ما يريدون ويتعاملون اقتصادياً بكل ارتياح، والطعام متوفر وأسعاره جيدة، فقدح الحب الحنطة بقرش، وقدح الذرة ونصفه بقرش، وأربع أرطال سمن بقرش، وخمسة أرطال عسل بقرش، ورأس الغنم بقرش أيضاً. (كما يقول الرحالة اليمني يحي بن المطهر)، وهنا يتحدث عن القرش الفرنسي الذي كان مستخدماً آنذاك كعملة متداولة في اليمن ومقبولة في الحجاز[22].

ثالثاً: أبرز المظاهر السياسية/ البعد السياسي:

ومن خلال تحليلنا ودراستنا لكتب الرحلات الشرقية إلى الحج، لفت نظري أن أصحاب هذه الرحلات قد عايشوا ثلاث فترات سياسية في الحجاز وهي كما يلي:

الفترة العثمانية/ وهي فترة الشرافة بمكة إلى ما قبل حكم الشريف حسين.

الفترة الهاشمية/ فترة الشريف حسين بن علي.

الفترة السعودية/ فترة الملك عبدالعزيز وبداية الحكم السعودي.

ومن خلال هذه الفترات السياسية ومجمل فعالياتها في الحجاز عامة وتجاه الحجاج ومناطق الحج خاصة كانوا يكتبون ويشيرون إلى بعض القضايا والأحداث السياسية.

فمثلاً: محمد صادق باشا - وهو من أوائل الرحالة الحجاج المشارقة/ المصريين، والذي زار الحجاز أربع مرات بمهام مختلفة، فمرة مستكشفاً للطريق بين الوجه وينبع والمدينة المنورة، ومرة للعمرة،

وثالث مرة حاجاً وأميناً للصُّرَّة، وأخيراً مسؤولاً عن تسليم صدقة القمح لأهالي مكة والمدينة، وكانت على النحو التالي:

الأولى عام 1277هـ/1860م وألحق بها بعد عام واحد رحلة أخرى عام 1278هـ/1861م.

الثانية عام 1297هـ/1880م.

الثالثة عام 1302هـ/1884م.

الرابعة عام 1303هـ/1885م.

وفي كل هذه الرحلات نجد أن الكاتب يصف منطقة الحجاز ويحددها سياسياً، بأنها ولاية تقع بين نجد وتهامة، ومساحتها حوالي (1,193,517) مليونٍ ومائة وثلاث وتسعين ألفاً وخمسمائة وسبعة عشر كيلومتراً مربعاً، ومجموع سكانها ما بين (700,000) سبعمائة ألف نسمة و(800,000) ثمانمائة ألف نسمة جميعهم من المسلمين التابعين للدولة العثمانية وأن حدودها تمتد من عسير جنوباً إلى سوريا شمالاً ومن البحر الأحمر غرباً إلى صحراء نجد شرقاً[23].

ولقد دانت هذه المنطقة للدولة العثمانية عام 923هـ/1517م، بعد دخول السلطان سليم الأول مصر وإطاعة شريف مكة ووالي الحجاز آنذاك وأعلن خضوعه للحكم العثماني. وبدأ الأمراء والحكام الأشراف يتناوبون على حكومة الحجاز ابتداءً من أسرة أبو البركات، ثم أسرة بنو زيد ثم أخيراً في بني عون الذين ينتسب إليهم الشريف حسين بن علي حاكم الحجاز التابع للدولة العثمانية عام 1908م/1326هـ والمستقل عنها بعد عام 1916م/1334هـ[24].

ومكة هي عاصمة الحجاز وفيها محل حكومة الشريف وتنقسم إلى قسمين إداري، ومالي عسكري. فأما الإداري ففي يد الشريف أمير مكة ويسمونه سيد الجميع وأماالمالي العسكري ففي يد الوالي الذي يكون تركياً/ عثمانياً. وعليه فالشريف يحكم في القضايا الهامة.

وأما إبراهيم رفعت باشا الذي زار الحجاز ثلاث مرات ما بين سنة 1318هـ/ 1901م وسنة 1325هـ/1908م فيصف الأحوال السياسية في الحجاز بأن الحاكم آنذاك هو الشريف عون الرفيق الذي كان يجلس للحكم في دار الإمارة من الساعة الخامسة نهاراً قبيل العصر وتعرض عليه المسائل العامة، أما صباح الجمعة فإنه يستقبل الوالي وكبار الموظفين والأشراف وعلية المجتمع في مكة وذلك في دار الإمارة أيضاً[25].

ورغم ما يبدو من قيام الشريف عون الرفيق بدوره في الحكم إلا أنه أخذ عليه الشدة والجبروت واشتكى منه حجاج جاوة والهند والمصريين والسودانيين، وكل هذا ناتج عن الواقع السياسي الذي تعيشه مناطق الحج في الحجاز نتيجة للسياسة التي يمارسها الشريف عون الرفيق.

ولعل هذه السياسة التي مارسها الشريف عون الرفيق هي التي تصلح مع العربان الأشرار الذين لا ترغمهم إلا القوة ولا يعوقهم إلا البطش بهم، ولكن المطلوب هو أن نضم إلى القوة العدالة لكبح الأشرار من شرورهم وتأليف قلوب الناس والحجاج لحاكمهم وشريفهم[26].

والبارز في الحالة السياسية أيام حكم الأشراف قبل الشريف حسين ضعف الدولة وانعدام الأمن وتسلط العربان، وما يقابله الحجاج

من مصاعب أثناء السفر من مكة إلى المدينة والخوف على أنفسهم وأموالهم.

وفي ظل هذه الظروف تكون هناك فترات ناصعة لحكم الأشراف أو الولاة العثمانيين، فهذا الرحالة جفمان يصف الوالي أحمد باشا والي الحجاز بأنه متواضع، يخرج للجلوس في المسعى من الصباح إلى الظهر ويفصل بين الخصومات وينتقم من أهل الريب من العربان(27).

وكذلك ما رواه أحد الحجاج اليمنيين من أن الشريف غالب قبض على مجموعة من المتهمين بالسرقة أيام الحج فضبطهم بالحديد وعند وصوله مكة أمر بضرب أعناقهم وصلبوا أمام داره يمر بهم الخاصة والعامة للعبرة والاتعاظ والإرهاب(28).

وتشير إحدى الرحلات الشرقية في عام 1904م/1322هـ أنه حصلت فتنة في المدينة المنورة بين أحد وجهاء المدينة ومحافظها وصلت لدرجة التمرد والحرب، فأرسلت الحكومة العثمانية لجنة للتحقيق وقررت بعد دراسة المشكلة - إدانة المتمردين ورئيسهم السيد عبدالقادر بن عبيد الكردي وحكموا عليهم بالنفي إلى الطائف وأما الرئيس فقد سافر مع المحمل الشامي إلى بيروت، وبعد سنتين أفرج عن المنفيين وعادوا إلى المدينة(29).

ولما وصل الحكم والشرافة في الحجاز إلى الشريف حسين بن علي وبويع أميراً لمكة عام 1327هـ بدأت الأحوال السياسية تتغير إلى الأفضل فبعد أن كانت أيام أسلافه فوضى واضطرابات ونهب وسلب

وكان الحاج لا يأمن على نفسه وأمواله، تغيرت الأحوال فقام الأمير الحسين بن علي بالأمر خير قيام وبهمة لا تعرف الملل وضرب على أيدي القبائل والعربان، وبدأ في تشكيل حكومته السياسية على الصورة المعاصرة والحديثة، فتحقق الأمن والسلام، وقضى على مشاكل العربان قطاع الطرق(30).

وفي 15 ذي الحجة 1334هـ نشرت جريدة القبلة خبراً عن تأسيس الحكومة العربية الجديدة التي تشكلت في 7 ذي الحجة 1334هـ بمرسوم شريفي يقضي بتأليف هيئة الوكلاء، ومجلس الشيوخ(31). وهذا دليل على استقرار الحكم الهاشمي والبداية الجادة لدولة عصرية لها نظامها الإداري والسياسي المعروف.

وفي حج عام 1324هـ كان الرحالة/ الحاجٍ عبدالعزيز صبري بك في مكة، فوصف لنا الشريف حسين وصفاً دقيقاً على مستوى الشخصية والخلق وعلى مستوى العمل السياسي والإصلاحي في الحجاز، وعلى مستوى العمل الدولي في مجال السياسة الخارجية والعلاقة بالدولة العثمانية وموقفه في الحرب العالمية الأولى وغير ذلك مما يدل على شخصية الشريف حسين وقيادته السياسية البارزة(32). حيث نقل الحجاز إلى مصاف الدول والحكومات الإسلامية المعروفة.

ولما جاءت الفترة السعودية لحكم الحجاز، وجدنا كثيراً من الكتاب/ الرحالة يناقشون هذه الفترة ويشيرون إليها وإلى الواقع السياسي، بل ويشيرونٍ إلى إرهاصات الحكم السعودي في الحجاز قبل هذه الفترة فمثلاً هناك إشارات عن آل سعود في نجد وعلاقتهم بالأشراف في الحجاز واستيلائهم على المدينة وتطبيق السلطة بشكل

فعال فهدموا القباب ومنعوا المحمل المصري وما به من المنكرات، وموقف الدولة العثمانية التي أرسلت محمد علي باشا من مصر وانتصر عليهم وأخذ قادتهم وأرسلهم إلى استانبول حيث تم إعدام بعضهم هناك(33).

وقد تهيأ لمنطقة الحجاز عامة ومناطق الحج خاصة في ظل الحكم السعودي ما لم يتحقق لها في العهود السابقة من الرخاء والأمن والتنظيم السياسي والإداري. وكل الحجاج الذين زاروا في هذه الفترة يذكرون ذلك، بل وأكثر منه.

فمثلاً هذا محيي الدين يصف الحالة السياسية في عام 1353هـ ويقول إنه يتمتع بالأمن الوارف والصحة الجيدة والسلامة العامة بفضل الملك الصالح الحازم عبدالعزيز آل سعود مما لا يحلم به أحد. وفي موقع آخر يشير إلى تغير حال قطاع الطريق واللصوص من العربان الذين كانوا يتربصون بالحجاج في العهود السابقة وأصبحوا اليوم في - عهد ابن سعود - أقرب إلى الانضباط وعدم الاعتداء على الحجاج فإذا سار الحاج وحده في تلك الصحاري بلا رفيق ولم يشأ أن يعطي أحداً من الأعراب المتسولين فلا يجرؤ أحدهم أن ينال من الحاج شيئاً ولا يمد يده بسوء. وهذا بفضل الله ثم بفضل حكم الملك ابن سعود الذي حوّل النفوس الشريرة إلى نوع من الخوف بعد تطبيق حكم الشريعة الإسلامية على المعتدي والسارق والعابث(34).

ويشير بعض الحجاج الرحالة إلى رجال الشرطة في العهد السعودي كانوا قليلي العدد على طول الطريق من جدة إلى مكة ورغم

ذلك فإن الأمن مستتب والحمد لله ويعيد السبب في ذلك إلى التنظيم الإداري الجديد الذي طبقه الملك عبدالعزيز آل سعود في الحجاز، وقد نشرت جريدة أم القرى الرسمية في العشرين من صفر 1345هـ الموافق 30 أغسطس 1926م قانون التعليمات الأساسية ونظام الحكم في الحجاز ومن أهم المواد في ذلك القانون ما يلي[35]:

- الدولة العربية الحجازية دولة ملكية شورية إسلامية مستقلة في جميع الشؤون الداخلية والخارجية.
- تنفيذ الأحكام وفق الشريعة الإسلامية وما عليه السلف الصالح.
- تقسيم الحجاز إلى ثمان عشرة إمارة ولكل إمارة أمير يحكم بالنيابة عن الملك وهو مسؤول أمامه عن جميع شؤونها.
- يتولى النيابة عن الملك في الحجاز وإدارة الأمور الأمير فيصل الابن الثاني للملك عبدالعزيز.
- تشكل بالحكومة الحجازية مجلساً للشورى له مواد وقوانين وضعتها الجمعية العمومية في الحجاز.
- هناك إدارات تتبع كل وزارة.

وفي واقع الأمر فإن هذه التنظيمات مظاهر عصرية لدولة متقدمة، ولكنها شكلية فقط والمرجعية الأخيرة تعود لجلالة الملك الذي يعتبر صاحب السلطة في الدولة والمتصرف فيها وإليه راجع كل أمرها[36].

ومن أجمل ما كتب الرحالة/ الحجاج - كدليل على استقرار الأحوال السياسية في الحجاز في العهد السعودي عام 1349هـ، ما أورده

الأديب إبراهيم المازني في رحلته المسماة رحلة الحجاز، حيث يقول إن الأغنياء في الحجاز لا يدعون الفقر ولا يكتمون مالهم وإن كانوا لا يتباهون بالبذخ والتجارة وسوقها رائجة مع الغرب والشرق والأحاديث صريحة والألسن طليقة، وفي هذا دلالة على الاطمئنان وقد كان الناس في العهد السابق يخفون أموالهم ويتظاهرون بالمتربة ورقة الحال خوفاً من الابتزاز أو الاقتراض. أما الآن فربما احتاجت الحكومة أن تقترض من الأعيان لافتقار خزائنها وتعيد ما اقترضته في موسم الحج بدون ربا، وكان سائق السيارة – وهو أحد أفراد الفرق الموسيقية أيام الشريف حسين – يذكر أن الأمن مستتب على أحسن حال وأنه ما من أحد يجرؤ أن يسرق أو يمد يده إلى شيء في الطريق وعندما سئل هذا السائق أي العهدين أفضل أجاب. لكل زمان دولة ورجال[37].

وهناك حادثة سياسية خطيرة حصلت في عام 1353هـ وفي موسم الحج 15 مارس يوم عيد الأضحى يرويها الكاتب محيي الدين رضا، وهي حادثة الاعتداء على الملك عبدالعزيز في طواف الإفاضة من قِبَل بعض اليمنيين الذين حاولوا اغتياله ولكن الله سلّم بفضل الحراسة المشددة وموقف الابن الأكبر الأمير سعود الذي دافع عن والده وحماه بنفسه فأصيب من جراء الاعتداء بجروح خطيرة[38].

ورغم كل هذا الأمن والأمان والحالة السياسية الجيدة في بدايات العهد السعودي، إلا أن أحد الكتاب/ الحجاج انتقد تسلط الشركات الأجنبية وخاصة الإنجليزية على خيرات الحجاز، مشيراً إلى أن الشركة العربية للسيارات والتي تنقل الحجاج أثناء الموسم كثيراً

ما تتلف بسبب سوء الطريق وعدم تمهيده وهذا يجعل عمر السيارات الافتراضي قصير وبالتالي فإن تلفها مؤكداً وتغييرها بسيارات جديدة من الشركات والمصانع الإنجليزية والأجنبية أمر وارد وضروري. ويطالب الحكومة السعودية بإصلاح الطريق حتى لا تستفيد المصانع الأجنبية من تلف السيارات وتغييرها بأبهظ الأثمان - كما يقول -[39].

وهكذا كانت الحالة السياسية في الحجاز عامة، ومناطق الحج خاصة عبر فترات ثلاث هي التي تنتظم من خلالها كل كتابات الرحالة/ الحجاج الذين تداخلنا مع كتبهم كأدب للحج من الشرق العربي.

رابعاً: أبرز المظاهر الثقافية/ البعد الثقافي:

يتحدث مؤلفو الكتب التي بين أيدينا عن النواحي الثقافية في الحجاز ويسمونها بالتأخر والرجعية وذلك بسبب تغلب الجهل والأمية على سكان الحجاز، فلا مدارس ولا تعليم نظامي، ولا وسائل للثقافة، وذلك في فترة الأشراف المبكرة قبل عهد الشريف حسين، مع أن الحجاز وبالذات مكة والمدينة من أوائل العواصم الإسلامية التي اهتمت بالتعليم والثقافة لاسيما من خلال الدروس الدينية في الحرمين الشريفين.

ولعل الذي جعل الكتاب والمؤرخين يأخذون هذه الفكرة عن الحجاز وأهله هو ما شاهدوه من مظاهر التخلف والتراجع النهضوي والاجتماعي والسياسي.

ولكن مع بداية حكم الشريف حسين بن علي بدأ الرحالة الحجاج يتحدثون عن المدارس والتعليم والصحافة والأدباء والمعلمين والمكتبات،

وكل مظاهر الثقافة، ويركزون في ذلك على مكة ودور الحرم الشريف في التأسيس لهذه الثقافة، ففيه كثير من حلقات العلم حيث يدرس فيها بعض العلوم العربية والتفسير على الطريقة القديمة وأغلب الطلاب المتعلمين في هذه الحلق من الجنس الجاوي ويشرف عليهم حوالي ثلاثين عاملاً ومعلماً. ثم تطور الأمر إلى وجود بعض المدارس شبه النظامية والتي تتعاطى علوم العصر آنذاك مثل المدرسة الصولتية التي أسسها الشيخ رحمه الله الهندي العالم وصاحب كتاب «إظهار الحق». وكانت تهتم بتدريس القرآن الكريم وعلم التجويد واللغة العربية والحساب والهندسة، وكانت تقوم بمهمتها التعليمية والتثقيفية بتبرعات الحجاج والمحسنين وخاصة من أهل الهند المتعاطفين مع صاحبها ومؤسسها لأنه من بلادهم.

وهناك مدرسة أخرى في مكة يشرف عليها الأستاذ يوسف محمد خياط وهو من علماء مكة الأفاضل ويدرس طلابها نفس المقررات والمواد السابق ذكرها في المدرسة الصولتية.

وفي الثالث من جمادى الآخرة عام 1328هـ نشرت جريدة «المفيد» المصرية نقلاً عن «الصباح» أن الحكومة العثمانية افتتحت مدرسة ابتدائية بمكة وتحت رعاية وإشراف والي مكة والشريف حسين(40).

أما الحاج عبدالعزيز صبري الذي زار الحجاز عام 1342هـ فيذكر أنه قد تشكلت وكالة للمعارف العمومية في حكومة الحجاز الهاشمية وأنه شارك مع وكيلها في حفل طلابي/ بالمدرسة الراقية احتفاء بالطلبة المتميزين، ويطالب الشريف حسين بالاهتمام بالبعثات التعليمية لتشكيل الثقافة الحجازية وتنميتها.

كما يشير إلى إحدى المدارس العسكرية والتي سماها الشريف حسين المدرسة الحربية العربية، وهي تهتم بتدريب الضباط وتدريسهم العلوم العسكرية. وأغلب المعلمين فيها من ضباط الجيش التركي وبعض العسكريين السوريين(41).

وأما المدينة النبوية فيصفها البتنوني عام 1327هـ بأنها تفتقر إلى المدارس الرسمية، بينما يوجد حوالي سبعة عشر كتاباً لتعليم العلوم البسيطة، أما في الحرم فتقام حلقات التدريس ويدرس فيه الفقه والتفسير، وهنا - في المدينة المنورة - تبرز مدرسة القرآن والحديث والتي يعمل فيها الشيخ محمد شويل ويديرها الشيخ أحمد الدهلوي، وينفق عليها من التبرعات الشخصية التي يجود بها رجال المال والخير الهنود(42).

وفي هذا الإطار نجد مظهراً بارزاً من المظاهر الثقافية وهو المكتبات العامة والخاصة سواء في مكة أو المدينة أو جدة. وتسمى آنذاك «الكتبخانات» ففي مكة مثلاً - حسب ما رصده البتنوني عام 1327هـ مكتبتين الأولى في باب أم هاني بجوار الحرم واسمها كتبخانة شرواني زادة محمد رشدي باشا - أحد ولاة الحجاز السابقين - والثانية في باب الدريبة قرب باب السلام واسمها كتبخانة السليمانية التي أسسها السلطان عبدالمجيد ووفر لها الكتب من شتات مكتبات الحرم ومما أرسل من العاصمة العثمانية. ولكل مكتبة مأمور يقوم بشؤونها، ولكل منها فهرس بخط اليد، والكتب فيها من معارف متنوعة نحوية وفقهية وتاريخية سواء باللغة العربية وهي الأعم الأغلب أو باقي اللغات مثل

الفارسية والهندية والتركية والجاوية. وهنا يشير البتنوني أن هناك كتباً كثيرة كانت في دواليب زجاجية بالحرم سُرق بعضها، وأتلف بعضها السَّيل الذي دخل الحرم[43].

وأما المدينة المنورة ففيها الكثير من الكتبخانات/ المكتبات التي ذكرها الرحالة/ الحجاج مثل المكتبة المحمودية التي أنشأها السلطان محمود بجوار باب السلام بالمسجد النبوي وفيها أكثر من أربعة آلاف كتاب بين مخطوط ومطبوع، ولها فهرس مطبوع بالعربية والتركية. والمكتبة المعروفة بكتبخانة شيخ الإسلام عارف حكمت القريبة من باب جبريل عليه السلام إلى جهة القبلة وهي غاية في التنظيم والترتيب والتنسيق وعدد كتبها لا يقل عن خمسة آلاف وأربعمائة وأربعة كتب بين مخطوط ومطبوع. أما مكتبة السلطان عبدالحميد الأول ففيها حوالي أربعة آلاف وخمسمائة وستة وتسعون كتاباً، ومكتبة بشير أغا بجوار باب السلام التي يبلغ عدد مقتنياتها من الكتب حوالي ألفي كتاب[44].

ومن المظاهر الثقافية أيضاً المطابع والصحف أو الجرائد، حيث تشير المصادر التي بين أيدينا إلى أن الشريف حسين أقدم على إنشاء المطابع والجرائد لتكون وسيلة للنشر المعرفي والثقافي والسياسي والاجتماعي وكان من أول الجرائد في الحجاز جريدة «القبلة» والمطبعة الخاصة بها في مكة وكان يرأسها الشيخ محمد الساسي، وكانت جريدة القبلة هي الجريدة الرسمية في الحجاز، كما أنشئت جريدة باسم الفلاح لكنها لم تستمر في الصدور، وهناك أيضاً مطبعة أخرى أشار إليها البتنوني بأنها مطبعة حكومية خاصة بالولاية العثمانية وتسمى

باسمه ويصدر عنها جريدة بالتركية والعربية اسمها حجاز وهي جريدة شبه رسمية وتنشر كل ما يتعلق بأخبار الحكومة وإعلاناتها(45).

أما في المدينة النبوية فقد وجدت صحيفة تحمل نفس الاسم «المدينة المنورة» تصدر باللغة العربية والتركية في أوقات محدودة، وليست بشكل دائم، فكلما كان الجناب العالي موجوداً في المدينة صدرت لمتابعة ونشر تحركاته اليومية، ونشر كل ما كتب عنه من مدائح نظماً ونثراً(46).

أما في العهد السعودي، فقد تحسنت الأمور الثقافية واتضحت معالمها من خلال العديد من الوسائل والأساليب الثقافية التي شكلت ما يعرف بالمظاهر الدالة على ثقافة متنامية ومتجددة.

فعلى مستوى التعليم والمدارس، اهتمت الحكومة السعودية بإنشاء المدارس مثل المدرسة الخيرية، والمدرسة السعودية، والمدرسة الفيصلية، والمعهد العلمي الديني، وكل ذلك على نفقة الحكومة السعودية كما استمر إشرافها على المدارس التي كانت موجودة في الحجاز في العهد الهاشمي والعثماني مثل مدارس الفلاح، ومدرسة دار الحديث ورتبت لها مرتبات وإعانات مالية من الإيرادات الجمركية، كما طورت الحكومة السعودية المناهج والمقررات فأدخلت اللغة الإنجليزية ليتعلم أبناؤها الحجازيون لغة عصرية جديدة يحتاجونها حتى يهيئون للبعثات العلمية التي اهتمت بها الحكومة السعودية فأرسلت مجموعات من طلابها إلى مصر وإلى بعض الدول العربية، وبعض الدول الأوروبية(47).

أما المدينة المنورة فكان التعليم فيها أقل من مكة المكرمة فلازالت المدارس فيها على عهد الكتاتيب الأولية وتعنى بتحفيظ القرآن الكريم والحديث الشريف وخصصت لهذا مدارس القرآن والحديث وكان يديرها الشيخ أحمد الدهلوي ويعمل فيها الشيخ محمود شويل.

أضف إلى ذلك سبعة عشر كتاباً يقوم بتعليم العلوم البسيطة في الوقت الذي كان الحرم النبوي يقوم بدوره التعليم والتثقيفي كما كان سابقاً وأكثر اهتماماته بالعلوم الدينية من فقه وتفسير[48].

والمدارس الحديثة التي أنشئت في العهد السعودي بالمدينة المنورة مدرسة العلوم الشرعية وهي مدرسة ابتدائية تدرس أحكام الشريعة في الفصول العليا منها، وهناك المدارس الصناعية المهنية - ولعلها الأقدم – حيث تعلم الصناعات اليدوية كالجلود والنسيج والمفارش ومدرسة الأيتام[49].

وفي جدة يشير أحد الرحالة/ الحجاج أنه زار مدرسة ابتدائية وكان ناظرها السيد عمر نصيف وتجول فيها وزار فصولها ومعلميها، ووصف بناءها بأنه فخم، وأورد أعداداً تقريبية لطلابها ومعلميها، فعدد المعلمين ثلاثة عشر معلماً، وعدد تلاميذ الصف التمهيدي مائة وثلاثة وثمانون طالباً، وعدد الصف الأول ثمانية وعشرون طالباً، أما الصف الثاني فعشرين طالباً، والثالث ثمانية طلاب، والرابع ستة طلاب فقط.

كما أشار إلى المقررات والمناهج التي تدرس في هذه المدرسة مثل المقررات المصرية، ماعدا التاريخ والجغرافيا فيدرس فيها ما يتناسب مع حالة البلاد السعودية[50].

والجدير بالذكر هنا أن التعليم في الحجاز كان مقتصراً على الذكور فقط ولم يكن تعليم البنات مهيأً بشكل رسمي، إنما كان تعليمهن بشكل خاص. والأسر التي تهتم بذلك ترسل بناتها إلى كتاب خاص بالبنات فيه فقيهات معلمات يدرسن الطالبات القراءة فقط ومن يرغب في الاستزادة من العلم يحضر لبناته معلمات خاصات في المنازل[51].

أما المكتبات في الحجاز فأهمها مكتبة السيد محمد نصيف في جدة، والتي تحتوي على أنفس المطبوعات من دور نشر كثيرة ومتعددة من تركيا ومن المغرب ومن الهند ومن مصر. وفيها مجموعات كبيرة من المخطوطات، ومجموعة من الصور للآثار العربية والإسلامية والأندلسية التي أهديت إليها من الثري الأمريكي المستر كرين المشهور بحب العرب والمسلمين.

وهناك مكتبة الحرم المكي بجوار البيت الحرام، وكان يشرف عليها الشيخ محمد سياد، ودواليبها من غير زجاج وفيها حوالي عشرة آلاف كتاب في شتى فنون العلم والمعرفة من دين وآداب وتاريخ ونحو وغيرها. ويكثر المترددون عليها في أيام الحج من الأدباء والمثقفين، للقراءة والنسخ والمشرف عليها موظف عجوز يقوم على خدمتها وتنظيمها، كما أن الشيخ محمد سياد أشرف على فهرستها وتصنيفها وتنظيمها بشكل يتيح للمستفيدين أن يصلوا إلى الكتاب الذي يريدونه بيسر وسهولة[52].

أما المطابع والصحف والجرائد التي كانت في الحجاز إبان العهد السعودي، فلم يتحدث الرحالة/ الحجاج الذين تداخلنا مع كتبهم، إلا

عن جريدتين تصدران بمكة المكرمة وهما جريدة أم القرى التي تعتبر الصحيفة الناطقة بلسان الحكومة ويطبع منها عدد واحد كل أسبوع أي أنها صحيفة أسبوعية وتتكون من ورقتين من الحجم الصغير وبأعداد متواضعة لأن الحجازيين لا يقرأون الجرائد كما يقول عباس متولي حمادة الذي زار الحجاز في حج عام 1354هـ، ولكنها تطبع حوالي ثلاثة آلاف نسخة في مواسم الحج وتوزع على الحجاج من المشتركين، أما الجريدة الثانية فهي جريدة صوت الحجاز، والتي تصدر مرتين في الأسبوع وهي جريدة أهلية لا تشرف عليها الحكومة بشكل رسمي.

ولكن الغريب هنا، ما أشار إليه بعض الكتاب من أن العهد السعودي لم يتحمس لإنشاء الصحف والجرائد، ولم تتح الفرصة بشكل كبير للتأليف والكتابات الصحفية الجادة فكان هناك إجراءات تنظيمية قاسية تحد من حرية التأليف والكتابة والصحافة، وتقييد أمور الكتابة والنشر بقوانين مشددة، حيث شكلت الحكومة السعودية لجنة علمية/ أدبية لمراقبة الكتاب والصحفيين والكتب المرغوب طباعتها، والكتب التي تدخل البلاد وهي مطبوعة في الخارج، كما تم تحديد الكتابات والموضوعات التي يمكن أن يشارك بها الصحفيون وحظروا الكتابة السياسية، ولم تعط الفرصة للأدباء لاستخدام خيالاتهم الأدبية وبراعة أساليبهم، وتوقفوا عند الكتابات الإسلامية[53].

وكل هذا حد من انتشار المطابع والصحف والمؤلفات وذلك في بداية العهد السعودي لكنها بعد ذلك دخلت في طور أدبي وثقافي كبير.

وأخيراً فإن المظاهر الثقافية التي تعيشها مناطق الحجاز عامة ومنطقة الحج خاصة هي الآثار والمواقع الأثرية، ومعروف أن الآثار

الإسلامية تشكل عصب هذا الأمر وقيمته التي يفخر بها الحجاز ومناطق الحج فيه كمكة والمدينة، ولذلك فإن جميع المصادر التي بين أيدينا أشار أصحابها إلى هذه الآثار وزاروها ووصفوها.

ومن ذلك ما شاهدوه في جدة حيث سورها وأبوابها الأثرية وقبر السيدة حواء الذي وصفوه وقدموا عنه معلومات أثرية مهمة مثل طول القبر والقباب التي بنيت عليه[54].

وأما في مكة فقد أشار الرحالة؟ الحجاج إلى جبل حراء كأثر يزوره الحجاج ويطلعوا عليه لأنه المكان الذي شرف بنزول الرسالة السماوية على سيد الخلق صلى الله عليه وسلم. وكذلك مكان مولد النبي صلى الله عليه وسلم، وهو منزل بشعب عامر شرق الحرم الشريف، وكذلك دار أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ودار الأرقم المخزومي، والمنزل الذي ولد فيه سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

أضف إلى ذلك الآثار الموجودة بمقابر المعلاة (المعلى) وهي قبور الصحابة وأمهات المؤمنين وما بني عليها من قباب[55].

أما الآثار في المدينة المنورة فكثيرة جداً تعرض لها الرحالة/ الحجاج بالوصف والإشارة والتعليق ومن أمثلة تلك الآثار مسجد قباء ومسجد سيدنا حمزة بن عبدالمطلب ومسجد الفتح والمساجد الخمسة، ومسجد الغمامة، وقبة السبق، ومسجد الدرع، وغيرها من المساجد.

أضف إلى ذلك مجموعة من الكتابات الأثرية على جبل سلع التي شاهدها ونسخها الرحالة محمد رفعت باشا عام 1326هـ وهي بالخط الكوفي المتميز آنذاك[56].

وعلى أية حال فمنطقة الحجاز - وبحكم موقعها الديني والإسلامي - مهد العلم والفكر والثقافة، وتحمل الكثير من الأبعاد الثقافية التي لاحظها الرحالة/ الحجاج وسجلوا انطباعاتهم ومشاهداتهم عنها سواء أكانت إيجابية أم سلبية حسب الظروف والفترات السياسية والاجتماعية التي مرت بها منطقة الحجاز عامة ومناطق الحج منها بشكل خاص.

خامساً: المظاهر الدينية/ البعد الديني:

تعتبر منطقة الحجاز بعامة - ومناطق الحج فيها بشكل خاص - هي المنبع الأول للدين الإسلامي، وفيها نزل الوحي على المصطفى صلى الله عليه وسلم. وعليها درج الصحابة والتابعون، وفيها بيت الله العظيم ومسجد نبيه الكريم وعلى ثراها درج الصالحون والسابقون وخلدوا مآثرهم حتى غدا الحجاز قبلة المصلحين والمتدينين والباحثين عن الصراط المستقيم.

ولكن مع مرور الحقب والسنين، وتعاقب الدول والتاريخ، تغير الواقع الديني السليم في الحجاز ودخل إليه كثير من البدع والخرافات والضلالات مع مَن وفد إليه من القبائل والشعوب والمستوطنين.

ولذلك كان الرحالة/ الحجاج يستغربون الواقع الديني في مناطق الحج وأشاروا إلى هذا الاختلاف في كبتهم التي تداخلنا معها، وأوضحوا طرفاً من الواقع الديني والمظاهر الدينية، ولعل أول سمة مخالفة للشرع، هي نية الحجاج عند مجيئهم إلى الحجاز، فمنهم من ينوي آداء الركن الأعظم/ شعيرة الحج المقدسة، فقط،

ومنهم من ينوي بعد ذلك زيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ولكنهم ينوون ذلك بصيغة مختلفة وفيها مخالفة شرعية وهي زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد لوحظت هذه النية في بعض الكتابات التي بين أيدينا[57].

والصحيح كما يذكر أحد الكتاب الأزهريين[58]. زيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك للنص النبوي الوارد في هذا الشأن فيما معناه «لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى» أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

ومن المنكرات والبدع التي يمارسها الحجاج في طريقهم إلى الحج ما أورده بعضهم من لهو وطرب ولعب حيث يقضي الحجاج ليلهم على سطح الباخرة وهم على هذا الحال الذي لا يرضي المؤمنين الصالحين ولا يليق بمن أتى لمناسبة الحج وطلب المغفرة. أضف إلى ذلك أصحاب الطرق الصوفية وأصحاب الأصوات المنكرة ومناداة السيد البدوي والبدع التي يمارسونها على اعتبار أن ذلك كله من الإيمان ومن العمل الصالح وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وأما في العودة بعد الحج فكأن الحجاج لم يحجوا ولم يقفوا بعرفات لتغيير أخلاقهم وظهور بعض المعاصي بينهم[59].

وفي هذا السياق، إشارات مهمة لدى الكتاب الذين تداخلنا مع كتبهم فيما يخص المواقيت التي يحرم منها الحجاج فقد وردت ثلاثة أماكن يمر بها الحجاج من المشرق العربي ويحرمون للحج منها. فبالنسبة لأهل الشام والذين يمرون بالمدينة المنورة أولاً قبل الحج

فإنهم يحرمون وينوون ويلبون بالحج من المكان المعروف بأبيار على (ذي الحليفة). وبالنسبة لأهل مصر فإنهم يمرون بمحاذاة رابغ (الجحفة سابقاً) ويحرمون من هناك. وأما أهل اليمن فإنهم يحرمون من لدن السعدية أو يلملم قريباً من القنفذة[60]. وكل هذه الأماكن هي التي نص الشارع عليها ومضى على سنتها السلف الصالح.

ومن الأمور الدينية التي أشارت إليها كتب الرحلات الشرقية المقامات الأربعة التي كانت موجودة في الحرم المكي الشريف ولها أتباعها وصلواتها مما يفرق أمر المسلمين ويجعلهم شيعاً وأحزاباً.

فقد ورد في تلك الكتب أن هناك المقام الشافعي والمقام الحنفي، ومقام المالكية والمقام الحنبلي. ولكل مقام مريدوه وأتباعه ومؤيدوه وهؤلاء كلهم أتباع المذاهب الإسلامية المعروفة. فأما المقام الحنفي فهو المذهب المعتمد للدولة العثمانية ومذهب السلطنة وبه يدين أكثر الحجاز لانتمائهم السياسي للدولة العثمانية. ولكل مقام من هذه المقامات مكان معروف في الحرم الشريف، فالمقام الشافعي فوق زمزم من جهة الشرق، ومقام الحنفية من جهة الشمال، والمالكية من جهة الجنوب والحنبلي من جهة الغرب. وأول ما تقام الصلاة بإمام المذهب الحنفي ثم يتلوه إمام المذهب الشافعي ثم إمام المذهب المالكي وأخيراً إمام المذهب الحنبلي[61].

ومن المظاهر الدينية اللافتة للنظر في منطقة الحجاز تلك القباب التي بنيت على قبور الصحابة ويبدو أن ذلك تم في عصور متأخرة لأن ذلك محرم شرعاً وليست من الدين في شيء[62].

والجدير بالذكر هنا أن الملك عبدالعزيز آل سعود ألغى المقامات الأربعة ووحدت الصلاة في الحرم الشريف على إمام واحد وأصبح المذهب الحنبلي هو السائد مع عدم إهمال المذاهب الأخرى، وكذلك أزيلت القباب والآثار التي تؤدي إلى التبرك بها وتوصل إلى الشرك لا سمح الله مثل مكان مولد النبي، ودار السيدة خديجة ودار الأرقم المخزومي وغيرها[63].

ومن هنا بدأت المظاهر الدينية في الحجاز تعود إلى الطبيعة الأقرب إلى الإسلام، وفهم الدين بشكل سليم وصحيح، وبدأت الممارسات العقائدية تأخذ طابعها التصحيحي. فتحولت الدروس والمواعظ في الحرمين الشريفين إلى بيان حقيقة الدين والاعتقاد، ونبذ البدع والمنكرات، وشكلت لهذا الأمر هيئة وجمعية خاصة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأعضاؤها من رجال الحسبة والعلماء النجديين، ويرافقهم بعض رجال الشرطة ليقرنوا العمل الدعوي الديني بالسلطة العسكرية التي تأخذ على يد المتهاون، وكان دور هذه الجمعية مراقبة الأسواق والمناداة بالصلاة في وقتها والدعوة إلى الأخلاق الفاضلة وجباية الزكاة وغير ذلك من أمور المعروف وإنكار المنكر وكان من نتيجة ذلك أن تحدد القضاء الشرعي حسب النظام الإسلامي وأحكام الشريعة وفرض الحجاب على النساء وإصدار العقوبات القضائية على مشهد من الناس، ومن ذلك ما شاهده أحد الحجاج أصحاب الكتب التي بين أيدينا في المدينة النبوية، فقد كان رجال الشرطة يدورون في شوارع المدينة ومعهم رجل مطلي وجهه باللون الأسود ويخبرون الناس أن هذا شاهد زور وقد حكم عليه بذلك حتى لا يتعامل الناس معه ثم يسجن جزاء له وردعاً لأمثاله[64].

ومن المظاهر الدينية أيضاً التي لفتت أنظار بعض الكتاب وتحدثوا عنها بإعجاب كبير هو غسيل الكعبة المشرفة وإتاحة الفرصة للدخول إليها والصلاة فيها. وتلك سنة حميدة سار عليها الحكام في كل العهود التي مرت بها منطقة الحجاز منذ أيام العثمانيين وحكم الأشراف والحكم السعودي، فمثلاً نجد أن أحد الحجاج المصريين في عام 1318هـ - أي في عهد الدولة العثمانية. وحكمها على الحجاز – يتسنى له المشاركة في غسيل الكعبة يوم الاثنين من ذي الحجة وأداء ركعتين نافلة في كل اتجاه ثم يصفها من الداخل وصفاً دقيقاً، ويذكر الأوقات التي يفتح فيها باب الكعبة للزائرين وذلك على النحو التالي:

* في العاشر من محرم للرجال.
* ليلة الحادي عشر من محرم للنساء.
* ليلة الثاني عشر من ربيع الأول للدعاء للسلطان.
* صباح هذه الليلة للرجال.
* وفي ليلة الثالث عشر من ربيع الأول للنساء.
* وفي اليوم الأول من رجب للرجال.
* وفي ليلة الخامس عشر من شعبان للدعاء للسلطان.
* وفي صباح هذه الليلة للرجال.
* وفي المساء للنساء.
* وفي ليلة الخامس عشر من شعبان للدعاء للسلطان.
* وفي صباح هذه الليلة للرجال.
* وفي المساء للنساء.

* وفي يوم الجمعة الأولى من رمضان للرجال.
* وفي الجمعة التالية للنساء.
* وفي ليلة السابع عشر من رمضان الدعاء للسلطان.
* وآخر جمعة من رمضان الدعاء للسلطان.
* وفي نصف ذي القعدة للرجال.
* وفي الليلة التالية للنساء.
* وفي عشرين من ذي القعدة لغسيل الكعبة.

وبشكل خاص تفتح في غير هذه الأوقات لبعض الأعيان والوجهاء والشخصيات(65).

وفي عام 1334هـ/1916م تمكن الإمام محمد رشيد رضا أثناء حجه في هذا العام أن يدخل الكعبة ويصلي فيها ويصفها لنا وصفاً جميلاً، ورائعاً، وكذلك تمكن كل من إبراهيم عبدالقادر المازني في زيارته للحجاز جمادى الأولى 1349هـ ومحيي الدين رضا عام 1353هـ، وعباس متولي حمادة في حجته عام 1354هـ(66).

ومن أجمل المظاهر الدينية التي يصفها الحجاج/ الرحالة هو الوقوف بعرفة واجتهاد الحجاج في الدعاء والعبادة والوقوف بجوار الصخرات التي أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه وقف عندها. ولكن العجيب في هذا الأمر أن يكون الوقوف بعرفة يومين متتاليين، فهذا الحاج اليمني يحيى بن المطهر يشير إلى أنه وأصحابه اليمنيين في حج عام 1211هـ وقفوا يوم الأحد احتياطاً بينما كان الوقوف

الأعظم يوم الاثنين، وقد انكشف فيما بعد - كما يقول - أن الوقفة الصحيحة كانت يوم الأحد الذي احتاط فيه ووقف بعرفات، حيث شهد أهل المدينة بأن يوم الأحد هو يوم الوقفة(67).

وهكذا كانت المظاهر الدينية في منطقة الحجاز خليطاً من البدع والمنكرات والأعمال الصالحة التي قام بها أو شاهدها أصحاب هذه الرحلات وبينوها في رحلاتهم التي بين أيدينا.

سادساً: المظاهر الطبية/ الصحية/ البعد الصحي:

تعتبر منطقة الحجاز بصفة عامة، ومناطق الحج فيها بشكل خاص، وفي الفترة التي تعالجها الكتابات التي بين أيدينا ما بين 1211هـ و1354هـ مناطق قابلة لانتشار الأوبئة والأمراض لاسيما وأنها تستقبل في كل عام موسم الحج الذي يفد إليه من أقطار العالم الإسلامي حجاج متعددو الأجناس والبيئات بكل ما يعنيه التعدد من قيم وعادات وتقاليد وآراء وأفكار ومعتقدات وصحة ومرض وغير ذلك من الأمور التي تُشكّل منها الأمم والجماعات.

ولذلك كان من الشروط التي تفرضها حكومة الحجاز على الحجاج أن يمروا في بلادهم على المحاجر الصحية والكرنتينات ويحصلوا على شهادة خلو من الأمراض وشهادة تطعيم وحقن ضد الأمراض المستعصية مثل الكوليربا والتيفوئيد والجدري وغيرها من الأمراض التي تنتشر بشكل دوري.

وما إن يصل الحجاج إلى جدة حتى يمروا أيضاً على المحجر المعد خصيصاً للكشف على الحجاج القادمين والتأكد من صحتهم وخلوهم من الأمراض المستعصية والحجر على من يثبت إصابته بأحد الأوبئة

وتقديم العلاج المناسب حتى الشفاء ثم يسهل طريقه إلى أداء الحج في يسر وسهولة[68].

وزيادة في الضمانات الصحية كانت الدول والحكومات تشرف بنفسها على سفر حجاجها إلى الديار المقدسة وتهيئ لهم أسباب الراحة في السفر فتجهز البواخر والسفن بكل ما يحتاجه الحجاج، ومن ذلك تجهيز البواخر بالمستشفى المتنقل والعيادات الطبية والإسعافات الأولية والأطباء المميزون ويؤكد هذا الكاتب الحاج محيي الدين رضا حيث يصف عيادة طبية على ظهر الباخرة التي أقلته مع الحجاج من السويس إلى جدة من حج عام 1353هـ، وأنها مملوءة بالحجاج الذين يستشفون، هذا من ضرسه، وهذا من عينه، وهذا مصاب يضعف القلب، وكان الدكتور أبو الغيط يعنى بالجميع رجالاً ونساءً يساعده الدكتور محمد السنباطي وزمرة من الممرضات ومن أوانس مصريات..[69].

ورغم كل هذه التحصينات المبدئية ضد الأوبئة، فإن مناطق الحج في جدة ومكة/ والمشاعر المقدسة والمدينة المنورة معرضة للكثير من الأمراض التي يحملها الحجاج من بلادهم مثل مرض الكوليرا الذي حصد أرواحاً كثيرة من الحجاج عندما ظهر في مكة وانتشر بين الحجاج عام 1216هـ/1825م وكان سبب انتشاره الحجاج الهنود الذين جاءوا للحج وهم موبوءون به، وانتقلت العدوى إلى كثير من الحجاج الذين أصيبوا به وأدى إلى وفاة كثير منهم.

ومثل أمراض الصدر التي تكثر في الشتاء، والاحتقانات الدماغية وضربات الشمس وأمراض العيون والكبد والجهاز الهضمي

والدوسنتاريا وخصوصاً بين الأطفال، وأمراض الجدري والحميات، وكل ذلك ناشئ عن فساد الهواء في مكة لكثرة الحجاج وعدم العناية بالنظافة[70].

ولعل من الأسباب المؤدية إلى تدني الأحوال الصحية في مناطق الحج ما ذكره بعض الكتاب بشأن الذبائح للأضاحي والهدي في أيام التشريق بمنى، فقد كان الذبح يتم بشكل عشوائي وبين الخيام، وترمى الذبائح دون الاستفادة منها مما يعرضها للشمس والتلف وإظهار الروائح الكريهة التي تفسد الجو وتكثر الميكروبات ويتعرض الحجاج للعدوى بالأمراض الفتاكة والخطيرة.

وقد نبه كثير من الكتاب لهذه المشكلة وطالبوا حكومة الحجاز بعمل الحفر لدفن الذبائح أو استخدام الأساليب العلمية الحديثة في حفظها وتوزيعها على فقراء الحجاز[71].

أضف إلى ذلك أن بعض الحجاج يستخدمون مجاري عين زبيدة استخداماً سيئاً، حيث يغتسلون فيها، ويغسلون ملابسهم وبعضهم مصاب بأمراض جلدية مثل الجذام وغيرها من الأمراض الجلدية الأخرى، وبالتالي فإن من يستخدم الماء يصاب بهذه الأمراض، ومعروف أن الماء أكثر موصل للعدوى.

وفي هذا السياق تشير بعض الكتب أن الحكومات الحجازية أدركت هذه المسألة الطبية وسعت لوضع الحلول المناسبة، ومنها أن زوجة السلطان العثماني سليمان القانوني وتدعى «خاصكي سلطان» قد أنشأت مستشفى في مكة معروف باسم «شفاء خانة الخاصكية» ويتبعها أربع صيدليات/ أجزخانات اثنين عند المسعى، وواحدة بأجياد

والرابعة عبارة عن دكان عطارة بسيط فيه من الأدوية ما يفيد الحجاج والمرضى.

ولكن الغريب أن إقبال الحجاج على المشافي يكاد منقطعاً لعدم ثقتهم فيها، ووثوقهم بالطب القديم كالفصد والحمية والتداوي بالأعشاب والكي بالنار وغير ذلك من أنواع الطب القديم[72].

ومن المظاهر الطبية ما ذكره الحاج عبدالعزيز صبري بك في حج عام 1342هـ، حيث يؤكد على أن الحكومة المصرية قد اعتادت أن ترسل مع المحمل المصري بعثة طبية للإشراف الطبي على الحجاج المصريين، وتقديم الخدمات الطبية للحجاج في مكة والمشاعر المقدسة، وهذا من أفضل الأعمال وأدومها وكانت تقابلها الحكومة الحجازية بمزيد من القبول والعرفان.

ولكنه في ذلك العام 1342هـ حصلت مشكلة سياسية بين الحكومة الهاشمية والحكومة المصرية، تعثرت بسببها البعثة المصرية وعاد المحمل المصري دون حجٍ، وبالتاليٍ عادت البعثة المصرية وخسر الحجاج عامذاك دوراً طبياً متميزاً كان يقدمه الأطباء المصريون والمصاحبون للمحمل[73].

ومع بداية العهد السعودي، بدأ الاهتمام بالأحوال الصحية للحجاج، فأنشأت الحكومة السعودية مصلحة الصحة الحجازية ووفرت السيارات الإسعافية والأطباء، وأوجدت لها مقاراً متنقلة على طول الطريق بين جدة ومكة والمشاعر المقدسة، وفيها معدات الإسعافات الأولية وكميات كبيرة من الماء للشرب. وفي عرفات كان للأطباء دور كبير في تفقد الأحوال الصحية بمرورهم على الخيام

ومعهم الإسعافات والأدوية اللازمة وقسم يظل في المخيم الخاص بالصحة يقدم كل ما يحتاجه المراجعون من المرضى.

كما عهدت هذه المصلحة إلى الشرطة الحجازية متابعة ومراقبة مصادر الماء في عرفات ولاسيما مجاري عين زبيدة حتى لا يعتدي عليها وتكون سبباً في أمراض لا حصر لها.

كما قامت الحكومة السعودية برش الشوارع بالماء المخلوط بالفينيك كل يوم عدة مرات للقضاء على الحشرات والميكروبات، فكان الحج في ذلك العام (1353هـ) خالياً من الأوبئة والأمراض والحمد لله.

وفي منى وفرت الحكومة السعودية مستشفى كبيراً وفيه الكثير من الأطباء ومزود بالأسرة الكثيرة والأدوية الوفيرة، وكذلك أوجدت مركزاً صحياً بجوار الجمرات الثلاث لتقديم الخدمات الطبية للحجاج في تلك المواقع حيث الازدحام الشديد ومظنة الإصابة بالأمراض.

وكان يساعد الحكومة السعودية في الإشراف على الأحوال الصحية الكثير من البعثات الطبية في مصر والشام والمغرب حيث كانت هذه الدول ترسل الأطباء وتوجد لها المخيمات في عرفات ومنى وجميع الاحتياجات الطبية(74).

وهكذا كانت الأحوال الصحية في الحجاز، وكان اهتمام الحكام الحجازيون والحكومات العربية الأخرى تعطي جل اهتمامها لصحة الحجاج وتسعى لخدمتهم طبياً وتسهيل كل ما يحقق لهم أداء هذه الشعيرة المقدسة في يسر وسهولة.

* * *

المحور الثالث

الهوامش والإحالات

(1) إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين، جـ 1، ص 201.

(2) الحاج عبدالعزيز صبري بك: تذكار الحجاز، ص 205.

وانظر محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية، 41-42.

(3) عباس متولي حمادة: مشاهداتي في الحجاز، ص 60.

(4) عبدالله محمد الحبشي: الرحالة اليمنيون، رحلة جغمان، ص ص 42-45.

وانظر: محيي الدين رضا: رحلتي إلى الحجاز، ص 108.

(5) عبدالله محمد الحبشي: الرحالة اليمنيون، رحلة يحيى بن المطهر، بلوغ المرام، ص 118.

وانظر: محيي الدين رضا: رحلتي إلى الحجاز، ص 108.

عباس متولي حمادة: سبق ذكره، ص 120.

(6) إبراهيم رفعت باشا: سبق ذكره، ص 203.

وانظر: عباس متولي حمادة: سبق ذكره، ص 114.

(7) محيي الدين رضا: سبق ذكره، ص 45.

إبراهيم عبدالقادر المازني: سبق ذكره، ص 45.

(8) انظر الرحالة اليمنيين: رحلة يحيى بن المطهر، ص 111.

(9) المرجع نفسه، 113.

وانظر: إبراهيم رفعت باشا: سبق ذكره، ص 204.

(10) إبراهيم المازني: سبق ذكره، ص ص 26-31.

محيي الدين رضا: سبق ذكره، ص 204.

(11) عباس متولي سبق ذكره، ص 27، ص ص 63-64.

إبراهيم رفعت باشا: سبق ذكره، ص 205.

(12) محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية، ص ص 42-44.

(13) عباس متولي حمادة: سبق ذكره، ص 48.

إبراهيم رفعت باشا: سبق ذكره، ص 206-207.

(14) عباس متولي: سبق ذكره، ص 48.

محمد لبيب البتنوني: سبق ذكره، ص 60.

(15) انظر الحاج عبدالعزيز صبري بك: سبق ذكره، ص 209.

محمد البتنوني: سبق ذكره، ص 60-61.

(16) إبراهيم رفعت باشا: سبق ذكره، ص ص 206-207.

محمد البتنوني: سبق ذكره، ص ص 61-62.

(17) عبدالعزيز صبري بك: سبق ذكره، ص ص 205-206.

عباس متولي: سبق ذكره، ص 48.

(18) انظر: رفعت باشا: ص 207.

صبري بك: ص ص 217-218.

محمد البتنوني: ص 61.

عباس متولي: ص 50.

(19) انظر: عباس متولي حمادة، ص 49.

محمد البتنوني: ص 61.

(20) محمد البتنوني: سبق ذكره، ص 254.

(21) المرجع نفسه، ص 62.

(22) عبدالله محمد الحبشي: الرحالة اليمنيون: رحلة يحيى بن المطهر، سبق ذكره، ص 107.

(23) محمد صادق باشا: الرحلات الحجازية، إعداد وتحرير، محمد همام فكري، ط 1، بدر للنشر والتوزيع، بيروت: 1999م، ص 201، ص 331.

(24) انظر: نضال داود المومني: الشريف الحسين بن علي والخلافة، لجنة تاريخ الأردن، مطابع الصفدي، عمان 1996م، ص ص 15-75.

(25) وانظر: محمد لبيب البتنوني: سبق ذكره، ص ص 73-81.

محمد لبيب البتنوني: سبق ذكره، ص 48-49.

وانظر: إبراهيم رفعت باشا: جـ 1، ص 204.

(26) إبراهيم رفعت باشا: سبق ذكره، جـ 1، ص 64، ص ص 79-85.

(27) عبدالله محمد الحبشي: الرحالة اليمنيون، رحلة جفمان، ص ص 166-167.

(28) المرجع نفسه، رحلة يحيى بن المطهر، ص 111.

(29) إبراهيم رفعت باشا: سبق ذكره، جـ 12، ص 105-106.

(30) الحاج عبدالعزيز صبري بك: مرجع سبق ذكره، ص 83.

(31) الإمام محمد رشيد رضا: مرجع سبق ذكره، ص ص 173-175.

(32) انظر: الحاج عبدالعزيز صبري بك: مرجع سبق ذكره، ص ص 84-93.

(33) محمد صادق باشا: الرحلات الحجازية: مرجع سبق ذكره، ص 392.

وانظر: محمد البتنوني: مرجع سبق ذكره، ص ص 87-91.

(34) محيي الدين رضا: رحلتي إلى الحجاز، ص 12، ص 115.

(36) المرجع نفسه، ص 50-51.

(37) إبراهيم عبدالقادر المازني: مرجع سبق ذكره، ص 50-51.

(38) محيي الدين رضا: مرجع سبق ذكره، ص 44-46.

(39) عباس متولي حمادة: مرجع سبق ذكره، ص ص 69-70.

(40) محمد لبيب البتنوني: مرجع سبق ذكره، ص ص 59-60.

(41) الحاج عبدالعزيز صبري بك: مرجع سبق ذكره، ص ص 186-214.

(42) انظر: محمد لبيب البتنوني: مرجع سبق ذكره، ص 355.

وانظر: عبدالعزيز صبري: سبق ذكره، ص 126.

(43) محمد لبيب البتنوني: مرجع سابق، ص ص 58-59.

(44) إبراهيم رفعت باشا: سبق ذكره، ص 423.

محمد لبيب البتنوني: مرجع سبق ذكره، ص 254.

الحاج عبدالعزيز صبري بك: مرجع سبق ذكره، ص 211.

(45) محمد لبيب البتنوني: مرجع سبق ذكره، ص 57-59.

(46) المرجع نفسه، ص 255.

(47) عباس متولي حمادة: مرجع سابق، ص 57-58.

وانظر محيي الدين رضا: مرجع سبق ذكره، ص 99.

(48) محمد لبيب البتنوني: مرجع سبق ذكره، ص 355.

(49) محمد بن حسين بن عقيل الشريف: المختار من الرحلات الحجازية، رحلة محمد حسين هيكل: في منزل الوحي، ص ص 1207-1209.

(50) محيي الدين رضا: مرجع سبق ذكره، ص 30.

(51) عباس متولي حمادة: مرجع سابق، ص 58.

(52) محيي الدين رضا: مرجع سبق ذكره، ص 30، 98.

عباس متولي حمادة: مرجع سابق ذكره، ص 59.

(53) محيي الدين رضا: مرجع سبق ذكره، ص 102.

إبراهيم عبدالقادر المازني: مرجع سبق ذكره، ص ص 58-60.

(54) انظر البتنوني: مرجع سبق ذكره، ص ص 11-13.

محيي الدين رضا: مرجع سبق ذكره، ص 37.

(55) الحاج عبدالعزيز صبري بك: مرجع سبق ذكره، ص 80-196.

(56) إبراهيم رفعت باشا: سبق ذكره، جـ 1، ص 186-196، ص ص 414-420.

(57) عبدالله محمد الحبشي: الرحالة اليمنيون: رحلة جفمان، ص 153.

الحاج عبدالعزيز صبري بك: ص 83.

محيي الدين رضا: ص 8.

(58) عباس متولي حمادة: مرجع سابق، ص 5.

(59) الإمام محمد رشيد رضا: مرجع سبق ذكره، ص 107.

وانظر: عباس متولي حمادة: المرجع السابق، ص 126-128.

(60) انظر مثلاً: حسن بن عبدالله الكاف، وهو يمني حج عن طريق المدينة المنورة وأحرم من ذي الحليفة، ص 116.

محمد صادق باشا: الرحلات الحجازية، ص 174.

عبدالله محمد الحبشي: الرحلات اليمنية، رحلات جفمان، 164.

(61) يحيى بن المطهر: مرجع سبق ذكره، ص 104.

إبراهيم رفعت باشا: مرجع سبق ذكره، جـ 1، ص 251.

وانظر: رحلة جفمان: مرجع سبق ذكره، ص 166-168.

(62) إبراهيم رفعت باشا: مرجع سبق ذكره، ص 30-35.

(63) عباس متولي حمادة: مرجع سابق، ص 51-52، ص ص 65-66.

(64) عبدالعزيز صبري بك: مرجع سبق ذكره، ص 209-210.

عباس متولي حمادة: مرجع سبق ذكره، ص 53-54.

(65) انظر: إبراهيم رفعت باشا: مرجع سابق، جـ 1، ص 40-41.

محمد صادق باشا: الرحلات الحجازية، ص 320-321.

(66) الإمام محمد رشيد رضا: مرجع سابق، ص 200.

إبراهيم عبدالقادر المازني: سبق ذكره، ص ص 90-94.

محيي الدين رضا: سبق ذكره، ص 37.

عباس متولي حمادة: سبق ذكره، ص 74.

(67) عبدالله محمد الحبشي: الرحالة اليمنيون: رحلة يحيى بن المطهر: سبق ذكره، ص 108.

(68) الإمام محمد رشيد رضا: سبق ذكره، ص 103.

وانظر: عباس متولي حمادة: سبق ذكره، ص 8.

إبراهيم رفعت باشا: سبق ذكره، ص 16.

(69) محيي الدين رضا: سبق ذكره، ص 24.

عباس متولي حمادة: سبق ذكره، ص 74.

(70) محمد لبيب البتنوني: سبق ذكره، ص 64.

(71) إبراهيم رفعت باشا: سبق ذكره، جـ 1، ص 53.

محيي الدين رضا: مرجع سبق ذكره، ص ص 104-105.

عباس متولي حمادة: سبق ذكره، ص 97.

(72) محمد لبيب البتنوني: سبق ذكره، ص ص 64-67.

(73) الحاج عبدالعزيز صبري بك: مرجع سبق ذكره، ص ص 94-132.

(74) محيي الدين رضا: مرجع سبق ذكره، ص ص 92-94.

عباس متولي حمادة: مرجع سبق ذكره، ص ص 68-69.

الإمام محمد رشيد رضا: مرجع سبق ذكره، ص 19.

الخاتمة

وبعـــد...

فقد عالج البحث في المحاور السابقة كثيراً من المسائل المتعلقة بالحج، ورؤية الأدباء/ والرحالة الذين دونوا مشاهداتهم أثناء رحلات حجهم إلى الديار المقدسة.

وقد لاحظنا - من خلال المحور الأول - القيمة الأدبية والتاريخية لكتب الرحلات الخاصة بالحج وبالذات من منطقة الدراسة (المشرق العربي) كما وقفنا على أهم كتب الرحلات وأبرزها بعد أن قمنا بتحليلها ودراستها وإيضاح العديد من معطياتها.

أما المحور الثاني فقد وقفنا على معلمين بارزين من خلال تلك الكتب التي أخضعناها للدراسة والتحليل، هما أهم طرق الحج سواء البرية أو البحرية من كل أقطار المشرق العربي إلى الحجاز وبين مدن الحجاز والمشاعر المقدسة. وفي هذا السياق تعرفنا على وسائل المواصلات التي كان يستخدمها الحجاج فمن الدواب والقوافل إلى البواخر والسيارات وهذا يعني الباحث في تطور المواصلات في منطقة الدراسة وتمشيها مع الواقع والبيئة الاجتماعية والتطور السياسي والاقتصادي.

وأما المعلم الثاني فقد ناقشنا من خلاله أبرز المصاعب والمشكلات التي كان الحجاج يعانون منها في الفترات السياسية التي عاشها

الحجاز آنذاك، فمن مشاكل ومصاعب الطريق وسوئه وبداءته وعدم تمهيده وتزفيته، إلى قطاع الطرق والمتسولين من أعراب البادية، إلى الأوبئة والأمراض التي يفاجأ بها الحجاج أثناء تأدية حجهم إلى غير ذلك من الصعاب التي تشكل هماً للحاج منذ عزمه على السفر وحتى عودته إذا كتب الله له ذلك.

وفي المحور الثالث ناقش البحث الجوانب الحياتية المتعددة لمناطق الحج من اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية ودينية وصحية، وفيها اتضح لنا أن منطقة الحجاز تتبلور فيها كثير من الطروحات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي نتجت عن واقعها السياسي المتشظي بين ثلاث فترات سياسية، فترة الحكم العثماني، وفترة الحكم الهاشمي، وفترة الحكم السعودي، وفي كل ذلك تحددت المعالم التي تبين شخصية الحجاز وسماته بين أقطار العالم الإسلامي.

ومن خلال هذه المحاور الثلاثة غطى البحث كل الجوانب التي رأينا أهمية إيضاحها وبيانها والتعريف بها.

والحمد لله رب العالمين.

الباحث

جدة..

شهر شوال 1422هـ

رحلة يمنية إلى البيت الحرام

«واحد وخمسون يوماً من صنعاء إلى جدة»(*)

الحج.. هذا الملتقى الإيماني.. والرحلة الحياتية المباركة، هدف يسعى إليه كل مؤمن مسلم يؤمن بالله رباً، وبالمصطفى صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، وبالإسلام ديناً ومنهج حياة.

كيف لا.. وهو الركن الخامس من أركان الإسلام وهو مقصد كل من عاش ونشأ وتربى مؤمناً مسلماً حنيفاً. إذ الفطرة الإنسانية المؤمنة جبلت على هذا، استجابة لدعوة أبينا إبراهيم عليه السلام.

لقد حظي بشرف هذه الرحلة الإيمانية المباركة كثير من الكتاب والمثقفين وأرباب القلم، الذين انصهرت قلوبهم بحب الله ورسوله، فلبوا داعي الله بفكرهم وعقولهم وأجسادهم حاجين، متأملين، كاتبين ومسجلين عن هذه الرحلة أسفاراً من الذكريات والمشاهدات والملاحظات، ودونوها في كتب أصبحت من أهم المصادر في (أدب الحج) للدارسين والمتطلعين إلى المعرفة.

(*) نشرت في مجلة الحج والعمرة، العدد الرابع، السنة السابعة والخمسون، جمادى الآخرة 1423هـ، أغسطس - سبتمبر 2002م، ص ص 26-31.

ومن هذه الرحلات نختار واحدة من أهمها وهي الرحلة الموسومة بـ (لغة المرام في الرحلة إلى البيت الحرام) لصاحبها العلامة اليمني يحيى بن المطهر.

الرحالة.. الشيخ والشاب:

يشير زبارة - وهو أحد كتّاب اليمن ونسّابتهم ومؤرخيهم - إلى التعريف بصاحب الرحلة فيقول: إنه «السيد العلامة الفهامة المجتهد يحيى بن المطهر بن إسماعيل بن محمد الحسني الصنعاني. مولده في جمادى الأولى سنة 1190هـ بصنعاء، وبها نشأ وتعلم على يد الكثير من مشايخ وعلماء عصره، كالسيد علي بن عبدالله الجلال، وسعيد بن إسماعيل الرشيدي والسيد إبراهيم بن عبدالقادر بن أحمد القاضي، وأخذ عن القاضي محمد بن علي الشوكاني، اشتغل بالتدريس له مؤلفات كثيرة منها: شرح على سنن النسائي، وعقد اللآلئ، شرح منظومة أيساغوجي للسيد علي بن عبدالله الجلال، والزبدة حاشية على العهدة، وحلية النحور وشفاء الصدور، والعطاء والمنن ذيل أبناء الزمن، والعنبر الهندي في سيرة الإمام المهدي» وكتابه الذي نحن بصدده: بلغة المرام..

قال عنه شيخه الشوكاني: «له سماعات كثيرة وشغلة تامة بالعلم وتقيد بالدليل ومحبة للإنصاف وله أبحاث ومسائل، وهو على منهج سلفه من البعد عن أعمال الدولة والتكفي بما خلفوه له، فيه علو همة ومكارم وسيادة وفي كل وقت يزداد علماً وفضلاً وحسن سمت ووقار».

وقال عنه أحد مترجميه: «لم يكن له شغل في غالب أوقاته بغير التحصيل والتدريس للطلبة يأتونه إلى مقامه المأهول بالعلم وأهله، فلا

يرد طالباً ولا مستفيداً في أي وقت من أوقاته، باذلاً كتبه لمن طلبها منه للاستفادة، مجبولاً على مكارم الأخلاق ومحاسنها سالكاً طريق الإنصاف...) وله اهتمام بالشعر مثل قوله:

العلم أشرف مطلوب لمنتقد
إذا تحرز فيه القصد للصمد

فذاك زين لصوان يدوم له
دوام لدن غصون الروض في الميد

كم للمعارف عند السعد من فنن
وكم لها من يد بيضا على العضد

توفى صاحب الترجمة في شوال عام 1268هـ وعمره ثمان وسبعون سنة، وقد حج مرتين أثبت أولاهما في كتابه الذي نحن بصدد التعريف به.

لقد ورد الحديث عن هذه الرحلة وما جاء فيها عبر منجز معرفي يمني يهتم بالرحلات والرحالة وهو كتاب الرحالة اليمنيون، لمؤلفه عبدالله الحبشي، صدرت طبعته الأولى عام 1409هـ/ 1989م.

وقد أفرد لهذه الرحلة مساحة من الكتاب نظراً لأهميتها وأهمية صاحبها، ونحن هنا نعرف بها انطلاقاً من تلك الأهمية التي يمكن تأطيرها ضمن النقاط التالية:

1 – أنها لازالت ضمن المخطوطات اليمنية التي لم تحقق بعد.

2 – أنها تمت في وقت مبكر من عمر صاحبها فهو لم يكن يتجاوز الواحد والعشرين من العمر عندما قام بها سنة 1211هـ وميلاده كان في عام 1190هـ.

3 – أن تسجيلاته وملاحظاته أثناء الرحلة دقيقة جداً ويسعى إلى التعبير عنها بالكلمة والصورة من خلال رسمه بيده مثل السفن، والمسجد الحرام، والكعبة المشرفة، والمقامات وغيرها.

ومن خلال هذه الأهمية يمكن المداخلة مع هذه الرحلة المباركة (رحلة الحج) ضمن المحاور التالية:

- الطريق الذي سلكه الرحالة ووسائل المواصلات والمصاعب التي صادفها.
- وصفه للمشاعر المقدسة وشعيرة الحج وزيارة المدينة المنورة.
- استنتاجات ختامية.

طريق المصاعب:

في الحادي عشر من شهر شوال من عام 1211هـ وفي الساعة الثانية صباحاً وكان التوقيت حسب غروب الشمس، كما هو متعارف عليه سابقاً أي ما يقارب الساعة التاسعة بالتوقيت الزوالي، خرج صاحبنا من مدينته صنعاء قاصداً حج بيت الله الحرام، وكان في بادئ الأمر محتاراً أي الطرق يسلك البرية أم البحرية، وأيهما أنسب، وراح يسأل الناس المجربين.. «فتشعبت الأخبار والآراء».. كما يقول.

والمعروف أن طرق الحج من اليمن قديماً قد ذكرها الجغرافيون، فإما أن تكون برية وهي الأكثر استخداماً في أول الأمر، وتنقسم إلى قسمين: قسم ساحلي بمحاذاة البحر الأحمر، أي تهامة اليمن فتهامة عسير، فتهامة الحجاز حتى يصل إلى مكة. والقسم الداخلي أي عبر الجبال والسهول الشمالية الغربية لليمن ثم منطقة جبال عسير ثم النزول إلى الحجاز مروراً بالطائف.

وإما أن تكون بحرية والتي تبدأ من الحديدة إحدى المدن الساحلية في اليمن، فكمران، فالحمضة، فالقنفذة، فالليث ثم جدة ثم إلى مكة المكرمة، كما في بعض الرحلات اليمنية السابقة أو اللاحقة لصاحب هذه الرحلة، أما في بعض الرحلات الأخرى فيعبرون كثيراً من المدن الساحلية مثل بحيص، والحنة، والبرك، وحلي أو يعبرون جازان مثلاً.

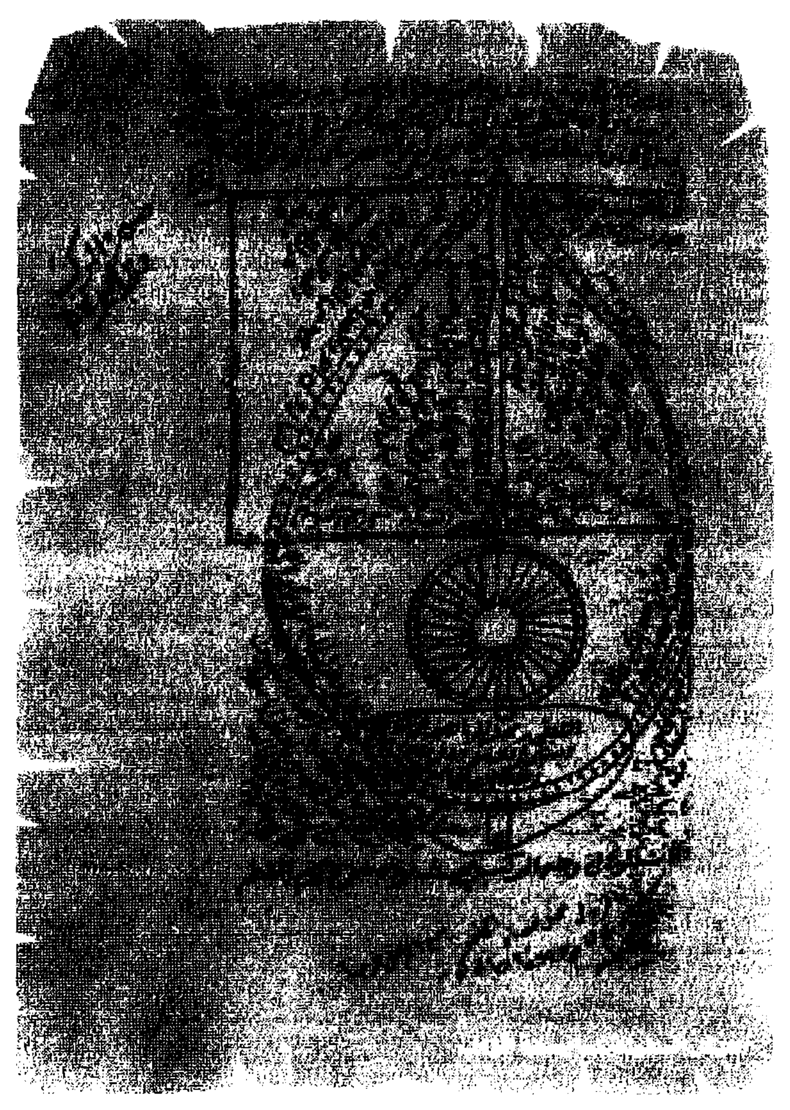
وبعض الحجاج اليمنيين الذين يسلكون الطريق البحري ينزلون في ميناء القنفذة بدلاً من جدة، ثم يسلكون طريق البر ويمرون على المواضع والأمكنة التالية: الأحسبة، دوقة، الشاقة الأولى، وادي الأراك، الليث، الخضراء، السعدية، البيضاء، وأخيراً مكة المكرمة.

ولسوء حظ المؤلف أو لحسنه، اختار طريق البحر، فعانى من جراء ذلك ما ذكره في رحلته، وأن اختياره هذا قد عرّفه على الكثير من الخبرات والمعارف التي أشار إليها أيضاً.

لقد استغرقت رحلة صاحبنا هذا من صنعاء إلى أن وصل الحديدة حوالي أسبوع، حيث يذكر أنه وصل (شجينة)، وهي موضع قريب من الحديدة وفيها شعر برطوبة البحر وانزعج منها حتى كأن ما علينا من الثياب مغسولة لشدة الخضرة (الرطوبة) فقال لنفسه «إذا كان هذا في البعد عنه كيف في القرب منه».

وفي الحديدة يمكث صاحبنا حوالي اثنى عشر يوماً تمكن خلالها من التجول فيها والتعرف على أحوالها وأحوال أهلها والتقى بحاكمها الذي كان يحتفي بالحجاج ويقضي حوائجهم، وقدم رحالتنا عن الحديدة وصفاً جميلاً ووصف المراكب الراسية في مينائها وصف

المستغرب المذهول ويسجل رسماً بيده لإحدى السفن الشراعية (كما هو مبين أدناه) ولعلها السفينة التي استقلها كوسيلة مواصلات في رحلته.



ومن الحديدة يصل إلى جزيرة كمران، التي يصفها ويصف بيوتها وحالة أهلها المعيشية والاجتماعية، ثم يجاوزها إلى جزيرة الحمضة، وهي مأنوسة ماؤها حلو، وترابها يضرب إلى الحمرة ثم يرحل حتى ينزل في الليث ويعاني من البحر وأمواجه ما جعل رحالتنا يفرد حديثاً تفصيلياً عن هذه المشكلة.

وأخيراً يصل رحالتنا إلى جدة يوم الأحد ثاني شهر ذي الحجة، أي أن رحلته من صنعاء حتى جدة قد استغرقت حوالي شهراً واحداً وعشرين يوماً.

وبعد يوم واحد في جدة يسافر إلى مكة يوم الاثنين الثالث من شهر ذي الحجة دون أن يذكر وسيلة السفر ولا المصاعب التي صادفها. وعندما بدأ أول أيام النسك وهو صعود يوم عرفة امتطى صاحبنا ذلولاً سريعاً لكنه بين المشاعر لا يذكر وسيلة للمواصلات وربما كان المشي هو الأولى في هذه الحالة، لاسيما وأنه يذكر الزحام الشديد أثناء النفرة من عرفات إلى مزدلفة وأثناء الخروج من مزدلفة إلى منى والوقت الذي قضاه في هذه المسافة.

إلى المدينة على ظهور الإبل:

وما إن انتهى من مناسك الحج عزم على السفر إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد المصطفى صلى الله عليه وسلم وأعد للأمر عدته فكانت وسيلته للسفر الجمال رغم الغلاء الفادح الذي يظهره الجمالة لتأجير جمالهم.

وقد كان سفر رحالتنا إلى المدينة يوم الثلاثاء التاسع عشر من شهر ذي الحجة ويصف الطريق والمراحل التي مر بها والمصاعب

التي عاناها كالحر الشديد، وكان وصوله إلى المدينة النبوية غرة شهر محرم 1212هـ، أي ما يقارب عشرة أيام أو أحد عشر يوماً.

وبعد الزيارة والتجول في أنحاء المدينة التي استمرت ثلاثة أيامٍ يعود صاحبنا من المدينة يوم الخميس الثالث من شهر محرم متوجها إلى جدة حيث يصل إليها يوم الاثنين الرابع عشر من الشهر نفسه.

العودة البحرية:

وبعد إقامة قصيرة في جدة يعود رحالتنا ورفاقه إلى اليمن عبر البحر، مارين بالقنفذة حيث أقاموا فيها ثلاثة أيام ثم واصلوا سيرهم في معاناة من البحر وأمواجه والرياح العاتية وضياع الربان عن وجهته المقصودة حتى سئم الناس، يقول الرحالة: «وأما في آخر الأيام فحصل ما شوش الخاطر، حيث إن من عليهم التسيير ضلوا ولم يعلموا أين هم ومازالوا يتعرفون أين هم بالنظر والصعود إلى أعلى الدقل حتى غلبهم الظلام ثم تركوا المركب يذهب بشأنه وخطر ذلك عظيم فربما صادم جبلاً».

واستمر الخوف بصاحبنا ورفاقه على ظهر السفينة حتى أسفر الصباح عن مفاجأة سارة يقول الرحالة: «وبات الناس في ليلة شديدة الوحشة وأرق الأكثر حتى أضاء الصباح وإذا ببندر اللحية قد لاح... وحصل من السرور بالسلامة ما لا مزيد عليه».

ويغادر صاحبنا اللحية نهاية شهر محرم عن طريق البر وحصل له «من الشر ما لا مزيد عليه حتى وصلنا مدينة صنعاء المحروسة وذلك في آخر نهار الخميس لعله عاشر صفر سنة 1212هـ».

من هنا نستنتج ما يلي:

1 - أن طريق الرحلة من صنعاء وحتى جدة كان بطريق البحر عبر الحديدة إلى كمران، ثم الحمضة، ثم الليث، ثم جدة.

2 - أن صاحبنا لم يركب البحر ولا السفن قبل هذه المرة بمعنى أنها المرة الأولى التي يسافر فيها خارج صنعاء وعبر البحر والسفينة.

3 - أنه عانى من مصاعب البحر وركوب السفن الشيء الكثير، لكنه في سبيل الحج تحمل كل ما حصل له.

4 - أن رحلته من صنعاء إلى جدة استغرقت حوالي (51 يوماً)، أي شهراً وواحداً وعشرين يوماً.

5 - أن وسائل المواصلات كانت السفن، من اليمن إلى جدة. والقوافل/ الجمال من جدة إلى مكة ومن مكة إلى المدينة المنورة والعكس.

6 - أنه سجل بدقة كل ما شاهده وما عاناه عبر رحلته مما يجدر الاطلاع عليه والتعريف به.

المدينة الكئيبة:

لم ينس صاحبنا الرحالة أن يصف كل ما يقع عليه عينه منذ وصوله إلى جدة وسفره إلى مكة وقضاء مناسك الحج ثم زيارته المدينة المنورة، ويبدو لنا من خلال ذلك أنه دقيق الملاحظة، صاحب نظر ثاقب يزن الأمور ويقدر لها قدرها.

فأول ما نزل جدة وصفها وصفاً دقيقاً يدل على حالته النفسية المتعبة من هم السفر بحراً وما لاقاه من مصاعب. فيقول عن جدة إنها «أخذت من كآبة الدنيا بأوفر نصيب ولا أقدر أصف شيئاً مما هي

مشتملة عليه». وهي مدينة كما يقول: «عليها شمائل التأسيس والقوة والدور الشامخة ودارها قد صار متهدماً وثمة في الفرضة مدافع على اختلاف في الكبر متروكة هملاً». ويطالب سكانها بإصلاح هذه المدينة.

ويشتكي من عمال الميناء في جدة الذين لا يتورعون عن شتم حجاج اليمن والوقوع في أعراضهم ويفحشون عليهم بالقول حتى سمع من يقول: «يا أهل اليمن ما يدخل بكم الحرمين الشريفين تنجسونهما يا أنجاس يا أرجاس وغير ذلك مما يسود صحائفهم».

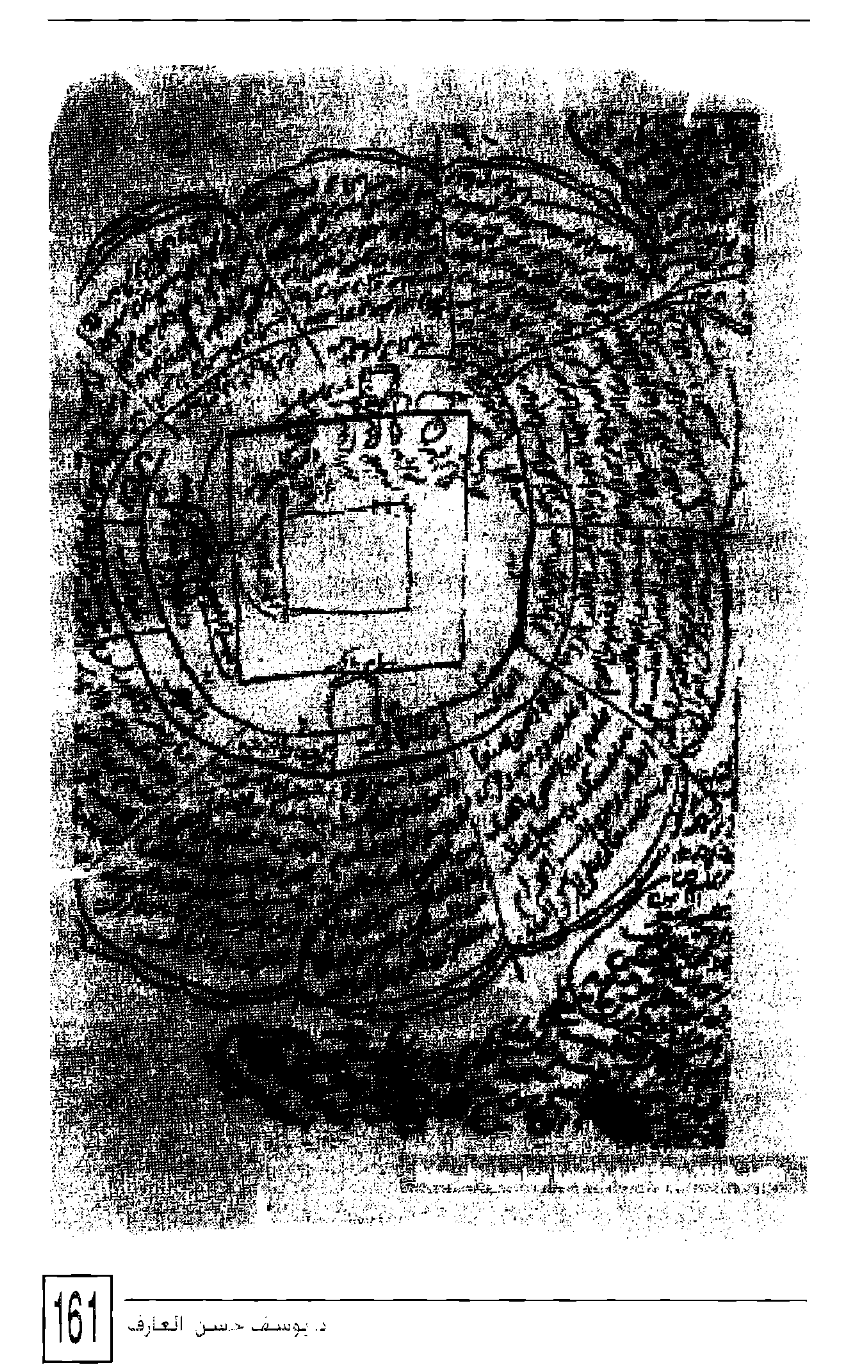
لحظات في الجنة:

وعندما يصل إلى مكة المكرمة ويشاهد البيت الحرام والكعبة المعظمة يشعر بخشوع ومهابة ويستطيع وصفها فيقول: «وأما حالة القدوم ومشاهدة البيت الحرام فهو أمر عظيم، يأخذ بمجامع القلوب جلالة ومهابة يظن الرائي كأنه في الجنة، لاسيما إذا كان القدوم ليلاً».

ويلاحظ القارئ لهذه الرحلة هنا وصفاً دقيقاً للكعبة المشرفة مع قياس لمساحتها طولا وعرضا وارتفاعا وكسوة ويقدم لنا رسما يدويا لهذا الوصف الذي ذكره مع تعريفات لما يحيط بالكعبة من أبواب ومقامات.

(حسب الصورة المرفقة في الصفحة التالية)

ثم يصف القناديل التي تضيء الحرم ليلاً والمآذن ويسميها صوامع وعددها سبع، ويشير إلى حمام الحرم الأمن الذي لا يروع.



كما يصف الحرم وأبوابه الثمانية والثلاثين، والمقامات الأربعة وأماكنها في الحرم فيقول: «إن بئر زمزم عليها مقام الشافعي من جهة الشرق، ومقام الحنفي من جهة الشمال، ومن جهة اليمين مقام المالكي، ومن جهة الغرب مقام الحنبلي، وأقوى المذاهب الحنفي وهو مذهب سلطان الإسلام».

وهنا يعترض مؤلف الرحلة على هذه المقامات وطريقة صلاة كل فئة منها في الحرم حيث يبدأ الأحناف ثم الشافعية ثم المالكية، ويعتبر ذلك من البدع الداعية إلى تفريق المسلمين، ويقف هنا وقفة استغراب وتهكم فيقول: «إن أحد رفاقه سأل رجلاً من أهل اليمن عن مقام الزيدية أين يكون فقال له: لا أعلم ولكن إذا رأيت أن تستأجر لنا مقام الحنبلي»، وذلك لأن مقام الحنبلي ليس له جماعة ولا تقام فيه الصلاة !!.

وأثناء الصعود إلى عرفات يصف رحالتنا المواكب التي شاهدها والمشاكل التي صاحبها ولعل أبرزها هنا ما حصل لقوافل الحجاج اليمنيين أثناء الصعود إلى عرفة مساءً حيث نهبوا من قِبَل قطاع الطرق.

والغريب هنا أن رحالتنا هذا ومجموعة كبيرة من حجاج اليمن قد وقفوا بعرفات يوم التروية المصادف ليوم الأحد حيث كان الشك في يوم عرفة هل هو يوم الأحد أم يوم الاثنين، لكن رحالتنا وقف يوم الأحد احتياطاً فنجده يقول في هذا السياق: «بتنا في مكة المشرفة وعزمنا طلوع عرفات ليلة الأحد المتردد في تاريخها ثامن أو تاسع الشهر»..

إلى أن يقول: «وكان الوقوف يوم الأحد احتياطاً والوقوف الأعظم يوم الاثنين وما أحسن من احتاط في مثل هذا المقام فإنه انكشف أن الوقوف حقاً يوم الأحد لشهادة قامت في المدينة المشرفة ونحوها أقيمت شهادة بمكة...».

ونلاحظ هنا محبة صاحبنا الرحالة لأهل مكة وثناءه عليهم بالخير، حيث يصفهم بأنهم «على حالة حسنة وفيهم ممن عليه ملابس التقوى والعرفان وفيهم الأعلام أهل التحقيق، والسنة النبوية فيهم ظاهرة»، ولكنه يستثني بعض أهل مكة الذين يصفهم بالجهل، إذ يقول «لولا جماعة من الطغام لا يفرقون بين الناقة والجمل والأحوال المنكرة».

نصّاب في الحرم:

ومن الملاحظات الطريفة التي يوردها صاحبنا الرحالة اليمني، ما حصل من أحد الحجاج الذي يوهم الناس أنه من الأغنياء وذوي الجاه ويغشهم بذلك في حرم الله فكشف أمره من قِبَل أناس يعرفونه وقاموا بضربه بالنعال على مرأى من الناس جزاء ما اقترفه من سلوك.

وفي نفس الوقت نجد أن الرحالة يناقش مسألة دينية غاية في الأهمية وتمس عقيدة المسلم وهي الاعتقاد في الأولياء والصالحين والدعاء بهم، وهذا شرك بالله حيث يقول تعالى: ﴿... **فلا تدعوا مع الله أحداً**﴾.

ويصف موكب الشريف غالب - حاكم مكة آنذاك - في عرفات والإفاضة إلى مزدلفة ومنى فيقول: «إنه وصل إلى العلمين في أبهة

كبيرة» وأثناء الإفاضة يقول عنه «وخرج الشريف غالب عند إرادة الإفاضة قبيل الغروب في عصابة مليحة وهيئة حسنة وهو محرم متجرد إلا في ثوبي إحرامه، وعليه قرع (يعني أصلع الرأس) وعليه ظلة أنيقة وليست بكبيرة وقد أعد لحملها رجلاً من عبيده».

ويقف رحالتنا عند ظاهرة التدخين في مكة حيث يقول: «ولا خشية عندهم - يعني أهل مكة - في استعمال التتن (التبغ - الدخان) يستعمله الشريف والوضيع كسائر المباحات. وفي ديارنا (يعني اليمن) يختلف الحال فيه وفي نشقه فعند بعضهم حرام وبعضهم يتجنبه تقشفاً وهو عنده مباح.

ألعـاب ناريـة:

ويصف الشريف غالب بالظلم والجبروت والإسراع في إزهاق الأرواح البريئة «وجيء بجماعة قيل اتهموا بسرقة فضبطهم الشريف غالب بالحديد وعند وصوله مكة أمر بضرب أعناقهم وكانوا أربعة، وصُلبوا على باب داره يمر بهم الخاص والعام للإرهاب».

وفي رأيي فليس هذا ظلماً ولا جبروتاً ولكنها مقتضيات الحالة الأمنية التي يريد الشريف غالب أن يؤكدها في أيام الحج، وهو القضاء على المفسدين الذين يسرقون وينهبون الحجاج. ولعل ذلك القتل كان بحكم شرعي لم يتنبه له رحالتنا هذا.

ويكمل رحالتنا وصف حالة المبيت في مزدلفة والوصول إلى منى ورمي الجمرات وإنهاء مناسك الحج، لكنه يقف بنا عند أيام منى وما يكتنفها من سعادة وسرور وبهجة حيث النعم المتوافرة والبضائع المتعددة الأجناس، فمن مصرية إلى شامية إلى محلية حجازية.

ومما شاهد من مظاهر الزينة في منى تلك القناديل المتنوعة والتسليات المبهرة والألعاب النارية التي أذهلت صاحبنا فجاء وصفه لها ممزوجاً بالإعجاب والانبهار. ويقول في هذا السياق: «ويرسلون الفشاش والطلاعات وأشياء أخرى تشبه القمر محكمة التدبير، له ارتفاع وإنارة تستقر في السماء حيناً ثم تبلى، وصورة أشجار بغصون مع تدوير الأطراف كالأزاهير من نار ترتفع ثم تبلى الأغصان حتى تكاد تقع على الأرض ثم تقرح كالبندقية».

الطريق إلى المدينة:

وفي نهاية مناسك الحج وبالتحديد في اليوم التاسع عشر من شهر ذي الحجة يغادر صاحبنا إلى المدينة المنورة، حيث تكون وسيلة المواصلات هي الجمال التي تزيد أسعارها في هذه المناسبات واستغرق في سفره حوالي عشرة أيام، حيث كان وصوله غرة محرم 1212هـ.

والغريب هنا أن صاحبنا لم يتعرض في طريقه إلى اللصوص أو قطاع الطرق أو المتسولين الذين أفاضت كتب رحلات الحج في وصفهم، مما يدل على أن تلك الفترة المبكرة التي حج فيها ليس فيها مثل هذه المعاناة، بل على العكس نجده يمدح العربان الذين ينزل عندهم ويثني على قبائل حرب، ومنهم بيت عيرار أهل الحسينية وبيت ضيغم أهل الصفراء ويصف بلادهم بطيب الهواء فيقول «وما رأيت أحسن من هذين المحلين في تلك الطريق وأما سائر المحلات فخبوت ورمال».

وما إن وصلت الجمال إلى مشارف المدينة حتى اشتد نشاطها وزادت قوتها استشعاراً واستئناساً بالمحل الذي ستصل إليه وهي أرض النبوة، ولا ينسى صاحبنا وهو يزور المدينة المنورة أن يقدم لنا وصفاً دقيقاً للحرم النبوي وقبر المصطفى صلى الله عليه وسلم وقبري

صاحبيه رضي الله عنهما، فيقول: «إن طولٍ الحرم المدني ثلاثمائة وخمسة ذراعاً وعرضه مائة وخمسون ذراعاً وأبوابه أربعة وما بين القبر والمنبر - وهي الروضة - أربعة وعشرون ذراعاً وطول قبر النبي صلى الله عليه وسلم أربعة عشر ذراعاً والمنارات ثلاث».

كما يصف أهل المدينة ويقول عنهم: «فيهم من مكارم الأخلاق والتحافة وحسن التأديب واللطافة ولين العريكة وصدق المودة والسجايا العجيبة والشمائل النجيبة ما رق وراق وجاء كعرف المسك وفاق».

وقد تجول صاحبنا في أنحاء المدينة فوصف بساتينها ونخيلها ومتنزهاتها ومشاهدها وجبالها وآثارها التي وقف عليها، وذلك خلال ثلاثة أيام هي مدة الزيارة، حيث يسافر صاحبنا عائداً إلى جدة يوم الخميس الثالث من محرم، ويكون وصوله يوم الاثنين الرابع عشر من محرم.

ومن جدة يغادر إلى بلاده عن طريق البحر حيث وصل إلى صنعاء في يوم الخميس العاشر من شهر صفرٍ عام 1212هـ أي بعد رحلة طويلة استمرت حوالي ثلاثة أشهرٍ وواحداً وعشرين يوماً، وهذا يعطينا فرصة للمقارنة بين الحج قديماً وحديثاً والتسهيلات الكبرى التي قدمت للحجاج حتى لا يشعروا بأية مشكلة أو تعب فرحلة الحج كلها في هذه الأيام لا تستغرق أسبوعاً لمن يتعجل.

ومن خلال ذلك كله نستنتج ما يلي:

1 - أن صاحبنا الرحالة، دقيق الملاحظة، وصاحب نظرة ثاقبة يزن الأمور ويقدرها قدرها، وصاحب ذاكرة لا يفوتها التقاط الصور الواقعة ويصوغها في لغة راقية وأسلوب بياني رائع ومقبول.

2 - أنه شديد الانتماء لموطنه (اليمن) ولا يرضى على نفسه ولا على رفاقه من الحجاج أي إهانات أو شتائم.

3 - تبدو المشاعر الإيمانية الصادقة والدين المتعمق في النفس من خلال وصفه لمشاهد الحرم الشريف والكعبة المعظمة والمشاعر المقدسة والحرم النبوي ووقوفه عند البدع والشركيات ونقده لها واحتياطه للوقوف بعرفة يوم التربوية الذي شهد فيما بعد بأنه يوم عرفة، ورؤيته في التدخين.

4 - أن لديه بعداً سياسياً ووطنياً وثقافة سياسية قومية حيث يثبت في رحلته مجموعة من القضايا السياسية المعاصرة التي حصلت في أقطار عالمنا الإسلامي ويعلق عليها.

5 - أن هذه الرحلة تمثل صفوة الكتابات اليمنية في هذا المجال ومن بواكير الأعمال التي توثق لمسيرة الحج اليمني في فترة مبكرة من الحكم العثماني في اليمن والحجاز.

استنتاجات ختامية:

ومن خلال هذه الرحلة يتضح لنا مجموعة من الأوضاع المعيشية في مناطق الحجاز سواء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية.

ففي المجال السياسي: يتضح أن صاحبنا هذا قد حج في الفترة العثمانية المبكرة. ففي عام 1211-1212هـ كانت منطقة الحجاز تحت الحكم العثماني أيام السلطان سليم الثالث، لكن ولاية المنطقة كانت في يد الأشراف، حيث كان الشريف غالب بن مساعد هو والي مكة وحاكمها.

وقد مر معنا سابقاً كيف يصف رحالتنا مدينة جدة عندما وصلها بحراً. وهنا نذكِّر بالحالة السياسية التي أشار إليها من أنها في حالة يرثى لها من الفوضى والإهمال وجبروت الحكام وإن كان فيها من آثار الماضي ما ينبئ عن أمجاد عظيمة.

ويصف معاملة جنود الشريف غالب للحجاج اليمنيين البالغة السوء رغم أنه يحمل توصية من عامل الحديدة إلى والي جدة. لكن هذا الأخير لم يقدم ما كان يأمله صاحبنا الرحالة، مما يدل على عدم التنسيق السياسي بين ولاة الدولة العثمانية سواء في اليمن أو الحجاز.

ومما يدل على الفكر السياسي لدى مؤلف هذه الرحلة متابعته لأحداث العالم آنذاك، فقد بلغه أن الفرنج قد دخلوا الديار المصرية، وفي ذلك إشارة إلى الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت على مصر والتي تمت في ذلك العام وأشارت إليها كتب التاريخ.

ونختم الحالة السياسية بحديثه عن المحمل المصري الذي شاهده في مكة المكرمة، وقابله في الطريق إلى المدينة المنورة ويقارن بينه وبين المحمل الشامي. لكنه يصف المحمل المصري بشيء من الدهشة والإعجاب، وكونه يحمل هدية الوالي العثماني في مصر إلى ولاية الحجاز وخاصة الحرمين الشريفين من كسوة وهدايا وصدقات ومصاحف.

وفي المجال الاقتصادي، نلمح في هذه الرحلة كثيراً من الرؤى الاقتصادية، فهناك إشارات عن الأسعار والأطعمة والأسواق والبضائع فيصف ذلك بقوله: «أما أخبار الموسم فذكر أهل الاختيار أن البضائع

ضعيفة قليلة وأما الطعام وغيره فموجود وأسعاره مليحة، قدح الحنطة بقرش، والذرة قدح ونصف بقرش فرنسي، وإن كان القمح عندهم ليس المعروف بصنعاء... كذلك السمن يأتي بالقرش الحجر أربعة أرطال، والعسل خمسة أرطال، والرأس الغنم بثمن قرش».

كما يصف حالة اليمن الاقتصادية عندما غادرها للحج فيقول: «إن أهل اليمن كانوا في أشد حالة قد اجتمع عليهم مشقة العدم وارتفاع الأسعار ارتفاعاً مجاوزاً بلغ قدح الحنطة خمسة قروش حجراً، وقدح الطعام أربعة قروش، وقد نضبت الآبار والغيول وحصل موت كثير، وكثر موت الدواب في الطرقات من الجوع..».

وأما في المجال الاجتماعي، فإنه يصف المجتمع في جدة ويذكر قبر السيدة حواء، فيقول إنه قبر مستطيل عريض وطويل إلى أقصى غاية. وفي مكة يلاحظ ظاهرة اجتماعية لا يستسيغها وينكرها على المجتمع الحجازي وهي مزاحمة السقاة والباعة للحجاج في الحرم، حيث يدخلون دوابهم إلى زمزم يستقون منها وينتهكون حرمة الحرم بذلك ويحصل منهم ارتفاع الصوت في البيع والشراء «وهذه مسائل يتوجه الكلام عليها والنكير».

كما يصف البدع والمنكرات التي تحصل في المقامات الأربعة الموجودة في الحرم وذلك أثناء الصلاة كما مر معنا في المحور الثاني، وقد اعتبرها رحالتنا من البدع التي تفرق بين جماعة المسلمين «وهذا مما يدعو الناس إلى التفرق المنهي عنه وتعدد الجماعات خصوصاً في صلاة المغرب بدعة مجمع على كراهيتها بل تحريمها».

وقد مر معنا أيضاً أنه وصف المجتمع المكي بأن أهله من أهل الخير والصلاح وعليهم ملابس التقوى والعرفان.

أما أهل المدينة فيصفهم صاحبنا بأنهم يتميزون بمكارم الأخلاق والتحافة وحسن التأديب واللطافة.

وبعد فهذه إحدى رحلات الحج اليمنية، وجدنا فيها من الدقة والشمولية وبُعد النظر وحسن اللغة والأسلوب ما يجعلها تستحق الدرس والتحليل والتعليق.

والحمد لله رب العالمين !!

جدة 1423هـ



الإمام محمد رشيد رضا في الحجاز

من 25/ القعدة إلى 16/ الحجة 1334هـ(*)

تمهيـد:

... «أما بعد فإن ركوب الألوف من المسلمين لمتون البحار ، وجذبهم من أقصى المغرب والمشرق لأداء الحج في هذا العام ، يصح أن يعد من تأييد الله تعالى للإسلام، ومن المعجزات الدائمة لخليله إبراهيم، ومحمد عليهما السلام، ومصداقاً لحديث «إن الله سيؤيد الإسلام برجال ماهم من أهله».

«أوليس خذلانه - جلت قدرته - لحكومة الاتحاديين الملحدين، بما أقدموا عليه من التنكيل بالعرب وانتهاك حرمات الدين، وتوفيقه - عمت رحمته - لأمير مكة ومن معه من المسلمين بالخروج على البغاة المارقين، وتسخيره - بهرت حكمته - لدولتى الفرنسيين والبريطانيين الكتابيين بحمل الحجاج من الغرب والشرق إلى البلد الأمين أليس هذا كله أقداراً تتابعت، وأسراراً تشايعت، فانجلت عن استجابته سبحانه وتعالى لدعوة إبراهيم خليله ، وإحياء شريعة

(*) نشرت في مجلة الحج والعمرة، العدد الثامن، شعبان 1427هـ، السنة الحادية والستون، ص ص 40-43.

محمد عبده ورسوله ، بعدما كان يظن أن أسباب الحرب الظاهرة حالت دون تلك الدعوة الطاهرة»[1].

بهذه الفضاءات السياسية والانبثاقات التاريخية يفتتح الإمام محمد رشيد رضا حديثه الموثق عن رحلة الحج التي قام بها من مصر إلى الأراضي الحجازية في عام 1334هـ/ 1916م والتي نشر معطياتها وفعالياتها وذكرياتها في مجلته الشهيرة «مجلة المنار» عبر الجزئين التاسع عشر والعشرين في تسع حلقات.

ولأهمية هذه الرحلة وقيمتها الفكرية والتاريخية ولأهمية صاحبها الإمام الإصلاحي الكبير محمد رشيد رضا، ولأهميتها أيضاً في سياق الرحلات الحجازية التي جاءت في فترة سياسية عصيبةٍ من الفترات التي مرت بها أمتنا الإسلامية ومنطقة الحجاز تحديدا.

لكل ذلك نسعى - من خلال هذه الدراسة - إلى تقديم صورة متكاملة عن هذه الرحلة وذكرياتها ، والتعريف بصاحبها وماشاهده وسجله من أمور غاية في الأهمية وذلك عبر المحاور التالية:

أولاً: التعريف بصاحب الرحلة:

إذا ذكر الإصلاح والمصلحون والعلماء المجتهدون والأدباء والمفكرون.. تراءى لكل ذي لب ومعرفة الإمام العلامة والثبت الفهامة الشيخ محمد رشيد رضا.. شامي المنشأ والولادة، مصري العمل والإقامة، صاحب «المنار» المجلة الرمز، والمجلة الفكر، والمجلة العلم !

رائد مصلح ، نذر نفسه للعمل في الإصلاح والدعوة إليه وإحداث التغيير الايجابي في المجتمع المسلم. ولد في العام 1865م في قرية

قلمون بديار الشام ونشأ وترعرع ودرس في معاهدها ومدارسها، وتتلمذ على يد مشايخ عصره حتى بز أقرانه وظهرت معالم نبوغه.

في بيروت التقى بالداعي إلى الإصلاح في ذلك الزمن الشيخ محمد عبده وتأثر بأفكاره الإصلاحية حتى غدا متشرباً بنفس الفكر ومضيفاً إليه من المعاصرة والتجديد ماتحتاج إليه دعوات الإصلاح المستنيرة.

وفي نفس الفترة حاول الالتقاء بالمفكر الإسلامي والإصلاحي البارز الشيخ جمال الدين الأفغاني ولم يتمكن من ذلك، ولكنهما تعارفا وتواصلا عن طريق الرسائل فكان الفتح والتمكين لكليهما.

وفي نفس الفترة تتلمذ على فكر ابن تيمية والشيخ محمد ابن عبدالوهاب ومجايليهم من أصحاب الرأي والفكر والنزعة الإصلاحية.

انتقل الإمام محمد رشيد رضا إلى مصر ، حيث اتخذها مقاماً وسكناً، وفي الإسكندرية بدأت ملامحه الإصلاحية تظهر شيئاً فشيئاً على مستوى التفكير والإنتاج فأسس وأنشأ مجلة المنار وصدر منها العدد الأول عام 1898م وقد وضع لهذه المجلة أهدافاً ركزت على الإصلاح الديني والاجتماعي للأمة الإسلامية ، والسعي إلى بيان الميزه التي يمتاز بها الإسلام كدين يتفق مع العقل والعلم ومصالح البشر ، وأن العصور المتأخرة قد أتهمت في تلبيس الإسلام بمزيد من الشبهات والخرافات التي أصبحت عند كثير من الناس جزءًا من الدين الإسلامي، ولم يمض خمس سنوات من عمر المجلة حتى أصبحت علَماً ومنَارا وموئلاً لالتقاء المفكرين والعلماء المسلمين .

ومن خلال هذه المجلة فرَّغ الإمام محمد رشيد نفسه للدرس والتأليف والنشر ومراسلة علماء عصره واستكتابهم، وكاتب الحكام والعلماء ووجه إليهم رسائله لأنه يعتبرهم العقول المدبرة والروح المفكرة في الأمة وأن إصلاحهم صلاح للأمة.

وفي القاهرة أنشأ مدرسة للدعوة والإرشاد/ سنة 1982م لتخريج الدعاة والمرشدين الذين يتولون وعظ الناس وإرشادهم لتصحيح مفاهيم العقيدة الإسلامية.

وصفه علماء عصره بأنه كان متعدد المواهب فهو الكاتب البليغ والمفسر النابغ، والمحدث المثقف والأديب اللغوي، والخطيب المفوه والمعلم المربي والسياسي المتطلع إلى إصلاح أمته وحل قضاياها.

ومما أثر عنه من أفكار إصلاحية، التقريب بين المذاهب الإسلامية، وإزالة الخلافات، ونادى بتأليف كتاب يضم جميع ما اتفقت عليه الفرق الإسلامية في مسائل الاعتقاد وتهذيب الأخلاق وإحسانٍ العمل والإٍبتعاد عن مسائل الخلاف. ويكون هذا الكتاب مرجعاً دينياً موثوقاً به في جميع البلدان الإسلامية.

كما نادى بتوحيد الأحكام وإنزالها على الواقع المعاصر وهي مما أجمع عليها علماء المذاهب الإسلامية، وكذلك نادي بإصلاح التعليم وإدخال مجموعة من العلوم والمعارف العصرية لتسهم في نفع الأمة الإسلامية .

ولم تدركه الوفاة عام 1935م حتى أنجز مجموعة من الكتب ومنها:

(تفسير المنار) وهو تكملة لما بدأه شيخه الإمام محمد عبده وقد وصل فيه إلى سورة يوسف عليه السلام، (الوحي المحمدي)، (نداء

الحسن الظريف)، (تاريخ الأستاذ)، (الإمامة والخلافة)، (السنة والشيعه)، (حقيقة الربا)، (مناسك الحج)، إضافة إلى العديد من الدراسات والمقالات التي نشرت في مجلة المنار .

ومن خلال ذلك كله أجمع علماء عصره وكل من عرف به ودرس حياته أنه كان واحداً من أهم رواد الإصلاح الإسلامي الذين برزوا في مطلع القرن التاسع عشر وعملوا على النهوض بالأمة حتى تستعيد مجدها الغابر على هدى الشريعة الإسلامية[2].

وأخيراً فإن الإمام محمد رشيد رضا كان رحالة يجوب البلاد ويلتقي بالعباد، ناشراً سماحة الإسلام وداعياً إلى الإصلاح، قام برحلات عديدة إلى كل من سوريا سنة 1909م وسنة 1919م، والقسطنطينية (تركيا) سنة 1910م. والهند سنة 1913م، والحجاز سنة 1916/1917م. وقد نشر كل هذه الرحلات في مجلته المنار. ولأهميتها فقد قام الدكتور يوسف إيبش بجمعها وتحقيقها في كتاب بعنوان (رحلات الإمام محمد رشيد رضا) ونشر في طبعته الأولى عن طريق المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت عام 1917م[3]. وهي المرجع الوحيد الذي أرجع إليه في هذه الدراسة فيما يختص برحلة الحجاز عام 1916م[4].

ثانياً: التعريف بالرحلة:

لقد بدأت هذه الرحلة المباركة يوم السبت 25/ صفر 1334هـ (23 سبتمبر 1916م) (كما ورد خطأ في المذكرات والصحيح 25/ ذي القعدة)، وانتهت يوم الجمعة 15 ذي الحجة 1334هـ حيث

غادر الإمام محمد رشيد رضا - صاحب هذه الرحلة - مكة إلى جدة وعبر الميناء غادر الحجاز متوجهاً إلى السويس فالقاهرة صباح يوم السبت 16 ذي الحجة 1334هـ.

وما إن عاد صاحب هذه الرحلة إلى بلاده سالماً غانماً حتى جهَّز مذكراته وذكرياته عن هذه الرحلة الحجازية لينشرها في مجلته الشهيرة (المنار) ابتداء من الجزء التاسع عشر (1906 - 1907م) والجزء العشرين (1917 - 1918م) وذلك في تسع حلقات متتاليات كما أسلفنا القول .

وبنظره شاملة وعامة يمكن توصيف هذه الرحلة وتلخيصها بشكل يعطي تصوراً واضحاً عنها . ففي الحلقة الأولى ركز الإمام على عموميات الحج في ذلك العام 1916م والظروف السياسية التي جاء فيها موسم الحج ، فقد كانت الحرب العالمية الأولى في بداياتها وما كان من أثر ذلك على إحجام الناس وتخوفهم من أداء هذه الفريضة ، ثم يشيد بدور حكومة الحجاز المتمثلة في الشريف حسين (شريف مكة) وتسهيله لمهمة أداء الحج رغم ضعف الدولة العثمانية في فترة الاتحاديين .

وفي **الحلقة الثانية** يتحدث الإمام محمد رشيد رضا في مذكراته عن فضاءات الرحلة والتخطيط والاستعداد لها ووصف الحالة النفسية والمعنوية لوداع الحجاج ويستطرد - فيما بشبه الخروج عن موضوع الرحلة - إلى فوائد السفر وماقاله الشعراء في ذلك الأمر وخاصة ألم الفراق ووداع الأبناء والأحباب. ثم يعود ليتحدث عن القطار الذي انتقل به من القاهرة إلى السويس وإجراءات التطعيم

والحجر الصحي للحجاج في منفذ السويس البحري قبل ركوب الباخرة إلى الحجاز .

وفي هذا الصدد يشير إلى تواريخ مهمة تحدد مسار الرحلة ، فقد غادر القاهرة متوجهاً إلى السويس بواسطة القطار يوم السبت 25 صفر 1334هـ/ 23 سبتمبر 1916م[5] ثم غادر السويس متجهاً إلى الحجاز يوم الأحد (لأربع بقين من ذي القعدة) أي يوم 26 القعدة 1334هـ . وذلك بواسطة الباخرة المسماة (النجيلة) وهي إحدى السفينتين اللتين أعدتهما الحكومة المصرية لنقل الحجاج من مصر إلى الحجاز[6]. وبعد أربعة أيام من السفر البحري وصل الحجاج إلى ثغر جدة يوم الخميس 30/ القعدة/ 1434هـ[7].

وهنا لنا وقفة، إذ يبدو أن هناك خط ٍاضح في تاريخ بداية سير الرحلة من القاهرة إلى السويس حيث ذ ر أنها كانت في شهر صفر، بينما المسيرة من السويس إلى الحجاز في شهر ذي القعدة. فهل يعقل أن يبقى الحجاج في السويس قرابة الثماني أشهر قبيل سفرهم إلى الحجاز؟ ولذلك فإني اعتقد أن السفر من القاهرة إلى السويس تم في أواخر شهر ذيٍ القعدة وليس صفر ؟ ويؤكد هذا التوقع قول المحقق في الهامش تعليقاً على شهر صفر (كذا في الأصل!) مما يدل على عدم واقعية التاريخ.

وفي **الحلقة الثالثة** يتحدث الإمام في رحلته إلى الحجاز عما شاهده على ظهر السفينة المقلة للحجاج من لهو وطرب وَذِكرٍ خارج عن السنة وموقفه من ذلك، ثم يصف وصول السفينة إلى ثغر جدة

واستقبال أهالي جدة للإمام محمد رشيد رضا ولقاءاته في جدة بالمشايخ والعلماء .

أما **الحلقة الرابعة** فيتحدث فيها عن السفر إلى مكة بواسطة الجمال ويصف مشاهداته في الطريق من المقاهي وحجاج الدكرور وأمن الطريق ووصوله إلى مكة واستقباله من قبل الشريف عبدالله والدخول إلى الحرم والطواف والسعي ، ويصف الحالة الروحية والمعنوية التي يحس بها الحاج أول دخوله للحرم ومشاهدة الكعبة المشرفة .

وفي **الحلقة الخامسة** تشير المذكرات إلى معلومات تاريخية عن بني شيبه ومفتاح الكعبة والنواحي الاقتصادية في مكة في تلك الفترة ورخاء المعيشة ثم يشير إلى العملات المستخدمة كما يذكر مسيرته إلى عرفات بواسطة الجمال ومشاهداته في الطريق وتحدث عن يوم الوقفة في عرفات ...

وفي **الحلقة السادسة** يكمل الحديث عن مشعر عرفات وفعاليات الحج ومظاهره في ذلك اليوم ثم يتحدث عن مزدلفة ورمي الجمرات بمنى .

وفي **الحلقة السابعة** يتحدث عن إكمال نسك الحج والحالة السياسية في الحجاز ولقاءاته بالشريف حسين ورأيه في السياسة الجديدة لحكومة الحجاز الجديدة .

وأما **الحلقة الثامنة** فيتحدث عن أيام التشريق في منى وما قيل من شعر فيها وخاصة شعر الغزل .

وفي **الحلقة التاسعة والأخيرة** يتحدث عن نفرة الحجيج من منى ومقامهم في مكة استعداد لطواف الوداع والمغادرة وما تحقق في تلك الأيام من دخول الكعبة ووداع الشريف له ، مع بعض المشاهدات عن التسوق ثم السفر إلى جدة ثم العودة إلى القاهرة.

وفي كل هذه الحلقات التسع لانعدم اللغة الراقية والاستطرادات المفيدة، والآراء القيمة، وتوضيح حالة الحجاز السياسية والاقتصادية في هذه الفترة مما يعمق الأهمية لهذه الرحلة الحجازية لأن صاحبها من الشخصيات التي يعتد بها وكان لها دور كبير في النهضة الإصلاحية الحديثة.

ومن خلال هذه المعلومات التاريخية والذكريات الحجازية والفضاءات السياسية التي تحفل بها هذه الرحلة المباركة يمكن الحوار والمداخلة مع كثير مما جاء فيها تحليلاً وتعليقاً وتعريفاً ومناقشة، لعلنا نتثاقف مع هذا المنجز الكتابي الذي يعد حلقة هامة في سياق آدب الرحلات الحجازية وهذا مدخل لم يؤت لغيرنا فيما نزعم والحمد لله.

ثالثاً: مداخلات وتعليقات:

من قراءتنا للسطور ومابين السطور مما سجله صاحب هذه الرحلة الإمام محمد رشيد رضا يمكن أن نتداخل مع هذه الرحلة الحجازية بعد تقسيمها إلى ثلاث مستويات بنيوية نجملها فيما يلي:

- من الاستعداد إلى الوصول.
- الحجاز والفضاءات السياسية.
- الملاحظات والمشاهدات الحجازية.

وفيما يلي تفصيل لهذه المستويات:

3/1 من الاستعداد إلى الوصول:

كان الحج إلى بيت الله الحرام أمنية كبيرة تراود الإمام محمد رشيد رضا منذ فترة بعيدة وقد كان عزم لهذا الأمر أكثر من مرة بصحبة والدته التي وعدها بذلك ولكن «حالت دونه الأقدار بالأعذار تارة من قبلي وتارة من قبلها» كما يقول في مذكراته.

ولما كانت سنة 1916م /1334هـ سهل الله تنفيذ هذه الأمنية فبدأ يعد العدة ويستعد لهذا السفر المبارك، لاسيما وأن الحكومة المصرية قد دعت المواطنين للحج وبتكاليف مالية قليلة، فاستثمر هذه الفرصة استجابة لنداء الخليل إبراهيم عليه السلام، والسعي للدعوة إلى الله والنصيحة لعامة المسلمين.

وقد أشيع في مصر - آنذاك - أن حالة الحرب العالمية الأولى قد تحول دون إتمام الحج، وأن الخوف من آثارها سيضعف حكومة الحجاز الجديدة عن القيام بواجباتها في أمن الحج والحجيج. كما أشيع أن الإمام محمد رشيد رضا سوف يذهب إلى الحجاز مرسلاً من قبل الحكومة المصرية لمبايعة شريف مكة بالخلافة، أو استجابة لدعوة شريف مكة لتولي القضاء أو مشيخة الإسلام في الحجاز. ولكن كل هذه الإشاعات يرد عليها الإمام بأنها خالية من الصحة، وأن النية كانت خالصة لأداء الفريضة «وحسبى أنني أحج لوجه الله تعالى منفقاً من مالي الذي اعتقد حله، وأنني ابتغي زيادة الأجر بصحبة والدتي وخدمتها، وبما أبغيه من زيادة العلم النافع والاستفادة من أهل العلم والبصيرة، وبما أنويه من النصيحة في تلك البقاع الطاهرة، وإنما الأعمال بالنيات...» كما يقول في مذكراته.

لقد قررت الحكومة المصرية أن يتواجد الحجاج الراغبون في الحج - في ميناء السويس يوم السبت 25/ ذو القعدة 1334هـ/ 23 سبتمبر 1916م، استعداد للسفر إلىٍ الحجاز. فما كان من صاحب الرحلة إلا التأهب لذلك، وأعد كتيباً أو رسالة عن مناسك الحج بين فيها الأحكام المتعلقة بالحج وطبع منها كمية لابأس بها لتوزيعها على الحجاج.

كانت وسيلة السفر من القاهرة إلى السويس بواسطة القطار الحديدي والذي يمر بمحطة الإسماعيلية فيتغير القطار إلى آخر مكتظ بالجنود الإنجليز. وقبل مغرب يوم السبت وصل القطار الى السويس. وفي يوم الأحد ذهب الإمام ورفاقه الحجاج إلى مكتب الصحة لاستخراج الشهادة الصحية والتطعيم ضد الكوليرا بناء على أوامر الحكومة المصرية.

ثم يصف الإمام محمد رشيد رضا الباخرتان المعدتان لسفر الحجاج إلى الحجاز وهي باخرة (المنصورة) وباخرة (النجيلة) وهما باخرتان مؤجرتان للحكومة المصرية ومن أقدم السفن، لشركة البواخر الخديوية، فأما (المنصورة) فإنها الجيدة والأسرع ولذلك تسابق عليها الحجاج، أما (النجيلة) فإنها الأبطأ في سيرها وليس فيها كهرباء ، وعديمة النظافة ، وتفتقد إلى الأجراس والمقاعد رغم أن مخادعها واسعة ومريحه. كما يصف ربان السفينة وطبيبها ويثنى عليهما لحسن التعامل والاهتمام.

وأثناء السفر في البحر تعرف الإمام محمد رشيد رضا على مجموعة من العلماء والأدباء الحجاج ومنهم الشيخ عبدالفتاح

الجمل شيخ علماء بور سعيد . والأديب محمد توفيق علي اليوزباشى في الجيش المصري.

كما يصف الأجواء البحرية من حر ورطوبة وصعود الناس الى فضاء الباخرة للاستمتاع بالهواء الطيب وما كان يصدر من بعض الحجاج من لعب وطرب ولهو، أو أذكار صوفية لا تمت للدين الصحيح بصلة.

وعند مرور الباخرة برابغ أحرم الحجاج ملبين بالحج فرحين بقرب الوصول إلى ميناء جدة حيث تحقق ذلك في مساء يوم الخميس 30/ ذو القعدة/ 1334هـ وقد كانت باخرة (المنصورة) قد وصلت في اليوم السابق في يوم الأربعاء 29/ القعدة، وكان رسو السفينة بعيداً عن جدة لوجود الشعب المرجانية التي تمنع وصول السفن إلى شاطئ جدة وتأتي القوارب لنقل الحجاج من السفينة إلى الشاطئ.

كان الشيخ محمد نصيف من أعيان جدة ووكيل الشريف حسين فيها على رأس المستقبلين للإمام محمد رشيد رضا بإيعاز من شريف مكة وقد أمَّن له ولمرافقيه زورقاً كهربائياً لنقلهم إلى الشاطئ بكل سرعة وراحة ونزلوا ضيوفاً في دار الشيخ نصيف التي يصفها بأنها «دار فسيحة وواسعة الحجرات كثيرة النوافذ، تفيض عليها الشمس أشعتها من الشرق والغرب ويتخلل النسيم حجراتها من كل مهب، فهي في الذروة من دور جدة».

وفي هذه الدار أقام صاحب الرحلة يومي الخميس والجمعة التقي فيها بعدد كبير من أعيان الحجاز – وجدة بالذات – وتذاكر معهم وتعرف عليهم وسجل بعض ملاحظاته حول مواقفهم معه

أوردها في مذكراته . وماهي إلا ثمان وأربعين (48) ساعة في جدة قضاها استعداداً للسفر إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة.

* * *

3/2 الحجاز والفضاءات السياسية:

ومن خلال هذه المذكرات التي كتبها الإمام محمد رشيد رضا عن رحلته إلى الحجاز 1334هـ/ 1916م، نجد مجموعة من الإشارات إلى الحالة السياسية التي كانت تحيط بأجواء الحج ومنطقة الحجاز في ذلك العام 1334هـ/ 1916م وهي من الأمور التي يجدر بنا الوقوف عندها ومناقشتها والمداخلة معها والتعليق عليها للأهمية التي تتعلق بها.

فمنذ الحلقة الأولى من المذكرات يوقفنا الإمام محمد رشيد رضا على أجواء الحرب الأوروبية العامة «المعروفة تاريخياً بالحرب العالمية الأولى» وما أحدثته من منع للسفر عبر البحار إلى منطقة الحجاز، كما يوقفنا على موقف الحجاز العثمانية من هذه الحرب إذ نادي الشريف حسين بالاستقلال والتمرد على الحكومة العثمانية والدخول للحرب إلى جانب بريطانيا، كما يوقفنا على رأيه في حكومة الاتحاديين العثمانية التي استولت على الحكم في تركيا ويصفهم بـ «الملحدين والبغاة المارقين» لما أقدموا عليه من التنكيل بالعرب وانتهاك حرمات الدين - كما يقول.

كما يفرد فصلاً خاصاً في مذكراته عن (الحالة السياسية في الحجاز في أواخر سنة 1334هـ) وما تناقلته الصحف المصرية من

تشكيل حكومة جديدة في السابع من ذي الحجة 1334هـ والمراسم الشريفية التي جاء في أحدها تعيين الشيخ عبدالله سراج قاضي للقضاة ووكيلاً لرئاسة الوكلاء، والأمير عبدالله بن الشريف حسين لوكالة الخارجية ووكيلاً عن وكيل الداخلية، وعبدالعزيز بن علي رئيس أركان حرب ووكيلاً عن وكيل رئاسة الجند، والشيخ علي مالكي وكيلاً للمعارف، والشيخ يوسف بن سالم وكيلاً للمنافع العمومية، والشيخ محمد أمين وكيلاً للأوقاف ونظارة أمور الحرم، والشيخ أحمد باناجه وكيلاً للمالية.

وكذلك يشير الإمام في مذكراته إلى المرسوم الشريفي بتأسيس مجلس الشيوخ الأعلى في حكومة الحجاز الجديدة وتحديد مهام هذا المجلس في «النظر في كل مايتعلق بمنافع البلاد والمراقبة على أعمال الدووابن والدوائر الرسمية وإبداء الرأي فيما تعرضه الدوائر على مقام وكيل رئيس الوكلاء». وقد عين رئيساً لهذا المجلس الشيخ محمد صالح الشيبي «فاتح بيت الله الحرام» أي الذي بيده مفاتيح الكعبة.

وكان أعضاء المجلس المُعَيَّنِيْن هم: مفتي الشافعية السيد عبدالله محمد الزواوي، ومفتي المالكية الشيخ عابد بن حسين، والشيخ عبدالقادر بن علي الشيبي، ونائب الحرم السيد إبراهيم بن علي ووكيل شيخ السادة السيد محمد بن علوي السقاف ، والشيخ عبدالله علي رضا والشيخ علي بن عبدالله الشرباصى والشيخ أبو بكر بن محمد خوقير، والشريف حمزه بن عبدالله الفعر، وفتن بن محسن، وسليمان بن أحمد بن سعيد، وناصر بن شكر.

وفي هذا الصدد تشير المذكرات إلى أن الناس كانوا ينتظرون إعلان الشريف حسين عن شكل الدولة الحجازية المستقلة وهل هي خلافه أم سواها. ولهذا السبب تدخل من يحسنون الظن بالإمام محمد رشيد رضا وبحكم شخصيته وإعجاب الشريف حسين بها ومكانته الدينية والرسمية والثقافية لكي يقابل الشريف ويتباحث معه في هذا الأمر ، فقابله وكان رأي الشريف أن لاتعلن الخلافة الآن ويترك الأمر للرأي العام الإسلامي بينما كان رأي الحجازيين أن تعلن الخلافة ويبايع الشريف حسين بها في الحرم الشريف أو في الاحتفال السنوي الذي يقام في عيد الأضحى بمنى. ولكن لم يحصل من ذلك شيء رغم أن الإمام محمد رشيد ألقى خطبة في الاحتفال وضح فيها موقف الدولة العثمانية الخطير بعدما عانت من الضعف والحروب مع أوربا وعلاقتها بالعرب التي ساءت وحكم الاتحاديين اللذين اسقطوا السلطان عبدالحميد ولم يستطيعوا أن يقدموا شيئاً للأمة العربية والتأييد للشريف حسين الذي ثار ضد هذه الحكومة الاتحادية ونادى باستقلال العرب وجدارته بالحكم في البلاد العربية ودعوة الناس إلى الالتفاف حول الحكومة الحجازية . ولكنه لم يصرح بالدعوة للمبايعة بالخلافة وهو ماكان ينتظره السامعون.

كما أشار الإمام محمد رشيد رضا في مذكراته إلى مجموعة من الآراء السياسية التي يؤمن بها شريف مكة والتي تدل على حنكة سياسية وبعد نظر واستشراف للمستقبل ومن هذه الآراء مايلي:

- يأسه من الدولة العثمانية وإصلاح الأمور فيها لاسيما وأن حكومة الاتحاديين لا تستطيع ذلك ولهذا قام بالثورة وإعلان الاستقلال.

- ثقته الكبيرة بالحكومة البريطانية وقوتها وعظمتها وأنها قادرة على مساعدته بعد الاستقلال.
- دور حكومة الاتحاد والترقي في إضعاف الدولة العثمانية وتغلب الفساد الإداري عليها.

ومن كل هذا يتضح أن الفضاء السياسي الذي يحيط بهذه الحجة المباركة التي شارك فيها الإمام محمد رشيد رضا هو زمن الحرب العالمية الأولى وما أحدثته من ارتباك في شؤون الحج حتى إن الناس كانوا يخافون من هذه المجازفة وأنها إلقاء بالنفس للتهلكة لاسيما وأن منطقة الحجاز - التي تتم فيها شعائر الحج وإليها يفد المسلمون من كل حدب وصوب، وتعيش آثار تلك الحرب ونتائجها - خرجت على الحكم العثماني وأعلن الشريف حسين استقلال بلاده وناوأ الحكومة العثمانية واشترك في الحرب ضدها إلى جانب دول الحلفاء - وبدأ في رسم شكل الحكومة العربية الجديدة وحظى بتأييد علماء الدين الإسلامي وعامة الأمم الإسلامية ولم يبق إلا مسألة الخلافة وإعلانها من الحجاز. وهذا مالم يتم في هذه الحجة.

* * *

3/3 الملاحظات والمشاهدات الحجازية:

ولا يمكن مغادرة هذه المذكرات إلا بعد الوقوف على تلك المشاهد والروحانيات التي عاشها الإمام محمد رشيد رضا في الحجاز (جدة ومكة والمشاعر) وأثناء أداء فريضة الحج المباركة. فقد سجل في مذكراته كثيراً من تلك المشاهد ودوَّن كثيراً من الملاحظات بأسلوبه

الأدبي وروحه الإيمانية لاسيما وأنه في البقاع الطاهره والأرض المباركة.

فمنذ البدء كانت الحجاز حاضرة في ذهن الإمام محمد رشيد رضا في ذاكرته على اعتبار أنها أرض العروبة ومهد الإسلام، وأن الحج فريضة إيمانية لابد من أدائها للمقتدر استجابة لنداء أبينا إبراهيم عليه السلام، وأنه فرصه للقاء بأخوة الإسلام من مشارق الأرض ومغاربها. وفيهم العلماء وطلاب العلم فتزداد معارفه ويستفيد من أهل الخبرة والعلم والبصيرة. وفيهم العامة فيمارس دوره في الدعوة والنصح والأمر بالمعروف والتواصي بالحق والتواصي بالصبر كما يقول.

ومنذ البدء - أيضاً - كان الإمام محمد رشيد رضا واعياً بما سيقدم عليه في الطريق إلى الحجاز من تعارف وتآلف برفقاء الرحلة في الباخرة وما يقتضيه ذلك من محض الدعوة والنصيحة للحجاج فأعد رسالة في مناسك الحج وطبع منها مئات النسخ وزعها على ركاب الباخرة. وتعرف على العلماء والأدباء المشاركين في رحلة الحج وقامت بينهم حوارات ومناقشات دينية وسياسية واجتماعية.

ولكونه من الشخصيات الاجتماعية والثقافية المهمة فقد عرف عن حجته شريف مكة وحث المسئولين في جدة باستقباله وتهيئة سبل الراحة والضيافة، ولعل أول المشاهد التي رصدها في مذكراته عن الحجاز، ما شاهده عند وصول السفينة إلى ثغر جدة، حيث أشار إلى أن السفن لا تدخل إلى شاطئ جدة بل تقف بعيداً جداً عن الشاطئ بسبب الصخور والشعب المرجانية، وهناك تستقبلهم السواعي والقوارب والبواخر الصغيرة لنقلهم إلى الميناء.

واستجابة لأمر الشريف حسين فقد قام وكيل شرافة مكة في جدة الشيخ محمد نصيف ومعه مجموعة من سراة جدة وكبرائها باستقبال الإمام محمد رشيد رضا عند السفينة وأحضروا له الزورق الكهربائي المعد للضيوف المهمين من الحجاج، فنقلوا مباشرة إلى جدة حيث تم استقبالهم في دار الشيخ محمد نصيف التي يصفها بقوله إنها «دار فسيحة واسعة الحجرات، كثيرة النوافذ، تفيض عليها الشمس أشعتها من الشرق والغرب، ويتخلل النسيم حجراتها من كل مهب ، فهي الذروة من دور جدة».

كما يصف الجو في ذلك اليوم الذي وصلوا فيه جدة (الخميس 30 القعدة 1343هـ) بأنه «معتدل الهواء في هذا الثغر لا يُشْتكى برد منه ولا حر».

وفي جدة أقام صاحبنا ثلاثة أيام «من ضحوة يوم الخميس إلى أصيل يوم السبت» كما يقول في مذكراته. استقبل فيها عدداً كبيراً من الوجهاء والعلماء ورجال الدولة والتجار وأصحاب الحرف والأعمال ودارت بينهم الأحاديث الودية وتبادلوا الحوار في المسائل الاجتماعية والسياسية والدينية والعلمية.

ومن أهم الملاحظات التي سجلها في هذه الفترة (أثناء إقامته في جدة) أنه سمع خطيب الجمعة في أحد مساجد جدة يدعو للسلطان العثماني محمد رشاد (الخامس) وفي هذا دلالة كبيرة على أن الشريف حسين - حتى ذلك الحين - لم يعلن استقلاله عن العثمانيين ولم يعلن نفسه خليفة بل مازال ينتمي للخلافة العثمانية ولسلطانها محمد رشاد الخامس.

ومن الملاحظات أيضاً ما سمعه من الشيخ محمد نصيف أن بعض الحجاج القادمين من مصر لا يلبسون ملابس الإحرام ويدخلون مكة على اعتبار جواز المسألة وما يلزم صاحبها من الفدية. كما يشير في هذا الصدد إلى أن ذلك من تأثير المدارس التركية والإفرنجية على عقائدهم وخاصة في عهد الاتحاديين وهذا ما جعل الحجازيون يسيئون الظن بكل من يصل إليهم من خارج الحجاز.

ومما لاحظ وشاهد الإمام محمد رشيد رضا في طريقه إلى مكة المكرمة ومغادرته جدة أن وسائل الموصلات كانت الجمال والحمير ولم تكن السيارات قد دخلت هذه الخدمة. وأن أجرة الجمال كانت (2 جنيه) وأجرة الحمار (مئة قرش عثماني) وأن الحاجة ماسة لوجود الماء مع المسافرين لقلته في الطريق ولبعد الأماكن التي يوجد بها الماء وهي المقاهي في الطريق بين جدة ومكة، والتي يصفها بأنها أكواخ يأوي إليها المسافرون للاستراحة وشرب الشاي والقهوة وأن الماء الذي فيها «كله قذر فلا أصله جيد ولا أوانيه نظيفة ، وماء بحرة التي ينزل فيها الحجاج للاستراحة رديء غير عذب...».

ومن المشاهد في الطريق أولئك الحجاج التكارنة الذين يسميهم الإمام في رحلته ومذكراته بـ (سودان الدكرور) والذين لا يستطيعون استئجار الحمير أو الجمال لفقرهم وقلة ذات اليد فيلجأون للسفر مشياً على الأقدام رجالاً ونساءً وأطفالاً «يحمل الرجال حرابهم والنساء أطفالهم على ظهورهم وما لديهن من المتاع والزاد على رؤوسهن وكنا نرى بعضهم ينام على جانبي الطريق فهم ينامون إذا تعبوا فإذا استيقظوا في أي ساعة في ليل أو نهار مشوا، لا يخافون

اللصوص ولا قطاع الطريق وقد قيل لنا أنه لا يتعرض لهم أحد بسوء لأنه لا يكاد يوجد معهم شيء له قيمة ينتفع به اللصوص من الأعراب هنالك، فأكثرهم عراة لا يملكون من اللباس ما يزيد على ستر العورة ولباس جميع رجالهم ونسائهم الأبيض وهم مع ذلك يدافعون عن أنفسهم دفاع الأبطال بحرابهم السودانية فلا يستهان بهم مع كثرتهم فإنهم منتشرون طوال الطريق لا تبعد ثلة منهم عن أخرى إلا قليلاً واللصوص قلما يكونوا كثيرين إلا إذا كانوا يقصدون سلب القوافل الكبيرة».

كما يشير الإمام محمد رشيد رضا إلى الوضع الأمني في الطريق إلى مكة «وأنه كان آمناً مطمئناً»، وأن شرطة الشريف منتشرة لتأمين الحجيج والقضاء على قطاع الطرق ، وأن مخافر الشرط على طول الطريق كثيرة ومتقاربة. ويورد هنا الحادثة التي أفزعتهم قبل وصول بحرة فقد سمعوا طلقات رصاص، فانطلق رجال الأمن إلى مصدر الصوت فوجدوا رجلاً قد سلب متاعه وشردوا بعيره ولكنهم تمكنوا من القبض على اللصوص وتسليمهم.

وأن أحد حجاج المغاربة توفي وكان له ولد افتقده فعاد إلى حيث كان فوجد الجنود حول الجثة ويحتفظون بكيس نقود مؤونة الحج فدلوه على الوالد وأعانوه على الدفن وسلموه كيس النقود «ولم يأخذوا منه شيئاً ولو شاءوا لأخذوه كله» كما يقول.

ويؤكد هنا الإمام محمد رشيد رضا أن الأمن مستتب في عهد الشريف حسين وأن له الفضل في هذا الأمر فكان موسم الحج ناجحاً

فلا شكوى أمنية من الحجاج وأي محاولات للصوص سرعان ما يقضى عليها.

كما يصف الإمام المنازل في بحره ويسميها الخصاص وهي البيوت المصنوعة من عيدان الأشجار أو القصب وهي كثيرة تتسع الألوف من الناس وتقع على جانبي الطريق ومنها الحوانيت والمقاهي ويخصص بعضها للنساء وبعضها للرجال ولها مراحيض لكنها تفتقر إلى النظافة.

ومن المشاهد أيضاً ما رآه في الطريق إلى مكة حيث وجد مجموعات من رجال العسكرية الأتراك اللذين أسرهم جيش الشريف حسين في الطائف مخفورين ومرسلين إلى جدة وذلك بعد فتح الطائف على يد الشريف الأمير عبدالله بن الحسين وقد حاصرها عدة أشهرٍ واستسلمت له الحامية التركية وقائدها غالب باشا الذي كان والياً على الحجاز.

ومن المواطن التي تشير إليها الرحلة بعد بحره ، قهوة سالم وهي في حدود الحرم وعلى مقربة من مكة المكرمة يأوي إليها الحجاج ويستريحون فيها ويغتسلون استعداداً لدخول الحرم الشريف، ثم قهوة المعلم «وهي آخر قهوة بين جدة ومكة»، وفيها تم استقبال الإمام محمد رشيد رضا من قبل وفد الشريف حسين برئاسة مفتي الشافعية عبدالله الزواوي، وإيصاله إلى مقر السكن بقرب الحرم الشريف الذي أمر به الشريف حسين «سيد الجميع» كما يقول.

ومنذ دخوله مكة المكرمة تتجلى المشاهد الروحانية والمشاعر الإيمانية حيث كانت التلبية والذكر طوال الطريق بين جدة ومكة وفي

جنح الظلام دافعاً روحياً قوياً إذ ملأت قلبه إيماناً وتوحيداً وجردته من الأهواء وأعدته لزيارة البيت الحرام والطواف وهو في أحسن حال وأتم استعداد كما يقول. وما إن رأى الكعبة المعظمة ومقام إبراهيم عليه السلام ودخل من باب بني شيبة حتى شعر بمهابة وعظمة البيت العتيق، وتذكر بدايات الحنيفية الإبراهيمية والرسالة المحمدية وسالت دموعه خشوعاً وإيماناً.

وفي السعي بين الصفا و المروة تذكر جدتنا السيدة هاجر عليها الرضوان وهي تجري بين الجبلين تبحث عن الماء، تذكر الدين الإسلامي الذي جعل هذه الشعيرة تقرباً لله ورمزاً إيمانيا تقر به العيون والأفئدة وتتذكره العقول العامرة، فمن سعى بين الصفا والمروة عالماً بما ذكر، متذكراً له معتبراً به، فإنه يشعر في قلبه بنماء الإيمان بالله وبرسل الله، ويفهم سر قوله تعالى ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر الله...**﴾.

وفيما بين اليوم الثالث من ذي الحجة وحتى اليوم الثامن يوم التروية أقام الإمام محمد رشيد رضا في مكة مستقبلاً للأهالي والعلماء والوجهاء متعرفاً عليهم ومناقشاً لهم، ومتعبداً لله في الحرم وخاصة بالطواف وقت الأصيل ووقت السحر، كما يقول.

وفي هذا الصدد يشير إلى شدة الحر حوالي (35 درجة) وانعدام الهواء البارد في مكة مما جعله يجد راحته الروحية في البيت الحرام وقت الصلوات أو وقت الأصيل حيث يدخل الحرم ولا يخرج إلا بعد صلاة العشاء.

كما يشير الإمام في مشاهداته بمكة المكرمة رخاء المعيشة استجابة لدعاء سيدنا إبراهيم ، وتوفر اللحوم والخضروات والفواكه وأسعارها زهيدة ورخيصة رغم أن الأهالي يزيدون في الأسعار في موسم الحج.

وعندما بدأت أيام الحج الفعلية تجهز الإمام محرما بالحج وشد الرحال إلى عرفه دون المرور بمنى كما هي سنة النبي صلى الله عليه وسلم إذ كان يقضي يوم التروية في منى. وكانت وسيلة المواصلات من مكة إلي عرفات الجمَال، التي بلغت أجرتها يوم ذاك عشرين ريالاً مجيديا. ولقلة الجمَال فقد أمر الشريف حسين عسكره بإحضار الجمَال من الأعراب والبادية بالقوة ليحل مشكلة المواصلات.

وفي طريقه إلى عرفات يصف الإمام محمد رشيد رضا مشاهداته من منزله قرب الحرم الشريف وحتى عرفات حيث شاهد السوق الصغير إلى الجهة الجنوبية الشرقية ، ثم شارع جياد وما فيه من المعاهد الحكومية والمطبعة والتكية المصرية ، ثم شارع المسعى فالقشاشية (القشيشة كما يسميها) فسوق الليل الذي كان فيه ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم ثم الغزة وفيها مقر الإمارة فالنقا والسليمانية. وهنا ينتهي العمران في مكة فيرى المسافر مقابر المعلاة وفيها قبر السيدة خديجة وهذه المنطقة تسمى الحجون ، ثم يدخل الحاج في وادي منى الذي يحمل مجموعة من المسميات اشهرها وادي المنحنى ثم وادي السلم والضال ثم العقبة وفيها جمرة العقبة والمسافة بين مكة ومنى فرسخ واحد حوالي ثلاثة أميال. ويستغرق الطريق ساعة لركاب الخيل والحمير وساعتان لركاب الإبل ثم يصل

الحاج إلى مزدلفة ثم إلى عرفة والمسافة بين مزدلفة وعرفه ساعة ونصف على الدواب وثلاث ساعات على الإبل.

ولما يصل الإمام محمد رشيد رضا إلى عرفات أو عرفة يستطرد في تعريفها جغرافياً وتاريخياً ثم يصف مشاهده وتأملاته الروحية في هذا الموقف العظيم فرغم قلة عدد الحجاج هذا العام إلا أن مناظر الواقفين في عرفه من أعظم المناظر المؤثرة في النفس المحركة لشعور الخشوع والعبودية في القلب وهم باكين خاشعين ملبين داعين يلجأون إلى الله عز وجل على اختلاف لهجاتهم الناشئة عن اختلاف لغاتهم يرددون الأذكار المأثورة بالعربية ويدعون الله ما شاءوا بلغاتهم المختلفة.

ويضيف أن الحالة الروحية لا تبلغ الكمال في عرفات إلا في وقت الأصيل لانشغال الناس في أول النهار بالموقع الجديد والمناظر الأخاذة من تجمع الناس واختلافهم والبحث عن المأكل والمشرب وانشغال الناس في وسط النهار بالأكل والراحة والانزواء عن الشمس في الخيم وظلال الجبال. فإذا جاء وقت العصر انشغلوا بجمع المتاع وشد الرحال استعداداً للنفرة إلى مزدلفة ومع بداية الأصيل يتفرغون للعبادة والذكر والدعاء.

ومن مشاهداته في عرفات أن المسجد الذي يصلون فيه الظهر والعصر جمعاً وقصراً كان بجوار جبل الرحمة ويسمى مسجد الصخرات . هذا يعني أن مسجد نمرة الذي أقيم في وادي نمرة المحاذي لعرفات مسجد مستحدث ولم يكن كذلك في السنة التي حج فيها الإمام عام 1334هـ ،وهذه المسألة تحتاج إلى بحث وتحديد.

ومن المشاهد أيضاً أن خطيب عرفه يوم ذاك كان نائب الشرع بمكة الشيخ يونس أفندي الذي صلى بالناس في المسجد المذكور أعلاه ووقف على ناقته «على تلك الصخرة من جبل الرحمة ... وقد أحاط به الناس وازدحموا يسمعون منه أحكام المناسك».

ويصف حال الحجاج وهم في توجههم إلى الله ذاكرين داعين ملبين واقفين «فياله من موقف ما أعظمه» وأن لكل مؤمن «من الشغل بنفسه والتوجه إلى ربه ما لا يعهد مثله في وقت من أوقات حياته فهو في خلوة لا يشغله فيها عن ربه شاغل» إلى أن يقول «فما أعجب شأن هذا الاجتماع العظيم الذي يجمع كل من شهده بإيمان وعرفان بين مزايا عبادة الخلوة وعبادة شعائر الاجتماع لا يعرفها إلا من ذاقها».

ومن المشاهد أيضاً ما ذكره عن موكب الشريف حسين الذي وصل إلى الموقف العظيم عند جبل الرحمة قبيل المغرب وما قوبل به من احتفاء حيث يقول :

«وحينئذٍ أطلقت المدافع وعزفت المعازف (الموسيقى) واستعد الناس للرفع من عرفه ...». وهذا أمر غريب فكيف في ذلك المشعر الحرام وفي ساعة من أبرك وأشرف الساعات وفي يوم من أيام الله المجيدة التي يباهي فيها الله ملائكته بأهل الأرض. يختم الشريف حسين والحجاج يومهم بتلك المعازف والموسيقى والمدافع؟!

ومن المشاهد أيضاً ما سجله عن المشعر الحرام في مزدلفة والمبيت فيها والصلاة جمعاً وقصراً والأشخاص الذين تعرف عليهم ومنهم (علي مؤمنه) من أهل مكة و(حسام الدين بخاري) من

المجاورين بمكة وكان محباً للعزلة والبعد عن كبراء الدنيا وهو على الدوام يخدم العلماء وأهل الطريق من الغرباء.

ثم يصف الإمام محمد رشيد رضا إفاضته من مزدلفة بعد الفجر وجمع الحصى لرمي الجمرات ونزوله من وادي محسر «الذي أهلك الله فيه أصحاب الفيل» بسرعة معتدله كما يقول ولما وصل جمرة العقبة أكمل نسكه مستعداً للإفاضة إلى مكة لطواف الإفاضة.

ومن المشاهد التي سجلها لنا الإمام محمد رشيد رضا صلاة العيد في الحرم الشريف حيث كان الأمير الحسين يصلي مع الناس مأموماً والرجال يصلون في الجهة الغربية من الحرم والنساء في الجهة الجنوبية.

ثم يصف مبيته في منى ورمى الجمار وذبحه للأضاحي والهدي حيث يقول «وكنا نذبح كل يوم من أيام منى فنأخذ حاجتنا ليومنا ونتصدق بالباقي. وقد كانت الذبائح في السنين الخالية تزيد عن حاجة أهل البلاد ومن حولهم من الأعراب لكثرتها. وأما في هذه الأيام هذا العام فهي لا تكاد تكفي فقراء الحرم» ولعل السبب – في نظري – هي من آثار الحرب العالمية التي تأثرت بها منطقة الحجاز.

ومن المشاهد التي أثرت في الإمام محمد رشيد رضا ماسمعه من الشريف حسين في منى «وهي كلمات جديرة بالحفظ والتدوين» كما يقول حين قال الشريف «كانت أيام منى أول الإسلام من أطيب أيام الحياة. يتم فيها الجمع بين اللذات الروحية والبدنية والاجتماعية ، فلما قربت المواصلات بين الأقطار الإسلامية البعيدة صار يتنقل الوباء إلى الحجاز مع الحجاج الموبوئين فيكون أشد فتكه

عند اجتماع الناس في منى فصارت أيام منى أيام غم وكدر يتعثر الناس فيها بالموتى في كل مكان وتعد الحكومة لها الألوف من الأكفان ونحمد الله أنه لم يمت فيها أحد في هذا العام لا بمرض وبائي ولا بمرض عادي».

وهذه إشارة ذكية إلى الصحة العامة في الحج وخاصة في هذه الحجة التي شارك فيها الإمام محمد رشيد رضا وفيها إشادة بعصر الشريف حسين وقلة عدد المصابين بالأوبئة مقارنة بالسنين السابقة، فكثير من كتب الرحلات تشير إلى وباء الكوليرا الذي انتشر في مكة في بعض مواسم الحج.

وفي هذا السياق يقدم الإمام محمد رشيد رضا وصفاً دقيقاً للشريف حسين. فهو قد خصص له حجرة في الجدار الجنوبي للحرم الشريف يؤدي فيها صلواته ثم يجلس مع حاشيته وكبار رجال دولته في القسم الخارجي لاستقبال الناس.

كما يصفه بأنه متواضع، كريم، عزيز النفس، واثق في قدراته، لديه ثبات وإصرار على ما يأخذ به. شديد الحذر، يسيء الظن لأن ذلك من أزكى الفطن، ينظر في كل شؤون دولته الخاصة والعامة دون كلل ولا ملل .

ومن أخلاقه وشمائله الوقار، والأدب العالي، وشدة الوطأة على المجرمين والمخالفين السياسيين، ولا يخاف في الله لومة لائم، والعفة والنزاهة والشجاعة والإقدام، لا يخاف الموت على نفسه ولا على ولده، وهو يحب وطنه الحجاز حباً عظيماً ويكرم الأعراب. وأنه على وعي شديد وثقافة واسعة ومعارف علمية في كل المجالات

السياسية والاجتماعية والاقتصادية وله آراء وتجارب فعاله في هذه المجالات.

ومن المشاهدات التي يضمنها الإمام محمد رشيد رضا، ما ثبت في كتب الأدب من مواقف بعض الشعراء الحجاج وغزلهم بالنساء أيام الحج وما لفت نظره في واقع الحال فيقول إن كل ذلك التراث الغزلي يدل على «أنه لا يمكن أن يجتمع النساء والرجال الكثيرون في مكان ينظر بعضهم إلى بعض إلا يكون لمغازلة النساء بالكلام أو بالنظر نصيب فيه» ويستشهد بأحد القسيسين الذي قال «لقد مات الدين لأن الناس لا يقصدون المعبد إلا لمغازلة النساء»؟!

لكنه يعود ويستدرك أنه لم يشاهد في حجته ولم يسمع من أحد شيئاً في هذا الأمر (أمر المغازلة في الحج). لكنه يذكر كلمتين لرجلين فاضلين من مصر كانا معه في هذه الحجة. يقول الأول وهو الأنقى والأكثر تديناً ومحصن أنه «رأى في منى امرأة في نافذة دار مقابلة للدار التي كان فيها تحمل منظاراً تنظر فيه، فتوهم أنها تنظر إليه فاشتغل قلبه بذلك مدة وجوده في منى».

ويقول الثاني وهو أعزب أنني لم أر في الحجاز أمرأة وسيمة يشتهي المرء أن يعيد إليها طرفه. فهل هؤلاء هن نساء العرب اللواتي شبب بهن الشعراء ذلك التشبيب الفاتن الذي يخيل لقارئه أنهن أجمل نساء الأرض؟ وياليت شعري كيف كان يكون غزلهم وتشبيبهم لو كان في نسائهم من الجمال ما نعهده في الآستانة وغيرها؟.

ثم يشير الإمام - ضمن مشاهداته في مكة - ما ابتاعه من أسواق مكة حيث «الحلي والحلل من منسوجات الهند الموضونه وغير

الموضونه، وبعض منسوجات الشام وبلاد الترك والصين» وهذا يعني أن في أسواق مكة الكثير من المتاجر التي تتعامل مع الأسواق العالمية آنذاك مثل الهند والصين والشام وقبرص.

كما يصف الكعبة من الداخل حيث هيأ الله له دخولها والصلاة فيها «وقت الضحى من يوم الجمعة 15 ذي الحجة» وما أحسَّ به من مشاعر الهيبة والرهبة والخشوع والبكاء «مالم يسبق له نظير».

وأخيراً يختم الإمام محمد رشيد رضا مشاهداته بما رآه من المتسولين والفقراء في مكة والحجاز، فهم أول من يستقبل الحجاج قبل دخولهم مكة، وآخر من يشيعهم منها عائدين إلى بلادهم ، وكذلك شأنهم عند الخروج من مكة إلى منى فعرفات وعند العودة من منى بعد انقضاء أيامها وأكثر هؤلاء المتسولين من صغار السن من الصبيان والبنات يقل فيهم المراهقون والمراهقات فتراهم يحيطون بالحجاج من كل جانب رافعين أيديهم إلى الهوادج وألسنتهم تكرر الأدعية المناسبة للأوقات ، وفي هذا السياق يصف مشهد المتسولين وهم يختطفون الحبوب التي توضع لحمام الحرم ليسدوا بها جوعهم وحاجتهم.

ثم يصف البيوت في بحره وهي العشش حيث لم يرها أثناء قدومه في فترة المساء والليل، ولكنه الآن رآها وقت العودة وقد نزل في أحدها «وقد رأيتها فوق ما كنت أحب، رأيتها دوراً في كل دار بيوت من العيدان وبيت خلاء لها حائط منها يفصلها عن غيرها من الدور بحيث يكون النساء في كل منها في ستر تام غير معرضات لأعين أهل الدور المجاورة لها».

وبهذه المشاهد والصور والملاحظات التي ذكرها الإمام محمد رشيد رضا في رحلاته ومذكراته يتضح عمق رؤيته الدينية، وروحانيته الإسلامية وذاكرته الحافظة وتعليقاته الواضحة مما يجعلنا أمام قيمه وقامة ثقافية وفكرية.

رابعاً: الاستنتاجات:

ومن كل ما سبق نقف على جملة من الاستنتاجات التي توجز ما فصلناه في الدراسة البحث، وتؤكد على المعطيات التي تحرك في ضوئها الإمام محمد رشيد رضا لرصد مشاهداته ومذكراته لهذه الرحلة الحجازية التي تمكن فيها من أداء فريضة الحج وهي كما يلي:

أولاً: الظروف السياسية التي حصلت فيها هذه الرحلة والحج، وأثرها في العالمين العربي والإسلامي، ودور منطقة الحجاز في استثمار هذه الحالة السياسية لبناء دولتها العربية الجديدة . ففي هذا الصدد كانت المذكرات تشير إلى الحرب العالمية الأولى ودخول الدولة العثمانية فيها ودور الشريف حسين في الثورة العربية ضد الأتراك واستقلاله بالحجاز والعمل على تشكيل الحكومة العربية المستقلة، وآثر ذلك كله على الحج وسلامة الحجيج في ذلك العام 1334هـ / 1916م.

ثانياً: موقفه من حكومة الاتحاديين في تركيا التي كانت السبب في إنهاء الحكم العثماني عن البلاد العربية ورغبة هذه الشعوب للتخلص من الحكم التركي وقادته من جماعة الاتحاد والترقي كما يقول «أو باش من الملاحدة المارقين... وهمهم جمع المال... وليسوا

على دين الإسلام... وفعلوا في الدولة الفساد والتخريب... وقد خسرت الدولة العثمانية في عهدهم الكثير من الممالك والولايات...».

ثالثاً: تأييده للدور العروبي الذي قام به الشريف حسين من الاستقلال بالبلاد الحجازية وخروجه على النظام التركي ويعتبر هذا العمل «أعظم خدمة للإسلام في هذا الزمن» ذلك أن الدولة العثمانية في حالة احتضار وربما تغلبت عليها القوى العظمى فسقطت الحجاز وما بها من الحرمين الشريفين في يد الأعداء الأوربيين ولذلك قام الشريف حسين «بإنقاذ الحرمين وما حولها من هذا الخطر الجسيم ووضع أقوى أساس لحفظ الاستقلال الإسلامي بإنشاء دولة جديدة له»، كما يقول. وفي هذا دلالة على شدة قومية الإمام محمد رشيد رضا وانتمائه الوطني والقومي والوقوف ضد الاتحاديين الأتراك.

رابعاً: شعوره وابتهاجه بالحكومة الجديدة التي تشكلت في الحجاز على يد الشريف حسين وهم من كبار رجالات الحجاز المخلصين وما تحقق على أيديهم في هذا العهد من تجديد وتطوير وما يؤمل منهم في المستقبل القريب .

خامساً: الإشادة بالأمن في منطقة الحجاز وخاصة في الطريق الذي يمر منه الحجيج بين جدة ومكة حيث تحقق كثيراً من الأمن والقضاء على قطاع الطرق من أعراب البادية وإقامة المراكز الأمنية للإشراف الأمني. وفي هذا السياق يجيء وصفه للشريف حسين وسياسته الداخلية والخارجية وحزمه وعزمه على التطوير والتغيير.

سادساً: والغريب في هذه الرحلة الحجازية أن الإمام محمد رشيد رضا لم يقم بزيارة المدينة المنورة كعادة كل الرحالة والحجاج الذين يقرنون بزيارة الحج زيارة مسجد المصطفى صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة. وربما كان السبب أن الشريف حسين لم يستطع حتى ذلك الوقت - ضم المدينة إلى حكم الحجاز ولازالت في يد الحكومة العثمانية والحرب مستمرة آنذاك، فتعذر مع هذا الظرف القيام بهذه الزيارة المأمولة.

سابعاً: ولعل أطرف ما يمكن استنتاجه من هذه الرحلة هي هذه اليوميات التي أستغرقتها الرحلة :

- من القاهرة إلى السويس السبت 25 القعدة 1334هـ بالقطار وكتب خطأ (25 صفر).
- من السويس إلى جدة الأحد 26 القعدة 1334هـ بالباخرة (النجيلة).
- الاثنين 27 القعدة.
- الثلاثاء 28 القعدة.
- الأربعاء 29 القعدة وصول الباخرة إلى شواطئ جدة.
- صباح الخميس 30 القعدة الدخول إلى جدة.

وهذا يعني أن الطريق البحري من السويس إلى جدة استغرق أربعة أيام، من ضحوة الخميس 30 القعدة إلى عصر السبت 2 الحجة. البقاء في جدة وآداء صلاة الجمعة واستقبال العلماء والكبراء من رجالات جدة والحجاز.

- من عصر السبت 2 الحجة إلى صباح الأحد 3 الحجة السفر إلى مكة بواسطة الدواب (الجمال والحمير) وهذا يعني أن الرحلة استمرت زهاء 12 ساعة يتخللها أوقات الراحة والعشاء في المقاهي والاستراحات في بحرة التي وصلوها في منتصف الليل وقهوة سالم التي صَلَّوا فيها الفجر.
- ما بين الأحد 3 الحجة إلى الجمعة 8 الحجة يوم التروية. الإقامة في مكة والصلاة في الحرم والالتقاء بكبار العلماء ورجال الحكومة وحضور مجالس الشريف حسين.
- مساء يوم الجمعة 8/ الحجة. الصعود إلى عرفات والغريب هنا أن الإمام محمد رشيد رضا لم يقض هذا اليوم في منى كما هي السنة النبوية بل قضاه في مكة وذلك لظروفه. وقد استغرق الصعود إلى عرفه 6 ساعات بواسطة الجمال.
- ما بين 9/ الحجة إلى الأربعاء 13/ الحجة أداء النسك من الوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة ورمي الجمار بمنى والمبيت ليالي التشريق وحضور حفل الشريف يوم العيد 10/ الحجة.
- الأربعاء 13/ الحجة: وقبل الأصيل كانت النفره من منى إلى مكة في ختام مناسك الحج.
- الخميس 14/ الحجة: كان سفر المحمل المصري من مكة إلى جدة.
- الجمعة 15/ الحجة: دخول الكعبة وطواف الوداع ولقاء الشريف حسين فوداعه (بعد العصر) وفي المساء غادر إلى جدة بعد المغرب مباشرة.

السبت 16/ الجمعة : الوصول إلى جدة قبيل الفجر وهذا يعني أن السفر بين مكة وجدة استغرق الليل بطوله حوالي 10 ساعات.

- وقبيل الظهر غادرت السفينة النجيلة جدة متوجه إلى السويس.

وبذلك تنتهي هذه اليوميات لحجة الإمام محمد رشيد رضا التي سردها في مذكراته / رحلته. هذا على المستوى المضموني لتلك الرحلة، لكن على المستوى الأسلوبي فإننا نستنتج مايلي :

1 - كثرة الاستطرادات والخروج عن الموضوع الذي يتحدث فيه مما يفقد المذكرات تسلسلها في ذهن القارئ ، وتشتيته وإبعاده عن جو الرحلة ومن ذلك استطراده في الحلقة الثانية من المذكرات عن الوداع والسفر وما قيل فيه من الشعر وحالات القلوب المودعة ولوعة الفراق وفوائد السفر ، واستطراده في الحلقة الخامسة عن بني شيبة ومفتاح الكعبة وبعض الشخصيات المكية ، واستطراده في الحلقة الثانية عن منى وارتباطها بالشعر الغزلي ومعاكسات النساء الأمر الذي جعله يستغرق كامل الحلقة .

2 - الاقتباس والنقل من المرجعيات المتوفرة له من رحلات الحج الحجازية السابقة عليه مثل رحلة ابن جبير، ورحلة البتنوني ، ورحلة إبراهيم رفعت باشا . وكذلك الاستفادة من كتب الشعر والأدب ، وكتب التاريخ كالطبري ، وكتب الأحاديث ، والجرائد المصرية كالرائد ، والجرائد الحجازية كالقبلة .. وغيرها من المرجعيات التي بينها في مذكراته مما يدل على توثيقه وأمانته العلمية في الإسناد والتوثيق .

3 - الربط بين ما يشاهده في الحجاز من مواقع أو رجال وما يتذكره من ذكريات سابقة مع نفس الأشخاص في أماكن أخرى من رحلاته السابقة وذلك من مثل التقائه بالسيد عبدالله الزواوي في مكة فتذكر على التو - صديقه الشيخ يوسف الزواوي من كبار تجار مسقط وما كان بينهما من ألفة وصداقه.

وهكذا فإن هذه الرحلة الحجازية ، والحجة المباركة التي قام بها الإمام محمد رشيد رضا ووثقها في مذكراته تعطينا دلالة أكيدة وكبيرة على المنزلة العربية والإسلامية التي كان يتمتع بها - رحمه الله - وهذا ما جعل الشريف حسين يأمر بحسن استقباله ووفادته وإكرامه وتهيئة كل سبل الراحة والتسهيل لأداء حجته في يسر وسهولة هو ومرافقيه وذلك منذ وصوله جدة وحتى مغادرته إياها.

* * *

الخاتمـــة:

. . . وبعـــد:

فقد كنا مع واحدة من أبرز رحلات الحج المباركة إلى الأراضي المقدسة أراضي الحجاز، تعرفنا فيها على متطلبات الرحلة واستعداداتها والظروف التي تمت فيها، كما تعرفنا على مجمل جوانب المسيرة الروحية الإيمانية لهذه الشعيرة المقدسة كما فاضت بها مشاعر الإمام محمد رشيد رضا منذ دخوله في الإحرام والتلبية ومروراً بالطواف والسعي والوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة وليالي منى والإفاضة إلى الحرم وطواف الوداع ودخول الكعبة المعظمة وأثر ذلك كله على مشاعره ويقينياته.

كما تعرفنا على آراء الإمام في الشريف حسين ودولته الفتية ورجال حكومته وما يتطلب ذلك من الأمور السياسية والاقتصادية والأمنية وغيرها.

إضافة إلى التعرف على كثير من الاستطرادات التاريخية الشعرية ومناسك الحج والذكريات وغيرها. وكل ذلك يجعل من الأهمية بمكان قراءة هذا السفر المبارك والتعرف عليه والتعريف به وهو ما نأمل أن نكون قد وفقنا في القيام به.

والحمد الله رب العالمين.

جدة 1427/7/6هـ

الهوامش والمراجع

(1) مقال بعنوان: محمد رشيد رضا (سبعون عاماً من الغياب) منشور عبر الشبكة العنكبوتية (الانترنت) بتاريخ 2005/9/10م .

(2) الدكتورة نازك سابا يارد: الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة (الصراع الفكري والحضاري) بيروت: مؤسسة نوفل، الطبعة الأولى 1979م، ص489.

(3) الدكتور يوسف إيبش : رحلات الإمام محمد رشيد رضا . بيروت . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى 1971م ، ص 92-210.

(4) نفسه ، ص97، ص 103.

(5) نفسه ص 105 .

(6) نفسه ص 108 .

الثمار القطاف في الارتسامات اللطاف
«شكيب أرسلان.. ورحلته إلى الأراضي المقدسة»(*)

مقدمة:

في واحدة من أهم الرحلات الحجازية، يقف المتأمل والقارئ الواعي على جملة من الموضوعات والقضايا المتعلقة بالحج والأماكن المقدسة في فترة من أهم فترات تاريخنا الحديث وهي بداية العهد السعودي في الحجاز ونهاية عهد الأشراف والحكم العثماني.

تلك هي رحلة الأديب الكبير والملقب بـ أمير البيان شكيب أرسلان المسماة... «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف/ الرحلة الحجازية لأمير البيان ونادرة الزمان».

التعريف بالرحلة/ الكتاب:

تعتبر هذه الرحلة من أوائل الرحلات الحجازية التي كان مقصدها الحج والأراضي المقدسة في بداية الحكم السعودي على مكة المكرمة والحجاز عام 1348هـ/1930م والتي وثقها صاحبها في

(*) نشرت في مجلة الحج والعمرة، السنة الثامنة والخمسون، العدد الخامس، جمادى الأولى 1424هـ.

سفر جليل يحمل العنوان أعلاه، حيث كتبه وألفه في لوزان بسويسرا في الخامس من ذي الحجة عام 1349هـ/ 22 إبريل 1931م وبعث به إلى السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الذي اطلع عليه وعلق حواشيه وصححه وأشرف على طبعه لأول مرة في شهر محرم عام 1350هـ بالقاهرة. وفي هذا توثيق لكل ما ارتسم في مخيلة الأديب الكبير أمير البيان/ شكيب أرسلان - أثناء أداء فريضة الحج من مشاهد ومواقع وأحداث.

لقد بدأ المؤلف الجليل في نشر هذه الرحلة في مجلة الشورى ثم توقف عن نشرها ليخرجها في هذا الكتاب الذي أهداه لجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود «تذكاراً لجيل الأمن الذي مد على هذه البلدان سرادقه، وعرفاناً لقدر العدل الذي وطد فيه دعائمه وناط بالإجراء مواثيقه وابتهاجاً بالملك العربي الصميم الذي صان للعروبة حقها وللإسلام حقائقه» كما يقول في المقدمة.

وفي هذه الرحلة يصف الكاتب سيره من سويسرا عبر طريق البحر إلى بورسعيد في مصر ومنها إلى الحجاز حيث مر في طريقه البحري برابغ وجدة وهذا هو الطريق البحري الذي تسلكه رحلات الحج من مصر.

وعندما يغادر جدة إلى مكة يصف الطريق ما بين المدينتين وما صادفه من مشاهد وحوادث ومشكلات. ثم يفرد فصولاً خاصة بمكة والحرم والمشاعر المقدسة وما شاهده أو لاحظه أثناء الوقوف بعرفات والاختلاف بين الشيعة والسنة في تحديد يوم الوقفة كما يشير إلى قضايا الماء وندرتها وعين زبيدة والحلول السعودية لحل هذه المشكلة.

كما يصف أحوال المطوفين بمكة والمزورين بالمدينة ويتعرض لمسألة الأوقاف بالمدينتين واعتداء بعض الحكومات على ما أوقف منها للحرمين الشريفين.

ثم يذكر بعض القضايا والمسائل المتعلقة بصحة الحجيج ودور الحكومات العربية في توعية الحجاج قبل وصولهم إلى الأراضي المقدسة، ثم يعقد فصولاً متعددة يُعرِّف فيها بالطائف التي ذهب إليها مستشفياً من مرض ألمَّ به ويصف كثيراً من المشاهد والمواقف في هذه المدينة الحجازية!!

وفي كل هذه الطروحات تبدو روح الأديب والكاتب الذي جمع بين الشعر والأدب والسياسة والتاريخ، ومن أجل ذلك سمي أمير البيان فمن هو؟!.

التعريف بالرحالة/ المؤلف:

إنه الأديب/ السياسي/ المؤرخ/ الشاعر/ الكاتب: شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان، لبناني من منطقة الشويفات، ولد عام 1286هـ/1869م، تعلم في مدارس لبنان، وأقام مدة بمصر، وشغل كثيراً من المناصب القيادية على عهد الدولة العثمانية، بعد الحرب العالمية الأولى، هاجر إلى جنيف وعاش بها خمسة وعشرين عاماً، عاد بعدها إلى لبنان وتوفى في بيروت عام 1366هـ/1964م ودفن بمسقط رأسه الشويفات.

ويعتبر شكيب أرسلان أحد المفكرين العرب الذين رسموا الطريق الفكري للنهضة العربية، وأحد الزعماء السياسيين الذين قاوموا الاستعمار فرد عليه المستعمرون بالتهجير والنفي عن وطنه.

كما يعد شكيب أرسلان أحد المنادين بالوحدة العربية، والمؤمن بهذا المستقبل المأمول وأنشأ لهذا الهدف مجلته الشهيرة «الأمة العربية» في جنيف عام 1930م.

له العديد من المقالات المنشورة في مجلات المؤيد والمقتطف والمقتبس والأهرام والمنار ومجموعة من الكتب المطبوعة وأهمها:

الحلل السندسية في الرحلة الأندلسية.

لماذا تأخر المسلمون.

شوقي أو صداقة أربعين سنة.

رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة.

ديوان شكيب أرسلان.

التعليق على كتاب حاضر العالم الإسلامي.

أطلق عليه أمير البيان أسوة بأحمد شوقي أمير الشعراء وهو لقب متحول عن (إمام المترسلين) الذي نعته إياه الشاعر المهجري خليل مطران.

ويبدو أنه لقِّب بذلك لأنه كاتب كثير العطاء، جميل البيان، غزير الإنتاج، أحصى ما كتبه عام 1935م فكان كالتالي:

1781 رسالة خاصة.

176 مقالة نُشرت في الجرائد.

1100 صفحة في كتب مطبوعة.

أورد ذلك في رسالة إلى صديقه السيد هاشم الأتاسي قائلاً: «وهذا محصول قلمي في كل سنة».

ويشير عبدالرزاق كمال أن أحمد شوقي أمير الشعراء هو الذي لقبه بهذا اللقب أمير البيان وذلك عام 1890م عندما استقر في مصر وتعرّف على رجالات الفكر والأدب والسياسة فيها.

ومن خلال هذا التعريف بالكتاب والمؤلف يبدو أننا أمام حصيلة معرفية تكتنز كثيراً من الطروحات والأفكار والقضايا القابلة للبحث والتعريف والمداخلة والتوضيح لموضوعات هي أشبه بالثمار اليانعة التي تستحق منا القطاف والعناية، ومن القارئ الكريم المتعة والقبول.. وهذا ما جعلنا نسمي هذه المقالة (الثمار القطاف في الارتسامات اللطاف) وسنصب حديثنا هنا عن ثلاثة محاور فيما يلي تفصيلها:

المحور الأول: الملاحظات والمشاهدات في مكة ومشاعر الحج:

من جدة يبدأ أمير البيان حديثه عن مكة ومشاعر الحج، لأنها المدخل الرئيس والميناء الهام الذي يصل إليه الحجاج ثم ينقلون منها إلى مكة المكرمة. وهنا نجده يصف البحر في جدة وصفاً بليغاً معجباً بما يراه ويعيشه فلون ماء البحر يلفت انتباهه بالصفاء والنقاء وتعدد الألوان التي تشبه ألوان قوس قزح ويعلل ذلك بوجود الأعشاب والغابات البحرية والشعب المرجانية التي تكسو قاع البحر الأحمر قبالة شواطئ جدة والتي تنعكس عليها أضواء الشمس فتبدع منظراً ذا ألوان أخاذة ما بين الأحمر والأصفر والأخضر في تمازج يخلب الألباب مما يدفع بعض الحجاج والبحارة إلى البحث عنه في أسواق جدة لاقتنائه والحصول عليه.

كما يشير هنا إلى كثرة السفن والبواخر التي ترسو عند الميناء فيما يربو عددها عن أربعين أو خمسين باخرة وذلك لكثرة أعداد الحجاج القادمين من بلاد الله الواسعة.

وأما العمران والبناء في جدة فيصفه أمير البيان بأنه لا بأس به ويشبه إلى حد كبير طراز العمارة والمباني في القرون الوسطى حيث الرواشين الكثيرة اللطيفة.

ثم ينتقل في رحلته إلى مكة المكرمة حيث يصف الطريق الذي سلكه من جدة إلى مكة ووسيلة المواصلات، فأما الطريق فرملي شديد الحرارة تحيط به الجبال والتلال والصخور السوداء من جانبي الطريق، والذي يفتقد إلى الخضرة والأشجار الظليلة مما يحتم على مجاوري هذا الطريق من أبناء البادية الحجازية أن يقيموا المقاهي والاستراحات المبنية من الأعشاش للراحة والتزود بالمؤونة حتى يواصل الحجاج سيرهم إلى مكة. وهنا يشير إلى كثرة القوافل المكونة من الجمال والحمير التي تحمل الحجيج وأمتعتهم من جدة إلى مكة وهي وسيلة المواصلات المتوفرة بكثرة لأن السيارات لا تمثل إلا نسبة ضئيلة جداً ولا يستخدمها إلا رجال الحكومة السعودية فيما يبدو، فقد ذكر أمير البيان أنه انتقل من جدة إلى مكة بواسطة السيارة التي أمّنها له الملك عبدالعزيز آل سعود وقد استغرق المسير إلى مكة حوالي أربع ساعات وهذا يدل على سوء الطريق وعدم تمهيده ووعورته الأمر الذي يدعو إلى طول الزمن والمدة التي يقضيها المسافر بين جدة ومكة المكرمة.

وما إن وصل ركب أمير البيان إلى مكة حتى بادر بزيارة الحرم الشريف لأداء طواف القدوم والسعي والتمتع برؤية الكعبة المشرفة وشرب زمزم ثم يفرد فصلاً كاملاً عن مكة المكرمة وما جاء في

المصادر والمراجع المعتبرة عن صفتها ومكانتها المعنوية وكعبتها البهية ورزقها من جميع الأغذية والثمرات.

ثم ينتقل بنا - أمير البيان - إلى بداية المناسك لشعيرة الحج التي جاء من أجلها فيصف وقفته بعرفات يوم التاسع من ذي الحجة حيث وصلها من منى في ساعة الغلس (آخر الليل) فكانت أشبه بسماء في كواكبها وطرائقها منها بسهول وهضاب في خيامها وقبابها المضروبة، ومصابيحها المعلقة، ونيرانها المشبوبة، فارتسم هذا المنظر في خاطره حتى لا ينساه - كما يقول - لأنه من أهم الصور وأزكاها لا يشبع منه الرائي مطلقاً ولا يزداد به إلا ابتهاجاً.

وكذلك كانت عرفة في النهار حيث حركة جموع الحجيج وتراص قبابها وما يحيط بذلك من آيات الخشوع والتضرع وصوت الدعاء والداعين والملبين المكبرين في ذلك اليوم العظيم يوم الوقفة الكبرى.

ويشير أمير البيان إلى انقضاء يوم عرفة والإفاضة إلى مزدلفة حيث يفيض جميع الحجيج في سكون ووقار وخشوع وابتهال وكان عددهم حوالي (مائتي ألف نسمة) وكان منظر القوافل والجمال المحمولة عليها الهوادج، والركبان والفرسان والمشاة على الأقدام مما يسترعي الانتباه.

ومما لاحظ أمير البيان في هذا الإطار تأخر حجاج الشيعة عن الإفاضة إلى مزدلفة وبقائهم في عرفات لليوم التالي لأنه ثبت أن يوم الوقفة خلاف يوم الوقفة لدى أهل السنة والجماعة أهل الحجاز وفي هذا فرقة للإسلام والمسلمين.

كما يذكر أمير البيان - في هذا الصدد - الزمن الذي قضاه في سيره من عرفات إلى منى وهو أكثر من خمس ساعات من بعد المغرب إلى نصف الليل وكانت وسيلة المواصلات السيارة ويبدو أن هذا التأخير بسبب كثرة الحجيج والقوافل.

ومن الملاحظات والمشاهدات التي يدونها أمير البيان في رحلته هذه، نقص المياه في الحجاز بصفة عامة ومكة بشكل خاص، وتزداد هذه الإشكالية في موسم الحج، ويشير في هذا الصدد أن هذه المشكلة أزلية ومنذ القدم لطبيعة المناخ الصحراوي لأراضي الحجاز وقلة الأمطار ولكن هيأ الله من القادة العظام وأهل الأموال من ساهم في حل جزء من المشكلة وذلك بحفر الآبار وإجراء العيون مثل السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد، ولما جاء العهد السعودي أسهم الملك عبدالعزيز آل سعود في القضاء على هذه المشكلة فزاد سبل الماء في مكة ومنى وأسس معملان للثلج للمساعدة في توفير الماء البارد المثلج ليرتوي منه الحجاج العطاش في موسم الحج!!.

وأخيراً نقف على أحوال المطوفين والمزورين الذين تحدث عنهم أمير البيان في رحلته التي نحن بصددها، فأشار على أن الحجاز دون سائر الأقطار يتميز بطائفتين ليس لها وجود في سواه وهاتان الطائفتان هما المطوفون الذين يقومون بخدمة الحجاج في مكة المكرمة ويسهلون أمر الطواف بالبيت الحرام ومناسك الحج. والمزورون الذين يقومون بخدمة الحجيج في المدينة المنورة ويرشدونهم إلى المزارات والمآثر التاريخية.

وقد كتب كثير من الرحالة عن هاتين الطائفتين ودورهم السلبي تجاه الحجاج من حيث المغالاة في الأسعار ونهب الأموال بغير وجه حق والغش في المعاملة، ولكن أمير البيان يوضح ويجلي هذه المسألة فيجد لهم العذر في بعض ما يقومون به لأن مصدر رزقهم من هذه الأعمال التي يؤدونها وقد يوجد بعض ضعاف النفوس الذين يمارسون هذه الأعمال الشاذة.

ولكن في الجملة فالمطوفون والمزورون يقومون بخدمات جليلة يحتاج إليها الحاج بشكل كامل منذ أن يصل إلى جدة ويهيئ له المسكن المريح والمواصلات وتأمين الحوائج وتعريفه بالمناسك والمشاعر وإذا أراد الزيارة هيأ له متطلبات السفر الحديثة المتوفرة.

ويعجب أمير البيان - في هذا الإطار - من تمكن المطوفين والمزورين من لغات شتى غير العربية بحكم اختلاطهم بالحجاج. وكذلك يلمح إلى التنظيم الرائع والتنسيق بين المطوفين لاقتسام الدول الإسلامية بين المطوفين فلكل قطر إسلامي أو عربي مطوفهم الخاص المعروف الذي يتعاقدون معه من عام إلى عام، ولا يستثنى من هذه الأقطار إلا نجد والحجاز فليس لهما مطوفين لأنهم من أهل البلد ولا يحتاجون إلى خدمات المطوفين أو المزورين.

المحور الثاني: الملاحظات والمشاهدات في الطائف وما حوله من القرى:

يعتبر الطائف أحد أهم المدن الحجازية بعد مكة والمدينة وجدة، ولقد حظي بزيارات العديد من الرحالة العرب الذين وفدوا إلى الحجاز من أجل الحج ثم قصدوا الطائف للتعرف والاطلاع ومن هؤلاء الرحالة العياشي ومحمد صادق باشا وخير الدين الزركلي وغيرهم كثير.

ولكن الذي يهمنا هنا هو أمير البيان الذي أورد فصولاً كثيرة في رحلته التي بين أيدينا للحديث عن الطائف والقرى المحيطة بها، فتراه يشير إلى سبب سفره إلى الطائف بعد انقضاء موسم الحج، فلقد أصابه شيء من المرض بسبب الحر الشديد وزحمة الحجاج سواء في الباخرة الهندية التي سافر عليها أو في مكة المكرمة والمشاعر المقدسة فكان خروجه للطائف لطلب الاستشفاء لبرودة جوها وعليل هوائها وطيب مناخها.

ويشير - في موطن آخر - أن رحلته وإقامته في الطائف امتدت لثلاثة أشهر شاهد فيها كثيراً من المواقف وسجل كثيراً من الانطباعات ونقل مجموعة من التواريخ عن هذه المدينة العريقة والجليلة — كما يقول -.

لقد كان مسيره إلى الطائف من مكة عبر الطريق المنبسط المعروف حالياً - بطريق السيل - خلافاً للطريق الجبلي المعروف بجبل الهدا، فمر بالشرائع ثم الزيمة ثم بذات عرق (السيل) ثم القهاوي (موقع سوق عكاظ الشهير) ثم وصل الطائف حيث توقف عند أحد المعالم الرئيسية والهامة وهو قصر شبرا ويصفه بأنه «شاهق حوله بستان طويل عريض هو أكبر بستان في الطائف».

وفي وقفة تاريخية يشير أمير البيان إلى سوق عكاظ - منتدى الجاهلية المعروفة، فيبسط القول فيما ذكره المؤرخون والأثاريون عن هذا السوق ومكانه وأهميته الأدبية والتاريخية، واختلاف الناس على تحديد مكانه فمنهم من يقول أنه (القهاوي) ومنهم من يقول

إنه (القانس) ويحاول أن يوفق بين الآراء فيقول «أفلا يحتمل أن يكونوا قد أقاموا السوق مرة في (القانس) ومرة في المكان المسمى بـ(القهاوي)»؟!!.

ولكن الذي تم الاتفاق عليه حالياً - بعد العديد من الدراسات والبحوث الآثارية - أن موقع السوق هو ما يعرف اليوم بـ (العرفاء).

وهناك وقفات كثيرة عند المناطق والقرى المحيطة مثل الهدا والشفا والسلامة والمثناة والوهيط، كما نجد له أحاديث عن مياه الطائف وعذوبتها وطيب الفواكه والثمار التي نبتت في مزارع الطائف وكذلك الحديث عن الجبال والوديان والأشجار والصخور والآثار وأماكن التنزه.

ولعل أجمل إشارة يمكن المداخلة معها - في هذا الإطار - هو إشارته إلى لغة أهالي الطائف وخاصة قبيلتي هذيل وثقيف التي لم تخالطها العجمة وإنما ظلت صافية ويستشهد على ذلك بأحد الفتية الذين قابلهم في ضاحية الشفا حيث سأله عن أحوال الديار فرد عليه الفتى بقوله: "سقا الله الفرع، فيها من فضول الله ما لا يحصى.. ويعلق أمير البيان قائلاً أعجبني جداً كلامه وخاصة (فضول الله) حيث جمع فضل على فضول بينما أهل الشام يجمعونها أفضال وهذا خطأ(*).

(*) للتوسع والتفصيل عن هذه الرحلة، انظر محاضرتنا في نادي الطائف الأدبي مساء يوم الثلاثاء 1423/4/28هـ، والتي نشرت في كتابنا: في آفاق النّص التاريخي، بعنوان: «أمير البيان في ربا المثناة.. وذرى غزوان» ص ص 415-435.

المحور الثالث: شهادته على التغير الإيجابي في العهد السعودي:

منذ أن وصل أمير البيان إلى الحجاز، يتضح أنه كان ضيفاً على الملك عبدالعزيز آل سعود، وذلك لأنه شخصية قومية عربية وأدبية لها دورها العروبي الواضح، ولأنه يستحق الحفاوة والتقدير فقد سهل الملك عبدالعزيز كل وسائل النقل وإمكانات التنقل حتى يلمس التغيير الإيجابي الذي أحدثه العهد السعودي في الحجاز من تقدم وعمران وأمن وعدل ونظام.

كان استقباله أولاً وإقامته في منزل وكيل الخارجية فؤاد حمزة بك، وقابل الملك عبدالعزيز في أول أيام وصوله إلى جدة وأعجب بشخصيته حتى قال فيه:

«ثم شاهدت جلالة ملك هذه الديار وخادم الحرمين الشريفين وكان في جدة فوجدت فيه الملك الأشم الأصيد الذي تلوح سيما البطولة على وجهه والعاهل الصنديد الأمجد الذي كأنما قُدَّ ثوب استقلال العرب على قَدِّه فحمدت الله على أن عيني رأت فوق ما سمعت أذني وتفاءلت خيراً في مستقبل هذه الأمة....... إلى أن يقول!.

ركبت بدعوة جلالة الملك ابن سعود - إلى يساره... وسرنا بمعيته مساء يوم وصولي وذلك إلى البلد الأمين حماه رب العالمين.

ومن مظاهر التغيير الإيجابي الذي أحدثه العهد السعودي، الاهتمام بتوفير ماء الشرب وتبريده وتهيئته لحجاج بيت الله الحرام «فأنشأ جلالته معملان للثلج في مكة فكان هذين المعملين من إزاحة العِلَّة وشفاء الغلَّة ما لا يخف على مَن يعلم حَرَّ مكة».

ولعل أكبر مظاهر التغيير الإيجابي الذي لمسه أمير البيان في الحجاز أثناء العهد السعودي هو الأمن والأمان، فقد أفرد له فصلاً خاصاً بعنوان: الأمن الشامل في بلاد الملك العادل الإمام عبدالعزيز آل سعود، أشار فيه إلى النقلة الحضارية والأمنية التي أحدثها الحكم السعودي في مجال الأمن والأمان حيث اختصر ذلك في عبارة قالها مجملةً «أما الأمان فقد توفر في أيام ابن سعود إلى حد لا يتطلع فيه متطلع إلى مزيد، وإنما يرجو دوام هذه النعمة». ثم فَصَّلها فيما بعد أثناء حديثه عن الطائف إذ يورد كثيراً من الأمثلة التي تدل على شمول الأمن وامتداده على كل الأقاليم التي ارتفعت فيها راية آل سعود».

ومن تلك الحوادث التي تدل على الأمن والأمان ما حصل لأمير البيان أثناء سفره إلى الطائف حيث سقطت عباءته السوداء الحساوية ولم ينتبه لها ومع كثرة المارين في هذا الطريق لم يجرؤ أحد أن يأخذها ووصل الأمر إلى أمير الطائف الذي أرسل من يحضرها وأعادها إليه!!

كما يذكر حادثة أخرى تدل على الأمن الوارف فقد كان أحد الجمّالة يحمل عِدلاً من شعير على دابته فمسَّها إعياء وتركها ليبحث عن دابة أخرى يَحمل عليها عِدْلَه ولما جاءه وجد في العِدْلِ ثقب سكين يتساقط منه الحب فأخبر الشرطة الذين قاموا بالبحث والتحري حتى اكتشفوا الرجل الذي اعتدى على العِدْل فجلده بالسياط لأنه حاول أن يعرف ما احتوى عليه العِدْل!!

ومن هنا ندرك أن الحكم السعودي أقر الأمن في البلاد السعودية وشعر الناس - المواطنون والمقيمون والحجاج والزوار - بهذه النقلة

الحضارية التي أصبحت سمة من سمات الحجاز التي وقف عليها وشاهدها وشهد عليها أمير البيان شكيب أرسلان!!.

استنتاجات ختامية:

ومن خلال ما سبق يمكن أن نقف عند أهم السمات التي تميز أسلوب الكاتب أمير البيان أثناء رحلته للحج في كتابه الارتسامات اللطاف وذلك فيما يلي:

1 - موسوعيته وإلمامه الثقافي الواضح وذلك من خلال الاستطرادات الكثيرة والكبيرة التي يضيفها إلى الموضوع الذي يتحدث فيه.

2 - الأمانة العلمية والموضوعية فهو يوثق كل ما يقوله من خلال مرجعيات معتبرة ويدل على ذلك أنه لم يدون مشاهداته فقط وإنما يضيف إليها كثيراً من المعارف والعلوم التي تفتح ذهن القارئ إلى موضوعات جديدة ومفيدة.

3 - عروبته وقوميته واعتزازه بالأمة العربية ومراهنته على وحدتها وأنها الأمل المتوقع ولو بعد مائة سنة أو أكثر وافتخاره بأرومته ونسبه العربي فمنذ دخوله جدة شعر بهذه الروح تسري في كيانه فالحاكم عربي مسلم ورجال الأمن عرب وإخوان وهنا تتمثل كل حسنات العروبة ومساوئ الحكم الأجنبي الذي عاناه في بلاد عربية أخرى يحكم فيها.

4 - اهتماماته الآثارية فقد وقف على العديد من الآثار والكتابات والنقوش ونسخ بعضها ليتسنى له قراءتها وتوثيقها ومن ذلك

ما وجده في جبل السكارى بالطائف واستعانته بالمختصين في علم الآثار وقراءة الخطوط القديمة مثل المستشرق الألماني مورتيز.

5 - عدم تصوير المواقع والمشاهد التي تحدث عنها ووقف عليها أثناء الحج وزيارة الطائف وهو الأمر الذي يضيف بعداً توثيقياً رائعاً مثل الرحالة الأجانب الذين كانوا يجوبون الجزيرة العربية ويصورون كل ما تقع عليه أعينهم ويجدر الكتابة عنه.

والحمد لله رب العالمين،،،

جدة 29/1/1424هـ



الدكتور عبدالغني شهبندر
في الحجاز سنة 1354هـ/ 1936م
من خلال كتابه «رحلة الحجاز»
دراسة وتحليل وتعليق(*)

مدخل وتمهيد:

... «ولما كنت شغوفاً بالأسفار ، ودرس طبائع البلاد والعباد ، فقد تاقت نفسي إلى ارتياد الأماكن المقدسة مرة ثانية في فصل الشتاء بين شباط وآذار للمقارنة بين مفعول العوامل الطبيعية بين الفصلين، وللوقوف على ما وصلت إليه الحالة العمرانية والاجتماعية في عهد جلالة الملك «عبدالعزيز آل سعود»، ولحسن الحظ فقد وقع اختيار إدارة الصحة والإسعاف العام في المفوضية العليا عليّ، لأكون طبيباً مرافقاً للحجاج ومندوباً من قبلها في مراقبة الصحة في الباخرة، فقمت بما وجب عليّ شاكراً من أولوني ثقتهم.

(*) نشرت في مجلة الحج والعمرة، السنة الثالثة والستون، العددين السابع والثامن، رجب، شعبان 1429هـ.

ولقد رأيت من الفائدة نشر هذه الرحلة تباعاً في مجلة الحكمة الأمر الذي وعدت به مشتركيها الأفاضل ليكون القارئ الكريم على بينة من الديار الحجازية ولتكون هذه البحوث دليلاً لمن فرض عليهم الحج ، ولقد رتبت فصول هذه الرحلة حسب ما شاهدت منذ سفري من بيروت إلى أن عدت إليها ....».

من خلال هذا المقتبس - أعلاه - الذي أورده مؤلف هذه الرحلة في بداية رحلته الحجازية يتضح لنا عدة أمور:

أولاً: أنه باحث، ومطلع، وحريص على الأسفار لدراسة طبائع الناس والبلاد وأحوالها.

ثانياً: رغبته في زيارة الأماكن المقدسة مكة والمدينة في فصل الشتاء ليرى الفرق بين مناخ المنطقة صيفاً وشتاءً.

ثالثاً: معرفة الأحوال السياسية/ والاجتماعية بعد أن دانت المنطقة للحكم السعودي.

رابعاً: أنه اختير لهذه الرحلة كونه طبيباً ومسؤولاً صحياً للإشراف الصحي على الحجاج الشاميين.

خامساً: أنه نشر هذه الرحلة (بداية) كمذكرات في مجلة الحكمة تنفيذاً لوعد قطعه على نفسه أمام قراء المجلة، ثم أعاد نشرها في كتاب.

وسادساً: (وأخيراً) أنه رتب هذه الرحلة /المذكرات حسب أحوال سفره منذ أن بدأها من بيروت وحتى وصوله مكة ثم العودة منها إلى بلاده.

ومن هنا يتضح أننا أمام كنز معلوماتي/ ثقافي مبكر يؤرخ لمنطقة الحجاز في بدايات الحكم السعودي وأحوال الحجاج الصحية وذلك في العام 1354هـ الموافق 1936م، الأمر الجدير بالدراسة والتحليل والتعليق عبر المحاور التالية.

الرحلة وكاتبها:

لعل أبرز ما يميز هذه الرحلة أنها حصلت في بداية عهد سياسي جديد في منطقة الحجاز حيث أصبح الحكم فيها لآل سعود بقيادة الملك المؤسس عبدالعزيز، وأنها رحلة تحمل الروح والثقافة العربية لبلاد الشام حيث أن من قام بها ينتمي إلى هذا الجزء من بلادنا العربية أضف إلى ذلك أنها رحلة تركز على الجوانب الصحية للحجاج وللأهالي في منطقة الحجاز ولا سيما في موسم الحج لذلك العام الذي تمت فيه عام 1354هـ/ 1936م، وبذلك فهي تحمل وجهة النظر الصحية لكون صاحبها طبيب ومشرف على الرحلة طبياً وصحياً.

وباستعراض سريع لهذا الكتاب/ الرحلة تبرز أمامنا ثلاثة معالم رئيسية تتمحور حولها كل معطيات هذا السّفر الممتع والشيق في موضوعه وغاياته ولابد من التداخل معها والتعريف بها. وأول هذه المعالم، الوصف الدقيق للمشاهدات التي يمر عليها ويقف عندها سواء المدن أو الأماكن أو الناس الذين قابلهم ، وضمن هذا ما يورده من المعلومات القيمة سواء في الجانب الديني أم التاريخي أم الجغرافي أم الاجتماعي وغيرها.

وثاني هذه، المعلومات الطبية والصحية التي عاشها أثناء موسم الحج.

وثالثها، الاقتراحات والتوصيات التي يقدمها للحكومة السعودية.

وبذلك يقدم لنا في هذه الرحلة/ الكتاب، صوراً جديدة لم تتعرض لها الرحلات الموازية والمعاصرة لها.

وأخيراً سوف نختم هذه المداخلة بوقفات وتعليقات واستنتاجات ختامية لمجمل ماجاء في هذه الرحلة الحجازية.

وأما الكاتب...

فهو الدكتور عبدالغني شهبندر، من بلاد الشام، طبيب متخصص في الأمراض الصدرية كاتب وعالم ومثقف، أنشأ مجلة الحكمة في بيروت ، وهى مجلة علمية اجتماعية طبية تبحث في المسائل الاجتماعية، وتعني بطرق الوقاية من الأمراض السارية، وتجلو الأسرار عن الفوائد الطبية للأعشاب.... كما جاء في التعريف بها على صفحة الغلاف الأخيرة.

ولعل خير ما نختم به هذا المحور ما جاء في الاستهلال الذي تحدث فيه العالم الفرنسي والطبيب المسؤول عن الصحة في بلاد الشام الجنرال الدكتور مارتن مدير الصحة والإسعاف العام في المفوضية العليا - في تقديمه وتقريظه للكتاب حيث أشار إلى قيمة الرحلة ومكانتها بقوله «إن كتاب (رحلة الحجاز) قد كشف لنا القناع عن رحلة تثير العواطف لجموع تحفزهم عاطفة دينية واحدة فتقودهم نحو الأماكن المقدسة الإسلامية .... ، وأن كتاب الدكتور شهبندر،

مع إيجازه ، صريح ، غزير المادة ، يصف فيه بأمانة ماراه بأم العين كطبيب ، وماشعر به بقلبه المؤمن».

ومن خلال ذلك كله يمكن المداخلة مع الكتاب تفصيلاً لما كان قد أو جزناه عبر المعطيات السابق ذكرها.

أولاً : الوصف والمشاهدات:

(1) من بيروت إلى جدة:

يبدأ المؤلف رحلته الحجازية التي انطلقت من بيروت، بوصف مختصر للمحجر الصحي الذي أقامته الحكومة في بيروت لجميع الحجاج القادمين بحراً والذين كان عليهم التجمع قبل يومين من سفرهم بالباخرة، ويشير في هذا الصدد إلى فخامة المبنى (مبنى المحجر الصحي في بيروت) وروعته والذي هيئت فيه كل سبل الراحة (الموقع، توفر المياه الغرف التي تتعرض للشمس والهواء) المسجد، المشفى، الإدارة الواعية التي تشرف على كل الفعاليات الإدارية والطبية بهذا المحجر برئاسة الدكتور أحمد شريف بك).

كما يشير في هذا الصدد إلى الأجرة الرمزية التي تتقاضاها إدارة المحجر للسكن والإقامة عن كل حاج وهي ليرة لبنانية سورية في الدرجة الأولى، وخمسين قرشاً لبنانياً سورياً في الدرجة الثانية.

ثم يصف وسيلة المواصلات البحرية التي أقلتهم من بيروت إلى الحجاز عبر السويس ثم ينبع ثم جدة . وهي الباخرة المعروفة باسم (الطايف) المخصصة لنقل الحجاج والتزاحم الشديد للحجاج عند الصعود إليها مما أحدث الكثير من الضرر والفوضى.

ومن المشاهد التي يقف عندها المؤلف هنا حالة البحر بين بيروت والسويس فقد كان شديد الاضطراب، مرتفع الأمواج شديد الهواء قارص البرد ،مما جعل السفينة تتمايل يمنة ويسرة والركاب يصابون بدوار الرأس والمتاعب النفسية حتى وصلت السفينة إلى بورسعيد ثم السويس.

وبعد استراحة قصيرة واصلت السفينة سيرها نحو رابغ من أراضي الحجاز وهنا يصف حالة الحجاج ونفسياتهم المرتفعة وزيادة الروحانيات بوصولهم إلى الأراضي المقدسة وما صاحب ذلك من تكبير وتهليل وإحرام للحج. ثم مواصلة السير نحو ميناء ينبع، التي يقف عندها المؤلف وقفة جغرافية وتاريخية يعرف بها ويصفها ويضع القارئ أمام صور ومشاهد واقعية.

فينبع: قرية صغيرة على البحر الأحمر... وسكانها لا يتجاوز 10,000، وفيها دار للحكومة والمالية والبريد، «ويلمس الزائر لهذه المدينة فقر أهاليها الذين يحيطون بالحجاج يتسولونهم وأكثرهم عراة الأجسام مع أن بعض الأهالي يشتغلون في التجارة بالعمولة لتجار المدينة».

وفى هذا الصدد يذكر القراء بضرورة الإحرام عند مبارحة رابغ واصفاً هذه الشعيرة ومقتضياتها، ثم يشير المؤلف إلى إحدى الشخصيات الطبية في المحجر الصحي بينبع وهو الدكتور رمزي بك وموظفي المحجر الذين استقبلوهم في الميناء «بألبستهم العربية شاكية السيوف والمسدسات، وحيوا الحجاج وآنسوهم وأظهروا لهم من اللطف والكياسة ما دل على كرم محتدهم وغزارة أدبهم» ص9.

ثم يعرج المؤلف إلى وصف منطقة الحجاز والتعريف بها جغرافياً وتاريخيا ودينيا وشعريا أرضاً وسكاناً، مستفيدا مما تذكره الأدبيات الجغرافية والتاريخية والدينية والأدبية فهي «مهد العروبة ومهبط الوحي وحرز الإسلام ...» وهى «جبل ممتد حاجز بين تهامة ونجد» وهى «تقع في الشمال الغربي من جزيرة العرب .. ومساحتها تتجاوز 385700 كيلو متراً ... ويمر فيها طريق الحج الشامي والمصري وليس فيها أثر للعمارة حتى تصل إلى العلا ».. «ويقدر عدد الأهلين - يعني السكان - في الحجاز بين المليونين والثلاث ملايين حسب تقدير سنة 1910م».

وما إن تصل السفينة (الطايف) إلى جدة حتى يباشر المؤلف في وصف الميناء وحالته، «فالسفينة تقف بعيداً عن الرصيف حذر الارتطام بالصخور الممتدة على طول الميناء وتقوم الزوارق الشراعية التجارية بنقل الحجاج والأمتعة من السفينة إلى الميناء، ويقبل موظفو المحجر والشرطة لاستقبالهم بكل ضروب اللين والكياسة مما جعل الناس يلهجون بالثناء والشكر» ص 10.

ثم يقف المؤلف ملياً عند وصف ميناء جدة معجباً بما شاهده في مياه البحر هناك حيث الشعاب المرجانية التي يغلب عليها اللون الأحمر الفاتح وصفاء مياهه وألوانه ولمعانها مؤكدا في هذا الصدد ما قاله أمير البيان شكيب أرسلان في كتابه «الإرتسامات اللطاف» في وصف هذه الشعاب المرجانية وجمالها .

وهنا يفرد المؤلف مساحة كبيرة لوصف مدينة جدة وشوارعها، نزلها وفنادقها، مبانيها، مياهها، سكانها، ملاهيها، مناخها، (ص15-20). وفى هذا الصدد يشير إلى ما يلي:

وجود نزلين/ فندقين أحدهما للحكومة السعودية والآخر للحكومة المصرية. فأما الفندق السعودي الذي نزل فيه فيصفه أنه يقع في محل فسيح على شوارع عريضة مجهز بأثاث نظيف وفيه (47) سريراً، والأسعار تتروح مابين 5 ريالات سعودي للدرجة الأولى وثلاثة ريالات في الدرجة الثانية».

ثم يصف جدة بأن لها سور قديم وفيه ستة أبواب: باب المدينة، باب الشريف، باب البحر، باب المغاربة ،باب الشهداء، ثم يصف قبر السيدة حواء في الجهة الشرقية من السور وطوله أربعون قدماً وعليه عدة قباب لكن الحكومة السعودية قامت بهدمها وحالت دون زيارة القبر والتوسل به «وهذا من أوليات الإصلاح التي قامت به الحكومة السعودية» كما يقول ص 16.

ثم يصف المباني والشوارع في جدة فيقول: إن بعض المباني من الأحجار وبعضها من اللبن وبعضها من الأجر وبعضها من الصفائح، ومباني الحكومة من القرميد، وترتفع الأدوار في بعض المباني من ثلاثة إلى أربعة وخمسة أدوار، وهى كثيرة النوافذ والرواشين، أما الشوارع فهي عريضة وغير مرصوفة ولاسيما التي تطل عليها المباني القنصلية، وهى نظيفة وترش بالماء أما بقية الشوارع فهي ملأى بالغبار والأوساخ!!

ثم يصف شح المياه في جدة وأن ما تقدمه «الكنداسة» - وهى آلة التقطير مياه البحر وتحليتها -، و«عين الوزيرية» لاتكفي لحاجة الأهالي ولذلك يضطرون إلى بناء أحواض كبيرة بجوار المساجد تملؤها مياه الأمطار ليتؤضأ منها الناس.

وأما سكان جدة فيصفهم المؤلف بأنهم من مختلف الأقطار والأمصار ولا يمتون للحجاز بصلة، وأكثرهم يتكلمون لغات مختلفة، وعلى هذا التمايز والاختلاف تختلف أنواع الملابس الشعبية، فالزي الرسمي السعودي هو الكوفية البيضاء والعقال النجدي والثوب الأبيض وعباءة رقيقة سوداء أوحمراء أوبيضاء «وهو زي موافق لمناخ تلك البلاد (يعني الحجاز) ومعتدل القيمة يشترك في لبسه الغني والفقير» كما يقول المؤلف ص17.

ويشير المؤلف هنا إلى وجود المقاهي في جده التي تقدم الشاي والقهوة، كما تقدم الشيشة والدخان بصورة خفية لأنها ممنوعة من الحكومة السعودية، ولكن يقال أن بعض رجال الشرطة يتغاضون عن التدخين في موسم الحج لئلا يشق على الحاج ترك ما اعتاد عليه.

كما يضيف هنا أن المسكرات لا تباع ولا تشترى في أسواق جدة إلا في دور القناصل ومن يمت إليهم بصلة، ورغم منع الحكومة وتشديدها في هذا الأمر «إلا أن بعضاً ممن لا أخلاق لهم وطنيين وأجانب يتخذون جميع السبل والوسائل لإدخال المسكرات والمخدرات والاتجار بها» ص18.

وقد أتيحت الفرصة للمؤلف أن يصلي صلاة الجمعة في أحد مساجد جدة، ولم يتجاوز هذه المسالة فأشار في رحلته إلى ذلك حيث يصف الناس وهم يسعون إلى ذكر الله عند ما نودي للصلاة من يوم الجمعة ، ومن تخلف منهم استدعتهم الشرطة وحضوهم على ترك أشغالهم والذهاب للمسجد، واكتظ الجامع بالمصلين واعتلى المنبر

خطيب نجدي «وتلا خطاباً أعده من قبلٍ ينصح المصلين على التمسك بالشريعة وطاعة ولى الأمر وذكر شيئاً عن الحج وفوائده الاجتماعية والدينية» وكان للخطاب وقع عظيم في قلوب المؤمنين دل على إخلاص الخطيب وصلاحه» كما يقول ص19.

ثم يصف المؤلف مناخ جدة الذي تذكره الأدبيات الجغرافية وليس ماعايشه المؤلف في تلك الفترة من العام وهو فصل الشتاء بين شباط وأذار حيث كان تواجده في جده مع حجاج ذلك العام 1354هـ/1936م فيقول «إن هواءها كثير الرطوبة ، شديد الحرارة ولذلك يؤثر في جسم الإنسان ، ويجعله عرضة للأمراض».

ثم ينهي المؤلف وصفه لجدة بحديث ماتع عن التجارة والنقود والعملة السعودية، فيقول إنها من أهم الموانئ الحجازية التجارية لأنها تستورد البضائع من الشرق والغرب ولاتصدر إلا الشيء القليل من الأسماك والجلود والصموغ والعطريات، وفي الأسواق تباع أنواع الأقمشة الشامية والهندية والسبح واللؤلؤ والمرجان والطنافس ، وأما وسائل المعيشة في جدة متوفرة وبأسعار معقولة إلإ أسعار الفاكهة كالبرتقال والليمون والتفاح والموز فأسعارها مضاعفة ، أما الأسماك فمتوفرة ورخيصة وتزداد رخصاً في موسم الحج، ولهذا السمك «أشكال وأنواع غريبة قلما يشاهد مثله في بلاد الناس» كما يقول المؤلف ص25.

أما العملات والنقود فيشير المؤلف إلى وجود حوانيت صغيرة على جانب الشارع الكبير في جدة تبدل فيها أنواع العملات ، وفيها

يجد الحاج بغيته من العملات المصرية والهندية والجنيهات الذهبية والبانكوت.

ويشير هنا أن للحجاز عملة خاصة سعودية عبارة عن ريالات أكبر من الريال المجيدي المعروف، وكل ريال سعودي يساوي «إثنين وعشرين قرشاً سعودياً» وكل قرش سعودي يعادل أربع هللات، والقرش السعودي يعادل ثلاثة قروش سورية على وجه التقريب وذلك على المعدل المالي للعام الذي حج فيه 1936م.

(2) من جدة إلى المدينة:

وفي طريقه إلى المدينة المنورة يصف مشاهداته التي بدأها منذ مغادرته جدة اليوم التاسع من شباط(*)، فالسيارة التي أقلتهم من نوع (الدوج) وكان الطريق محاطاً بالجبال، وليس ممهداً للسيارات، ولا توجد مزارع إلا بعض النباتات الشوكية التي ترعاها الغنم والأنعام، والبدو منتشرون على طول الطريق يستجدون المسافرين «وأكثرهم عراة الأجسام إلا ما ستر عوراتهم أما النساء فعليهن لفاع يسترن به أجسامهن وهن سافرات الوجوه يلتمسن الصدقات والإحسان، والأطفال يتحلقون حول السيارات وينشدون بعض الأناشيد التي تؤثر في نفس الحاج، ومنها:

ياسلام أكتب سلام بين زمزم والمقام

فاطمة بنت النبي وعلي سيد الكرام

(*) هنا خطأ في التاريخ ففي هذا اليوم (9 شباط) وصل المؤلف إلى ينبع ظهراً وغادرها (5 مساءً) ووصل إلى جدة يوم (10 شباط) كما يقول. ص ص 9-10. وربما غادر إلى المدينة في هذا اليوم أو اليوم التالي (11 شباط).

ومنها:

سيدى الحج ياعكة الله يوديــك مكـة

من مكـة للمدينـة من المدينة لبلادك

من بلادك لأولادك.....

ويؤكد في هذا المجال على الفقر المدقع والفاقة التي يعيشها أولئك البدو فلا بيوت تؤيهم ولازرع ولاموارد كما يقول.

ثم يصف المقاهي والاستراحات التي ينـزل فيها الحاج والسيارات للتزود بالوقود والماء والراحة وأهم هذه المحطات رابغ التي يصفها بأنها : قرية على البحر الأحمر ، بيوتها أكواخ من الحصير ، وفيها كثير من السمك ، وكثير من المقاهي ودائرة للحكومة يقيم فيها الجند السعودي للإشراف على راحة الجميع وهي قلعة قديمة من عهد الأتراك». ص27-28.

قضى صاحبنا في رابغ حوالي ساعتين - كما يقول - ثم تحركت السيارة في صحراء قاحلة وكانت الرمال تعوق السيارة وتوقفها عن العمل فيأتي البدو والحجاج ليتعاونوا على رفعها من الرمال.

ومن المشاهدات في هذا الإطار، قرية مستورة، وبئر الشيخ وأبيار بن حصاني وفيها مقاه كثيرة توفر المأكولات، والبطيخ فيها كثير بأبخس الأثمان، ويسمونه الحبحب، ثم قرية الحميراء «وهي ذات بساتين ونخيل وماؤها عذب ويزرع فيها الليمون والبرتقال والموز والبطيخ والقثاء وأهلها جماعه من البدو يسكنون الأكواخ ولا شيء فيها من العمران». ص28.

ثم يصف ما شاهده في قرية الجديدة حيث قبر الولي الصالح عبد الرحمن البرعي وفيها الماء متوفر وعذب بارد، والهواء معتدل لطيف ينشرح له الصدر . وكذلك يصف ماشاهده في آخر محطة قبل المدينة وهى أبيار على التي تبعد عن المدينة خمسة كيلو مترات ومنها يشاهد الحاج القبة الشريفة الخضراء، وهي قرية بها مزارع كثيرة وآبار ذات مياه غزيرة وفيها مسجد وهي واقعة في منبسط من الأرض ترتاح النفس إلى مناظرها ، وفيها كثير من المقاهي وبيوتها أكواخ صغيره من الحصير والقصب» كما يقول ص 30.

وبعد استراحة قصيرة في أبار على واصل المؤلف وجماعته الرحلة إلى المدينة حيث وصلوها في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم السادس عشر من شباط وهذا يعني أنهم قطعوا المسافة من جدة إلى المدينة في سبعة أيام على اعتبار سفرهم يوم 10 شباط.

وما إن دخلوا باب المدينة حتى ترجلوا عن سياراتهم وساروا على أقدامهم وقام رجال الحرس السعودي بالتفتيش المعتاد، ويشير هنا إلى ظاهرة جديرة بالتوقف عندها وهى منع تجول السيارات في أسواق وأزقة المدينة وذلك لشدة الزحام وضيق الطرقات ، كما يقول المؤلف، لكن الحاج العاجز لا يعدم وجود وسيلة مواصلات متواضعة وهي «عجلات» تحمل الحاج من البيت الذي ينـزل فيه . وكان نصيب مؤلفنا أن يكون «ضيفاً على الوجيهين الأخوين الشيخين مصطفى وجعفر الفقيه».

وهنا يصف حاله يوم وصل المدينة فقد كان في تعب وإرهاق من أثر السفر وقرر الاستراحة قبل زيارة المسجد النبوي فمكث في سكنه حتى

العصر ثم اغتسل وتوضأ ولبس أنظف الثياب وتطيب، وهذه مظاهر إيمانية/ تعبدية يستحب لزائر المدينة أن يمارسها.

ثم يصف وصوله إلى الحرم النبوي والصلاة فيه وزيارة الروضة الشريفة وقبر المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، عبر زحام شديد «ووقوف جماعات من الشرطة تمنع الناس من تلمس جدار الروضة».

والغريب هنا بل والجديد غير المعروف أنه بجوار القبور الثلاثة يوجد قبر السيدة فاطمة الزهراء حيث يشير إلى أنه بعد الانتهاء من السلام على الخليفة عمر بن الخطاب توجه نحو قبرها ولقنه المرشد دعاء التحية والسلام(*) ثم توجه خارج المسجد إلى مقابر البقيع حيث قبور الصحابة ومنهم الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وأبي سعيد الخدري والسيدة فاطمة بنت أسد زوجة عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقبر السيدة حليمة السعدية وغيرها من قبور السلف الصالح. ص 31-32.

ثم ينتقل المؤلف إلى وصف المسجد النبوي الشريف وما فيه من الآثار النبوية والإسلامية متوجاً ذلك بصور توثيقية ، فهو يقع في قلب المدينة من الناحية الشرقية وشكله إلى المستطيل أقرب وقد قسم إلى عشرين رواقاً ، مسقوفاً بالقباب التي تقوم على عقود واسطوانات تبلغ ثلاثمائة وسبع وعشرين عموداً اسطوانيا مبنية من الحجر الأحمر

(*) لعله يقصد هنا، أنه توجه نحو حجرة السيدة فاطمة رضي الله عنها، وليس قبرها، لأنه لم يعرف تاريخياً أن لها قبراً بجوار القبور الثلاثة والله أعلم.

في متانة ورشاقة وإبداع منها المستدير ومنها المربع وقبابه مزخرفة بشكل إبداعي وجميل فيه من صور النباتات والآيات القرآنية ، والأبيات الشعرية ما هو أية في الإبداع والجمال .

ويصف الجدار القبلي المزين بأشكال الفسيفساء والمحراب العثماني بقطع من الرخام الملون وفوقه آيات من القرآن الكريم مكتوبة بخط غاية في الإبداع كما يصف الروضة الشريفة وما يجاورها من المحراب النبوي والمحراب السليماني والمنبر ومقصورة المكبرية (المبلغين) والحجرة الشريفة ثم ينتقل بالوصف لصحن المسجد المفروش بالرمل الأحمر ، ومصلى النساء الذي يقع في الرواقين شرقي الصحن ، ومآذن المسجد وأبوابه الخمسة .

وهنا يشير صاحب هذه الرحلة إلى أن الدولة العثمانية قد اهتمت بالحرم النبوي الشريف، فالسلطان مراد اهتم بالمنبر وعمّره وأهداه للمسجد عام 998هـ، والمحراب السليماني بناه السلطان سليمان عام 938هـ، وإنارة الحرم بالكهرباء على يد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني .

ثم ينتقل المؤلف إلى وصف المدينة المنورة ومساكنها وشوارعها وأماكن النزهات فيها ومزاراتها ومساجدها وعيونها وأميرها وسكانها وأخلاقهم وعاداتهم والأمراض والأوبئة المنتشرة فيهم. ومظاهر التعليم عندهم. ص 39-51.

ومن كل ذلك يتضح لنا أنه أقام في المدينة المنورة ستة أيام فقط حيث كان وصوله يوم 16 شباط ومغادرته لها يوم 22 شباط من عام

1936م/1354هـ وخلال هذه الفترة استطاع الإلمام بمعالم المدينة المنورة وما فيها من مساجد وأثار وجبال ومدارس وغيرها.

(3) من المدينة إلى مكة المكرمة:

وفى طريق العودة من المدينة المنورة إلى جدة ثم مكة المكرمة ، يصف لنا حالة الطريق الصحراوي القاحل وما تعرضت له سيارتهم «الدوتش» (الدوج) من توقف مفاجئ ومحاولات الإصلاح والسير ببطء خوفاً من تكرار هذا الموقف.

ثم يصف لنا المراحل التي يقف عندها الحجيج القادمين من المدينة فهناك المسيجيد على بعد 80 كيلومتر التي استراحوا في إحدى مقاهيها وباتوا ليلتهم. وهذا يعنى أنهم قضوا حوالي نصف النهار في قطع هذه المسافة، فقد غادروا المدينة الساعة الواحدة والنصف من يوم الجمعة 22 شباط 1936م كما يقول ص 52.

ثم هناك «تول» (ثول) التي وصلوها في الساعة التاسعة من مساء اليوم التالي ،أي السبت 23 شباط وهذا يعنى أنهم قضوا في الطريق حوالي نهاراً كاملاً وجزءً من الليل فاستحسنوا المبيت في ثول، وفى الصباح الباكر تجول صاحبنا في هذه القرية ووصفها لنا بقوله «عبارة عن محطة أو قهوة لا شيء فيها سوى غرف مسقوفة بالقش والحصير لا تتسع لشخصين، وفيها كراسي مصنوعة من ألياف النخيل خاصة للنوم أشبه بالسرر» ص53.

كان ذلك في عام 1354هـ، وها نحن اليوم في عام 1428هـ. (أي بعد 74 عاماً) نشهد ذلك التحول الخطير لتلك القرية «ثول» التي لم

يكن فيها شيء سوى المقاهي البسيطة ،إلى مدينة علمية معرفيه تقنية، يتبوأ فضاءها «جامعة الملك عبدالله للعلوم والتقنية» والتي ستجعل من هذه القرية /مدينة حضارية عالمية، وتنقلها من الهامش إلى المتن، ومن القروية إلى التمدن ، ومن المحلية إلى العالمية، ومن الماضي الأليم إلى المستقبل المعرفي والتقني والاقتصادي. وهذه نقلة حضارية كيف لو عاشها مؤلف هذه الرحلة وتذكر ذلك الماضي !!.

ثم يصف الطريق بعد «ثول» غير المعبد وسيارتهم التي تتمايل بين صعود وهبوط ومعاناتهم من الحر الشديد وقلة الماء حيث يتواجد البدو بقربهم يعرضونها على الحجاج بأثمان باهظة ، ويتواجد الفقراء والمتسولون على طول الطريق. ص 54.

وأخيراً وصلوا جدة بعد يومين ونصف في مسافة لا تزيد عن 412 كيلومتر بينما يقضيها حجاج هذا الزمان في مدة لا تتجاوز «4 ساعات» فقط، ومن جدة واصل مؤلف الرحلة ورفاقه الحجاج إلى مكة حيث كان الطريق مليئاً بالرمال والتراب ولا أثر للعمران إلا ما ندر . وصلوا إلى بحره التي يصفها بأنها تقع في منتصف الطريق وتشتمل على جملة أكواخ وعشش يسكنها جمع من الأعراب والبدو وتحتوى على مقاهي وحوانيت صغيرة ومخفر سعودي ودوائر للبرق والبريد. «وبحره شديدة الحر، رديئة الماء ، لها في قلبي ذكريات أليمة . فقد مررت بها في تموز سنه 1933م فكانت الناس تموت من شدة الحر وقد شاهدت مابين ليلة وضحاها عشرات الموتى متأثرين من شدة الحر» ص55.

وقد تم رصد المسافة من جدة إلى مكة 80 كيلومتراً كانت السيارة فيها تتهادى في بحر من الرمال حتى أطلت عليهم أعلام الحرم وتمكنوا

من رؤية أم القرى فبدأوا بالتهليل والتكبير والدعاء مبتهجين بوصولهم إلى حرم الله وأنساهم ذلك مشقة السفر وعناء الرحلة.

(4) في مكة والمشاعر:

وصل المؤلف ورفاقه إلى مكة المكرمة ثم بدأ بوصف المنزل الذي أعد لنزولهم ثم زيارة الحرم الشريف وأداء طواف القدوم والسعي والأدعية التي تقال في هذه الشعيرة الإيمانية . ثم أخذ يصف مكة المكرمة مستعينا بالأدبيات التاريخية والصور الفوتوغرافية لمكة والحرم والكعبة ص 60-63.

ثم يصف المسجد الحرام منذ أيام المصطفى صلى الله عليه وسلم وتوسعة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتوسعة الخليفة عثمان ابن عفان، وبناء أروقته في عهد الزبير بن العوام ثم كسوة الحجاج، ثم التحسين والتزيين في عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك. وفى هذا الصدد يصف الكعبة المشرفة، والحجر الأسود، وبئر زمزم، ثم يصف المزارات في مكة المكرمة، ويشير هنا إلى مقابر المعلى / المعلاة حيث فيها قبر عبدالله بن الزبير، وقبر السيدة أسماء بنت أبى بكر ، وقبر السيدة خديجة أم المؤمنين، وقبر عبدالمطلب بن هاشم جد الرسول صلى الله عليه وسلم، وقبر أبى طالب وغيرهم من كبار رجالات المسلمين. كما يشير إلى أن الحكومة السعودية هدمت القباب ودرست القبور حتى لا يغالي الزوار في تقبيل القبور وتعظيمها، وعهدت إلى حرس خاص يحول دون الزيارة والمغالاة في التعظيم». ص67.

كما يشير هنا إلى بعض الآثار التي زاراها مثل البيت الذي ولد فيه الإمام على بن أبى طالب رضي الله عنه، والبيت الذي ولد فيه

الرسول صلى الله عليه وسلم، وبيت السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وجبل أبى قيس ودار الأرقم وغيرها.

وفى مكة المكرمة يصف حالة الماء فيها وقلة المياه الجارية ، ويقف عند ماء عين زبيدة التي أفرد لها حديثاً خاصاً نقلاً عن الإرتسامات اللطاف لأمير البيان شكيب أرسلان ص 68-70، ثم يصف المؤلف مشهداً عسكرياً يوم (26 من شباط 1936م) غرة ذي الحجة 1354هـ حيث قام ولي عهد البلاد السعودية الأمير سعود بن عبد العزيز باستعراض الجيش السعودي بمعداته وكان الاستعراض على غاية من الترتيب والانتظام مما دل على أن الحكومة العربية (السعودية) بدأت تهتم في تنظيم جيشها وتدريبه على النظم والأساليب الحديثة، ولدى الحكومة السعودية جيش نظامي وجيش آخر من البدو والغطغط وأعراب الحجاز ولكل من الجيشين وظائف خاصة في المحافظة على الكيان الحكومي». ص 70.

ثم يصف العادة السنوية التي يقوم فيها أمير مكة بغسل الكعبة وهى عادة قديمه كان يقوم بها شريف مكة وأعيانها ووزراءها قبل الصعود إلى عرفات ، ثم سار الملك عبدالعزيز على هذا المنوال ففي اليوم 27 شباط 1936م الموافق 3 الحجة 1354هـ(*) كانت مراسم غسل الكعبة على يد الملك عبدالعزيز آل سعود التي يصفها بقوله «اصطفت

(*) وهنا أيضاً خطأ في التواريخ، فيوم 26 شباط 1936م يوافق غرة ذي الحجة 1354هـ، ويوم 27 شباط يوافق 3 دي الحجة كما يقول فكيف هذا؟! المفروض أن يكون موافقاً لليوم الثاني من ذي الحجة..

الجنود ورهط كبير من رجال الملك في الشارع المؤدى للحرم وكانت رجال الشرطة تحافظ على النظام وإبعاد الناس عن ممر جلالة الملك ومنع الناس من الطواف حول الكعبة وبقى الحرم مكتظا بالجنود والشرطة دون سائر الناس، وفى الساعة العاشرة صباحاً أقبل مركب الملك تحفه رجاله وجماعة من العبيد بألبستها الحمراء وسلاحها الكامل فما إن وصل الكعبة المكرمة حتى قبل الحجر الأسود وطاف سبع مرات يحيط به جماعة من جنوده المدججة بالأسلحة ثم صعد سلم الكعبة وصعد معه جماعة من الأمراء والأشراف والأعيان فبعد أن قام ومن معه بغسل الكعبة وشطفها بماء زمزم وماء الورد انصرف للجهة القبلية ثم خرج من الحرم.....» ص71.

ثم يشير إشارة تاريخية هامة وهى حادثة الاغتيال التي تعرض لها الملك عبد العزيز في العام الماضي أي عام 1353هـ/1935م فاضطرت الحكومة السعودية إلى تكثيف عدد الجنود والحرس مما جعل الناس يتساءلون !! .

ثم يشير إلى تزاحم الناس على المياه التي سالت من الكعبة إثر غسلها فبللوا مناديلهم ومناشفهم وتمرغوا فيها واختطفوا المكانس التي نظفت بها الكعبة حباً في التبرك !! .

وفى مكة – أيضاً – يشير المؤلف إلى الجرائد/ الصحافه في مكة وهى جريدتان أم القرى وصوت الحجاز، وكلتاهما «على غاية من الرصانة وحسن الأسلوب وهما لسان حال الحكومة السعودية يأتمران بأمرها...» ص 72.

ثم يصف المأدبة الملكية التي أقامها الملك عبدالعزيز لضيوف الحج في القصر الملكي والتي حضرها الأعيان والوجهاء من الحجاج والكلمة التي ألقاها جلالته التي نقلها ونشرها كاملة ويمكن إجمالها في عدة محاور وهي:

* النعم الربانية على أمة الإسلام وأهمها بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم.
* الدين الإسلامي دين السماحة والإنسانية، والدعوة لإخلاص العبادة لله تحقيقاً لشهادة التوحيد.
* كلمة في تفسير سورة الفاتحة التي جمعت الحكم والبينات ودعوة إلى تدبرها.
* نصيحة لعامة المسلمين بأن يعتبروا من حالتهم اليوم ، والدعوة للعمل أكثر من القول ، ودعوتهم للاعتصام بحبل الله والتمسك بسنة رسوله، وأن الإسلام يدعو للتقدم والتطور والاستفادة من المدنية الحديثة.
* التحذير من الفرقة بين المسلمين والدعوة إلى الاتحاد مذكراً بقيمة الحج وكونه يجمع المسلمين.

والغريب هنا أن المؤلف ينقل الكلمة كاملة وينشرها دون أن يعلق عليها مما يدل على انبهاره بالموقف والحدث والأفكار الإسلامية التي تنبث في ثنايا هذه الخطبة الملكية.

ثم يصف المؤلف مناخ مكة وسطحها وأثر ذلك على النواحي الصحية التي سنفرد لها محوراً كاملاً إن شاء الله.

ثم يصف صعوده والحجيج إلى عرفات في اليوم الثامن من شهر الحجة بعد صلاة الفجر مباشرة، حيث صعدوا السيارات واتجهوا نحو عرفات مارين بقصر الملك عبدالعزيز «وهو على يمين المتجه إلى عرفات» ثم شاهدوا جبل النور وفيه غار حراء . وبعد 12 كيلومتراً وصلوا إلى منى «وهى قرية صغيرة ذات دور قليلة ولكنها فسيحة الأرجاء ينشرح لها الصدر وترتاح لها الروح» ص 84. وفيها باتوا ليلة الثامن من الحجه بعد أن صلوا فيها فروض الظهر والعصر والمغرب والعشاء وفجر اليوم التاسع حسب السنة النبوية كما يقول.

ثم توجهوا إلى مزدلفة «وهى تبعد نحو ستة كيلومترات» وبعد ستة أخرى وصلوا إلى عرفات التي يصفها بأنها «مكان فسيح الأرجاء مترامي الأطراف تكتنفه الجبال من جهاته الثلاث. وليس في عرفات بناء غير مسجد نمره ومكان وقوف الرسول صلى الله عليه وسلم أمام جبل صغير يسمى جبل الرحمة أو جبل المشاة» ص84-85.

ثم يورد نصوصاً تاريخيه في التعريف بهذا المشعر، ونصوصاً دينيه حول الوقوف بعرفه وما يتطلب الموقف من دعاء وتهليل وتلبية واستغفار، ثم يذكر ما حصل للحجيج في هذا اليوم من عواصف ورعود وأمطار شديدة نزعت الخيام. وهذا يعنى أن حج هذا العام كان في موسم الشتاء والأمطار، واستمر ذلك الوضع المخيف حتى غربت الشمس وأفاض الحجاج إلى مزدلفة فانقشعت الغيوم وانقطعت الأمطار ص86. ولما وصل الحجيج إلى مزدلفة يصفها المؤلف بأنها مكان فسيح لا بناء فيه إلا المشعر الحرام وهو (جبل قزح) عليه

علامات كالمنارة. ثم يصف جمع الجمار من مزدلفة بعد الفجر ثم الوصول إلى منى فرمي الجمرات مع توجيهات دينيه عن كيفية رمى الجمار والمبيت في منى ثلاثة أيام ثم الإفاضة إلى مكة وطواف الحج، ويضيف هنا أنه طوال إقامته في مكة كان يكثر من طواف التطوع .

(5) العودة من الحجاز:

وبعد الانتهاء من أعمال الحج وطواف الوداع غادر المؤلف ورفاقه مكة المكرمة في اليوم 20 من الحجة 1354هـ/ 5 آذار 1936م في الساعة السابعة صباحاً ووصلوا إلى جدة الساعة العاشرة «وصلناها وقد اكتحلنا بغبار الصحراء وتعفرنا برمالها ولبسنا حلة كثيفة من التراب الناعم» ص91.

ويصف الطريق بين مكة وجدة بأنها طريقة طبيعية لم تمسها أيدي الإنسان بعمران. وقد كان لأقدام الحجاج ودواليب السيارات وأخفاف الأباعر أكبر الفضل في تخطيط الطريق وتحديده ولكن هذه العوامل كلها لم تخفف شيئاً من الغبار والرمال ..» ص91.

ثم يشير إلى بعض القضايا التطويرية التي تمارساها الحكومة السعودية في الحجاز ومنها التخطيط للقيام بمشاريع عمرانية عظيمة تعود على الحجاز بالراحة والسعادة ، وإبرامها مجموعة من المعاهدات مع بعض الدول الأوروبية والعربية للإعتراف بالحكم السعودي وحسن الجوار والبحث عن المعادن والذهب والبترول في الأراضي الحجازية وخاصة في ينبع والمدينة وماحولها . وقد وجدت هذه الشركات منجماً للذهب بجوار المدينة المنورة ويعني به (مهد الذهب) كما أشيع أن الحكومة السعودية ستتمنح شركة بنك مصر امتيازات نقل المياه إلى

مكة وإضاءة الحجاز وتعبيد الطرق وكثيراً من التطوير العمراني النافع ص93.

وفي ختام رحلته يتوجه بالشكر لكل من فؤاد حمزة بك/ وزير الخارجية في الحجاز وخالد بن الحكم/ ومستشار جلالة الملك. والدكتور محمود بك حمدي/ وزير الصحة والإسعاف العام، والدكتور أديب بك الحبال والدكتور حسن بك الطاهر/ من مشاهير أطباء الحجاز. والوجيه الشيخ محمد نصيف/ من وجهاء وأعيان جده، والمسيو شريف إبراهيم الديوي/ قنصل بلجيكا في جدة... وغيرهم.

ثم يغادر الحجاز يوم 25 ذي الحجة 1354هـ /18 آذار 1936م ويصل إلى محجر الطور ثم يغادرها إلى بيروت حيث يصلها يوم 17 محرم 1355هـ 9 يناير 1936م. ويُستَقْبَلُ المؤلف ورفاقه الحجاج في محجر الطور وهم في صحة وعافية.

* * *

ثانياً: الفضاءات الصحية والطبية التي عاشها في هذه الرحلة:

أشرنا في - التمهيد - إلى أن المؤلف قد تم اختياره بصفته طبيباً ليرافق الحجاج بصفته مراقباً للصحة والإشراف الطبي على حجاج بلاد الشام . ولذلك ستكون هذه الرحلة الكتابية مشتملة على كثير من القضايا والمسائل التي عاشها في هذه الرحلة. ولعل أول ما يلفت النظر فيها هو حديثه عن المحجر الصحي في بيروت الذي أعدته المفوضية العليا للحجاج والذي يعد من أفخم المحاجر في الشرق، حيث توفرت فيه كل أسباب الراحة - من المناظر البديعة والمواقع اللطيفة

وغزارة الماء، وبناياته المعرضة للشمس والهواء، ووجود المسجد، والمستشفى - وهو يضاهي محجر الطُّور إن لم يكن أحسن منه - ويقوم هذا المحجر بدور طبي هام حيث يكشف على الحجاج ويطعمهم ضد الأمراض السارية ص5.

ثم نجد المؤلف يتحدث عن المسائل الصحية عند وصوله إلى جدة فيصف مناخها الحار والرطب الذي يؤثر على النواحي الصحية ويجعل جسم الإنسان مستعداً لقبول الأمراض كالحمى الصفراء والهيضة وأمراض القناة الهضمية ، وتضعف فيها شهوة الطعام وتعجز الأعضاء عن إتمام وظائفها ويعسر التنفس ويقل الحس في الجهاز العصبي ، وتضعف دورة الدم .

وفي جدة أيضاً تتسلطن الملاريا والحمى التيفوئيدية والديزنتاريا (ص 20). ولكي يكون الحاج على بينة بوسائل الوقاية من الأمراض أعدّ نشرة طبية بعنوان «طرق الوقاية من الملاريا» أوضح فيها أسباب انتقال المرض بواسطة البعوض، ثم سوء المعيشة، والتعب والحرارة والإفراط في الطعام. كما أوضح فيها وسائل الوقاية وهي: إتقاء البعوض، أكل ¼ غرام من الكينا يومياً ، الاعتدال في المأكل والمشرب، غلي الماء قبل الشرب، والاحتراز من تناول الخضروات قبل تنظيفها بالماء النظيف، عدم تناول اللبن قبل غليه مدة عشر دقائق، عدم التعب والمشي في الزحام، وغسل الأيدي قبل الأكل، وحفظ الأطعمة في أقفاص خاصة بعيداً عن الذباب، وعمل التطعيم ضد كل تلك الأمراض قبل الحج ص 20-22.

كما يشير المؤلف إلى نشرة طبية/ صحية نشرتها الحكومة السعودية للحجاج ووزعت في جدة من أجل نشر الوعي الصحي وقد جاء فيها : الاحتراس من أشعة الشمس وعدم التعرض لها في النهار، واستخدام المظلات الواقية ، ومحاولة السير في الليل وأطراف النهار، ومراجعة المستوصفات الصحية حال الشعور بالصداع أو انحطاط القوى، واستخدام الماء البارد على الرأس والجسم إذا شعر بحرارة الشمس ص. 23.

وفي هذه النشرة السعودية تعريف بالمستوصفات ومواقعها في مكة وعرفات والمشاعر وأنها مهيئة ومستعدة لاستقبال جميع الحالات المرضية . وفي هذا الصدد يثني المؤلف على دائرة الصحة في الحجاز ودورها الفعال في خدمة المجتمع ، ص 23-24.

وعندما وصل المؤلف إلى المدينة المنورة أشار في رحلته إلى الأمراض المنتشرة فيها وهي نفس الأمراض التي تنتشر في جدة ومكة كالملاريا والحمى التيفوئيدية والديزنتاريا التي يسببها البعوض وعدم النظافة في الماء والخضار والفواكه ، وكثرة الزحام وفساد المسكن والإفراط في المأكل والمشرب وتبدل الطقس ، ويشير في هذا الصدد إلى أن بالمدينة المنورة صيدلية وطبيبان وبعض العقاقير تباع لدى العطارين ص41.

وعندما وصل المؤلف مكة المكرمة ،وصف الحالة الصحية فيها بدءً من دائرة الصحة التي تشرف على الأعمال الطبية ووجد على رأسها الدكتور محمود حمدي بك ومعه مجموعة من الأطباء . ويصفها بأنها «هي الوحيدة من نوعها التي تضاهي دوائر الصحة في سوريا ولبنان»،

وبجانب هذه الدائرة مستشفى للحكومة السعودية به كثير من المعدات والأدوات الطبية الحديثة يقدم خدماته الصحية للعديد من المرضى ليلاً ونهاراً ص 72-72.

ثم ينتقل المؤلف إلى رصد الأمراض في مكة نتيجة لمناخها الحار واختلاف هوائها مشيداً باهتمام الحكومة السعودية في تخفيف وطأتها واهتمامها بالأمور الصحية وكثرة الأطباء وشدة العناية . لكنه يورد دراسة صحية نشرت في مجلة المقتطف المصرية ،وهى عبارة عن تقرير أو رسالة بعنوان «الصحة والكوليرا في الحجاز» للدكتور قاسم بك أبو عز الدين يذكر فيها أنه درس وبحث أهم الأمراض في مكة المكرمة مثل الأمراض الصدرية، وضربة الشمس، والاحتقانات الدماغية نتيجة للحر الشديد، وأمراض العين والكبد، وأمراض القناة الهضمية، والدوزنتاريا، والحميات الفيلية ،والجدري والكوليرا التي انتشرت في مكة في الأعوام 1890، 1891، 1893، 1895، 1902، 1907، 1908م، وكذلك الأوبئة التي ظهرت في مكة مثل وباء عام: 1246هـ، 1256هـ، 1262هـ، 1266هـ، 1271هـ، 1273هـ، 1275هـ، 1280هـ، 1288هـ، 1294هـ،1297هـ، 1298هـ، 1299م.

والجميل هنا أن الباحث الدكتور قاسم بن عزا لدين توصل إلى النتائج التالية:

* أن هذه الأمراض والأوبئة لم تنشأ في مكة بل جاءتها من الخارج مع الحجاج.

* كانت أكثر الأوبئة الشديدة في مواسم الحرالشديد (الصيف)، وبعضها في فصل الشتاء.

* قد يكون الوباء خفيفاً في زمن الحر المعتدل.

* لم يظهر الوباء قط في الأشهر الستة الأولى من السنة الهجرية (محرم - صفر - ربيع أول - ربيع ثاني - جمادى أول - جمادى ثاني) وظهر مرة واحدة في رجب، وأربع مرات في ذي الحجة واحدى عشر مرة في ذي القعدة. وهذا يعنى ارتباط الوباء بأشهر الحج فيجيء مع الحجاج ويذهب بذهابهم. وتشخص هذه الدراسة أسباب الوفيات من هذه الأمراض وأنها من الازدحام ومخلفات الذبح في منى وما يصيبها من تحلل وعفونة، والمساكن، وسوء التغذية، ومياه الشرب (ص 84-78) وهنا يثني المؤلف على الحكومة السعودية ورغبتها في تنظيم الأمور الصحية ومكافحة الأمراض وجعل الحجاز في مصاف المدن الراقية فيما يخص المسائل الصحية

ولما يصل المؤلف إلى المشاعر المقدسة في منى ومزدلفة وعرفات، يشير إلى شيء من النواحي الصحية مشيداً بإدارة الصحة في مكة التي أنشأت مستوصفات على طول الطريق بين مكة والمشاعر فيجد الحاج في هذه المستوصفات ما يحتاجه من أدوية وإسعافات ومياه نظيفة وعناية طبية. وكذلك يشير إلى تقرير الحالة الصحية في موسم هذا الحج 1354هـ/1936م التي كانت «على غاية ما يرام وكانت الوفيات أقل عدداً من وفيات السنة الماضية، ولم يشاهد أي مرض وبائي أو مشبوه وأن هذا الموسم كان نظيفاً». ص 87.

ثم أشار المؤلف إلى تقرير أخير عن أعمال الهيئة الصحية في حج هذا العام، وفيه يذكر مختلف الأمراض التي شوهدت أثناء موسم الحج، ودور البعثات الصحية والأطباء والمستوصفات وأعداد الوفيات وجنسياتهم من الحجاج، وأهم ما في ذلك قوله:

«إخراج مرضى مستشفى مكة الذين تمكنهم حالتهم الصحية من الركوب على السيارات لأداء فريضة الحج وعددهم (19) وبعد وقوفهم بعرفات أعيدوا إلى المستشفى، وبلغ عدد المرضى الذين عولجو (1433) مريضاً، وقد توفى (27) شخصاً. منهم (20) بالأمراض العادية و(7) بالشيخوخة». ص 88-90.

ويختم مؤلفنا هذا المحور بحديث عن محجر الطور الصحي الذي مر به أثناء العودة من الحجاز ويصف الطور بأنها «قرية صغيرة قريبة من المحجر، منفصلة عنه بأسلاك مشوكة للحؤول دون اختلاط الحجاج بغيرهم من الناس، ومياه الطور من آبار ارتوازية لاتلذ، وقد بنى فى المحجر عدة بنايات تسع عدداً كثيراً من الحجاج وهم يغتسلون بمياه البحر بواسطة رشاشات خاصة ويقارن بين هذا المحجر ومحجر بيروت فيجد الفرق ساشعاً ففي محجر بيروت «جهز بكل وسائط الراحة من غرف فسيحة وجامع وحمامات على الطراز الحديث ومستشفى وحدائق غناء ومياه غزيرة» ص 96. وبذلك نأتي على أغلب القضاءات الصحية والطبية التي تعرض لها المؤلف أثناء إشرافه الطبي على الحج الشامي لهذا العام الذي يؤلف فيه رحلته الحجازية.

ثالثاً: الاقتراحات والتوصيات التي يقدمها للحكومة السعودية:

من جماليات هذه الرحلة الكتابية، أن مؤلفها ناصح وأمين يرصد المشاهدات، ويقف عند السلبيات، ويقدم الاقتراحات للتعديل والتطوير وخاصة فيما يتعلق بالأمور الصحية التي تخصص فيها وجاء حاجاً من أجلها - كمشرف على الإدارة الصحية لحجاج الشام - ومن تلك الاقتراحات والتوصيات ما يلي:

1 - العناية بشوارع وأزقة جدة التي لا تصلها خدمات التنظيف ورش الماء مثل الشوارع التي تطل عليها بيوت القناصل. ص 16.

2 - تشديد الرقابة على المواطنين والمقيمين الأجانب والتجار الذين يتخذون جميع الحيل والأساليب لإدخال الخمور والدخان والمسكرات إلى جدة والحجاز عامة ، واستعمالها أو الاتجار بها. ص 17-18.

3 - الإهتمام بمياه الشرب ونظافتها ووقاية المأكولات من الغبار والذباب وتنظيف الشوارع ورشها ومراقبة المساكن ومعاينة أرباب الحرف والصناعات وفرض العزلة الشديدة على مخالفي النظم الصحية وكل ذلك حفظاً للصحة ووقاية من الأمراض ص 24-25.

4 - الاهتمام بالطريق بين جدة والمدينة،وجدة ومكة (إصلاحه، وتعبيده، وإقامة الاستراحات) لينعم الحجاج بمواسم الحج - ص29.

5 - الاهتمام بنظافة الشوارع في المدينة المنورة وخاصة المكتظة بالناس سيما في موسم الحج ومراقبة باعة اللحوم وإجبارهم على اقتناء

أقفصة خاصة لحفظ اللحم من الذباب والغبار والاهتمام بإنارة الأزقة والطرقات الضيقة، والاهتمام بالإصلاح العمراني. ص40-41.

6 - الاهتمام بالصحة وتوفير الأطباء المهرة الذين يكافحون الأمراض العامة، ويهدون الناس إلى الوقاية الصحية، وضرورة التحسين والإصلاح في الشوارع، والمياه، والمساكن حتى تخف وطأة المرض على الحجاج . ص 41.

7 - الإهتمام بعين الزرقاء القريبة من قباء ،وترتيبها على الطرق الهندسية وتوزيعها في دور المدينة ليستفيد كل الناس من مائها ويستغنون عن شراء الماء بالصفائح والقرب. ص 48.

8 - إنشاء إدارة أو مصلحة للري في الحجاز ومن مهماتها الاستفادة من كثرة المياه وقربها من سطح الأرض وإيجاد الحدائق والحقول والبساتين في المدينة لتنشيط الزراعة ويكتفي الناس بالعمل في الزراعة ويبتعدون عن البطالة وتنتهي مشكلة الفقر. ص 48.

9 - التوسع في مباني دار الأيتام بالمدينة المنورة، وتوفير مختلف الصناعات والحرف وقبول الأيتام من كل مناطق الحجاز وتنشيط الدراسة العملية فيها للوصول إلى درجة الاكتفاء الذاتي والاستغناء عن المصانع الأوربية. ص 49-50.

10 - تحبيب سكان المدينة ومواطنيها للعمل الشريف في الزراعة والصناعة ، والدعوة لاهتمام الحكومة السعودية بهذا الجانب فتفتح المشاريع الزراعية والمصانع لتحريك الهمم وتنشيط الإرادة للانخراط في هذه الأعمال. ص 51.

11 - الاستفادة من الأموال المحصلة من الضرائب (ضرائب المحاجر الصحية - ضريبة التنظيفات، الأجرة الباهظة لوسائل النقل) وصرفها في عمليات ومشاريع إصلاح الطريق بين مكة وجدة وتعبيدها.

12 - ترتيب مساكن الحجاج سواء في مكة أم المدينة وجدة بمقتضى القواعد الصحية من حيث بيوت الخلاء (دورات المياه).

13 - الإيعاز لبعض مأموري الأمن عند الحجر الأسود والحرم النبوي بحسن معاملة الحجيج والزوار واحترام مشاعرهم وعواطفهم.

14 - إنشاء أسواق خاصة للحوم والخضروات والعناية بنظافتها.

15 - تخفيض أجور الضرائب عن كاهل الحجاج.

16 - إنشاء الفنادق على الطرز الحديثة في جدة ومكة والمدينة.

17 - تغطية الآبار ووضع مضخات عليها حفظاً للصحة العامة.

18 - تنظيم السير والحركة بين مكة وعرفات وتوسيع طرق الحج قدر المستطاع.

19 - العناية والاهتمام بنظافة الحرمين الشريفين.

20 - العناية ببئر زمزم. ص 91-92.

ومن هذه الإقتراحات والتوصيات تشعر كقارئ- بمصداقية هذا المؤلف ورغبته في تحسين الأداء وتطويره في كل ما من شأنه خدمة الحجيج وتسهيل الحج وتأمين الأماكن المقدسة مما يعكر صفوها ويضعف الإشراف السعودي عليها .وهى اقتراحات بناءة في زمنها، ولعل الزمن بين تلك الأيام وما نحن فيه اليوم يبين لنا الدور السعودي

الذي قامت به الحكومة السعودية لخدمة الحج والحجاج وبلاد الحجاز عامة .

رابعاً: التعليقات والاستنتاجات الختامية:

وبعد أن قمنا بهذه السياحة التعريفية، والتحليلية لمضامين هذه «الرحلة الحجازية» وتعرفنا على أفكار وطروحات الدكتور عبدالغنى شهبندر .لابد من بعض الوقفات والتعليقات والمداخلات التي تفرضها القراءة الناقدة وسأركز على أربع نقاط جوهرية:

الأولى: تزامن هذه الرحلة مع بداية العهد السعودي:

فلقد أكد صاحب هذه الرحلة على أنها تزامنت مع ظهور هذه الحكومة الجديدة في الحجاز بعد انتهاء عهد الشريف حسين. وبالعودة إلى الأدبيات التاريخية التي توثق التاريخ السعودي نجد أن هذه الرحلة قد تمت بعد ثلاث سنوات من توحيد المملكة تحت اسم المملكة العربية السعودية عام 1351هـ، وبعد عشر سنوات من دخول الملك عبدالعزيز منطقة الحجاز وضمها إلى باقي المناطق الموحدة. فقد كان دخول آل سعود للحجاز وبالذات مكة المكرمة عام 1345هـ، 1926م. ورغم هذه الفترة القصيرة فقد استطاع الحكم السعودي أن يبسط الأمن وينشر الطمأنينة، ويهتم بالحجيج ، ويعتني بالمشاعر المقدسة، ويؤمن السبيل. ولكن المؤلف لا يشير إلى كثير من هذا مع إنه في مقدمته أوحى للقراء بأنه سيقف «على ما وصلت إليه الحالة العمرانية والاجتماعية في عهد جلالة الملك عبد العزيز آل سعود» ص 3، لاسيما وأنه قادر على المقارنة بين عهدي الأشراف وآل سعود في الحجاز حيث قد تمكن من الحج في

عهد الشريف ونشر تلك الرحلة في «جريدة الحقيقة التي كانت تصدر في بيروت» كما يقول، ص 4.

ومن المفيد هنا أن أقول إن كثيراً من كتب الرحلات كانت معاصرة لهذه الرحلة وقد وثقت هذه المقارنة المنشودة بشيء من التوسع والإنصاف ومنها الرحلات التالية:

- مشاهداتي في الحجاز : عباس متولي حمادة. عام 1354هـ / 1936م.
- رحلة الحجاز: محي الدين رضا. عام 1353هـ/1953م.
- في منزل الوحي: محمد حسين هيكل، عام 1936م / 1354هـ.

فلو عاد إليها واستفاد منها لكان لهذه الرحلة/ الكتاب موقع هام ومتقدم في حيز الدراسات التي تعنى بالرحلات الحجازية فئ فترة تعتبر مجالاً خصباً للدرس التاريخي والاجتماعي والسياسي المقارن.

الثانية: التعريف بالحج ومناسكه والمعلومات التاريخية والدينية ومرجعيات الرحلة:

فلقد ذكر المؤلف كثيراً من المسائل المتعلقة بالحج والزيارة مما يشكل دليلاً يهتدي به الحاج في كثير من المناسك والشعائر فتحدث عن الإحرام وكيفيته والمواقيت التي يحرم عندها الحاج والأدعية التي يذكرها (8-9)، وتحدث عن الأدعية التي تقال في زيارة المسجد النبوي والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، وزيارة قبور البقيع، والشهداء بأُحُدْ وغيرها من المشاهد (ص 30 وما بعدها)، وتحدث عن الطواف والسعي وشعائر الحج وما يقوله الحاج من أدعية في هذه المواقف كلها ص 56 وما بعدها.

وفى نفس الوقت يورد كثيراً من المعلومات التاريخية والاجتماعية عن منطقه الحجاز وسكانها وجغرافيتها، فيعرف بينبع جغرافياً وتاريخياً، ص (9-10) ثم عن الحجاز (10-12) ثم عن جدة (12-20) ثم عن المدينة المنورة وما حولها من القرى والأرياف التي مر عليها في طريقه (26-53). ثم عن مكة المكرمة والمشاعر المقدسة (55-78).

والجميل في هذه الوقفات التاريخية والجغرافية والاجتماعية والسكانية أن المؤلف يحيلنا إلى كثير من الأدبيات والمراجع التي يوثق بها معلوماته سواء المراجع التراثية أو المعاصرة .ويمكن رصدها في الجدول التالي :-

المؤلف	الكتاب
ابن خلدون	لم يذكر اسم الكتاب (ولعله العبر.. وديوان المبتدأ والخبر)
ياقوت الحموي	معجم البلدان
ابن حوقل	المسالك والممالك
الهمداني	وصف جزيرة العرب
المسعودي	لم يذكر اسم الكتاب، لعله (تاريخ المسعودي)
البشاري «ويعني به شمس الدين المقدسي»	لم يذكر اسم الكتاب، لعله (أحسن التقاسيم)
شمس الدين سامي	قاموس الأعلام
لم يذكر اسم المؤلف وهو (إبراهيم رفعت باشا)	مرآة الحرمين

المؤلـــف	الكتـــاب
أمير البيان/ شكيب أرسلان	الارتسامات اللطاف
عبدالقدوس الأنصاري	آثار المدينة
حسين محمد نصيف	ماضي الحجاز وحاضره
د. قاسم بن أبو عز الدين	(رسالة منشورة بمجلة المقتطف بعنوان: الصحة والكوليرا في الحجاز)
لم يذكر الاسم	هداية لبيت الله الحرام
لم يذكر الاسم وهو البتانوني	الرحلة الحجازية
لم يذكر الاسم	مجلة المقتطف مجلد 35
لم يذكر الاسم	تقرير الهيئة الصحية لحج 1354هـ
الحكومة السعودية	المنشورات الصحية أثناء الحج
ابن هرمة (شاعر)	أبيات شعرية
كثير عزة (شاعر)	أبيات شعرية
مصعب الزبيري	أبيات شعرية
علي بن الجهم	أبيات شعرية
ابن كلثوم	أبيات شعرية

وهو بذلك يجعلنا - كقراء - أمام باحث جاد، ودارس محقق، يوثق أفكاره وطروحاته من خلال المراجع المناسبة، وهى ميزة لانجدها عند بعض أصحاب الرحلات الحجازية إذ يكتفون بنقل انطباعاتهم ومشاهداتهم.

الثالثة: تزمين الرحلة وتوثيقها تاريخياً وتوقيتاً (زماناً ومكاناً):

ومما يلفت النظر في هذه الرحلة ،أن صاحبها يهتم بتوثيق رحلته وتزمنيها توقيتاً، وتاريخاً، زماناً ومكاناً، ويمكن لنا أن نعيد تأطير هذه الرحلة حسب مجرياتها زمنياً ومكانياً فيما يلي:

الساعة والوقت	اليوم والتاريخ	مجريات الرحلة
الرابعة بعد الظهر	5 شباط	مغادرة بيروت
الخامسة بعد الظهر	7 شباط	وصول السويس
الثانية بعد الظهر	7 شباط	مغادرة السويس
ظهراً	9 شباط	الوصول إلى ينبع
5 مساءً	9 شباط	مغادرة ينبع
10 صباحاً	10 شباط	رؤية جبال الحجاز
10 صباحاً	10 شباط	الوصول إلى جدة
4 (زوالي)	9 شباط(*)	مغادرة جدة نحو المدينة(*)
2 بعد الظهر	16 شباط	الوصول إلى المدينة
1.30 بعد الظهر	22 شباط(*)	مغادرة المدينة(*)
9 مساءً	22 شباط	الوصول إلى ثول والمبيت فيها
بعد صلاة الفجر	23 شباط	مغادرة ثول
لم يحدد	لم يحدد	الوصول إلى جدة بعد يومين من مغادرة المدينة
لم يحدد	لم يحدد	استراحة ثم المغادرة إلى مكة
لم يحدد	لم يحدد	وصول مكة
لم يحدد	25/ الحجة 1354هـ/ 18 آزار 1936م	مغادرة الحجاز بعد الانتهاء من أعمال الحج
لم يحدد	17/ محرم 1355هـ/ 9 نيسان 1936م	وصول بيروت

(*) انظر التعليق في الصفحة التالية

في الجدول السابق مجموعه من الملاحظات، وخاصة فيما وضعت بعده نجمه:

أولاً: أن المؤلف - وطوال تزمينه المذكور - لم يحدد نوع التوقيت غروبي أم زوالي إلا في ذكره مغادرة جدة إلى المدينة حيث أشار إلى الساعة (4 زوالى). وهنا لا نعلم، هل يعنى صباحاً أم مساء؟!.

ثانياً: أن المؤلف أخطأ في تاريخ مغادرته من جدة إلى المدينة فقال «(9 شباط) بينما ذكر قبل ذلك أنه وصل ينبع ظهر يوم (9 شباط)، ثم قال إنه وصل إلى جدة في (10 شباط) فكيف يغادر جدة إلى المدينة في (9 شباط)؟! وهل هذا خطأ غير مقصود ؟! أعتقد ذلك والأصح عندي أنه غادر جدة في (10 أو 11 شباط)».

ثالثاً: يذكر المؤلف أنه غادر المدينة إلى جدة يوم (22 شباط) ووصل جدة بعد يومين ونصف ، بينما في سفره إلى المدينة من جدة التي غادرها في (9 شباط) أو (10 شباط) ووصوله المدينة يوم 16 شباط ،فهذا يعنى أنه استمر في الطريق (7 سبعة أيام) وهذا أمر غريب !! أضف إلى ذلك التعليقات التي أوردناها في الهوامش السابقة.

رابعاً : أن المؤلف لم يحدد موعد وزمان وتاريخ وصوله إلى مكة بعد عودته من المدينة ، وربما يعود هذا للحالة النفسية والروحية ومشاعر اللهفة للبيت العتيق قد أنساه هذا الأمر .ولكننا نستنتج أن وصوله كان في منتصف يوم 25 شباط لأنه قال إن وصوله إلى مكة «بعد يومين ونصف من مغادرته المدينة» وكان ذلك في 22 شباط .

الرابعة: مميزات هذه الرحلة عن سابقاتها المعاصرة:

تمتاز هذه الرحلة الحجازية عن مثيلاتها بحزمة من المميزات ولعل في طليعتها أنها تركز على الجوانب الصحية، كون صاحبها طبيب، وجاء في بعثة طبية للإشراف على الحج وتقديم التقارير الصحية/ الطبية عنها وعن حج هذا العام. ولذلك جاءت المعلومات الصحية مفيدة ومستكمله ولا سيما تعرضه للأمراض والأوبئة التي تنتشر في الأراضي الحجازية وأسبابها، وكذلك ذكرهٍ لوباء الكوليرا الذي عصف بالمنطقة في سنوات سابقه موردا ثبتاً زمنياً عن هذه الحالة.

ومما تمتازبه هذه الرحلة - أيضاً - الصور الفوتغرافية التي صورها وأوردها في متن هذا الكتاب وهى على النحو التالي:

- صورة للمحجر الصحي في بيروت ص 4، ص 6.
- صورة للمسجد النبوي الشريف والقبة الخضراء ص 33.
- صورة للروضة الشريفة والمنبر والمكبرية ص 35.
- صورة لبناية إدارة الشرطة بالمدينة ص 40.
- صورة لجبل أحد وقبر سيد الشهداء ص 45.
- صورة للحجاج وخروجهم من باب المدينة ص 53.
- صورة الحرم المكي والمباني المحيطة به ص 57.
- صورة الكعبة المشرفة ص 62.
- صورة الكعبة المشرفة بعد الكسوة ص 64.
- صورة جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ص 77.
- صورة المؤلف في الحجاز باللبس السعودي ص 92.
- صورة مستشفى المحجر الصحي بيروت ص 65.

إن هذه الغزارة من الصور تدل على اهتمامات الرجل التوثيقية ،وخبرته التصويرية في التقاط المعالم الهامة وإبرازها. ولعل هذه الصور تمثل - حالياً- ثروة فنية فوتغرافية لا تقدر بثمن لأنها تؤرخ وتوثق لرحلة مبكرة من تاريخنا السعودي.

ولعل ما يميز هذه الرحلة -أخيراً - بعض الومضات التي تحتاج إلى تحقيق وتدقيق . فهو مثلاً يشير إلى زيارة السيدة فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم في نفس المكان الذي زار فيه قبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقبري أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما والثابت تاريخيا أن حجرات النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يدفن فيها إلا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وخليفتيه فقط أما قبر السيدة فاطمة فربما يكون خارج الحرم في مقابر البقيع ، ولعله يقصد حجرة السيدة فاطمة التي تقع بجوار المدفن النبوي وصاحبيه.

ومن تلك الومضات ، إشارته إلى قبر السيدة حواء في جده وأن «طول القبر أربعون قدماً بني عليه قبابٌ قديمة وهدمتها الحكومة السعودية وحالت دون زيارة القبر والتوسل به وهذا العمل من أوليات الإصلاح التي قامت عليها الحكومة السعودية» ص 16 ، وهو الأمر الذي أكدت عليه كثير من الرحلات المعاصرة.

ومن تلك الومضات ما ذكره عن سكان الحجاز وعددهم عام 1910م، حيث أورد إحصائية تقدرهم بـ المليونين أو الثلاث ملايين نسمة (ص12) وكذلك ذكره لمدرسة الأيتام في المدينة وهي مدرسه صناعية إذا تم التوسع فيها سيتم الاستغناء عن المصانع الأوربية كما يقول، ص 50.

ومن الومضات يورد نقطة شديدة الأهمية لدارس العلوم الاجتماعية، حيث يشير إلى جدة وما كان فيها من بيوت الدعارة والخمر، وذلك نقلاً عن المؤرخ محمد نصيف ص18 وأخيراً نجد كثيراً من الومضات الدقيقة مثل النقود في الحجاز، والتجارة في جدة والفقراء المنتشرين على طول طريق الحجاج من جده إلى المدينة والعكس، وأخلاقيات السكان وأماكن التنـزه والآثار ومظاهر غسيل الكعبة، والمائدة الملكية وأبهة الإمارة وغيرها.

ومن كل ما سبق نستنتج أننا أمام إحدى الرحلات الحجازية المتميزة، والحافلة بموضوعات وطروحات غاية في الأهمية، ويمكن اعتبارها إحدى أهم وأبرز الرحلات الحجازية التي وثقت لبدايات العهد السعودي في الحجاز والأعمال الجليلة التي حصلت في المنطقة، وتطلعات المثقفين والعلماء والمفكرين.

أضف إلى ذلك أنها رحلة عنيت بالجوانب الصحية والطبية في منطقة الحجاز كون صاحبها طبيب ومشرف على البعثة الصحية ، ولهذا فقد أورد فيها كثيراً من الملاحظات والتوصيات والإقتراحات لجعل مكة والمدينة والمشاعر أماكن صحية يفد إليها الحجاج والمعتمرون بكل يسر وسهولة من الناحية الصحية. كما أورد فيها كثيراً من الأمراض والأوبئة التي قد تصيب الحجاج، مبيناً أسبابها وأعراضها وسبل علاجها، وهذه ميزة لا نجدها في كثير من الرحلات الحجازية المعاصرة.

وأخيراً فإن هذه الرحلة تمتاز بحسن أسلوبها وعرض فعالياتها، وعمق أحداثها مما يدل على ثقافة المؤلف الدكتور عبدالغني شهبندر،

وقدرته اللغوية والأسلوبية في توصيف وتحليل وتقرير مايشاهده ، مضيفاً عليه كثيراً من المعارف والعلوم وفق أدبياتها ومراجعه التي يعود إليها ويوثق عنها معلوماته إن تاريخية أو سياسية أو اجتماعية .

وبذلك نكون قد عرفنا قراءنا الكرام بإحدى أهم الرحلات الحجازية.

والحمد لله رب العالمين،،،

جدة..
الجمعة 1428/11/5هـ



الحجاج في انتظار المطوفين في المحجر الصحي في جدة حوالي عام [illegible] م

أزهري في الحجاز!![*]

مفتتح:

«... وبعد، فلما اعتزمت على حج بيت الله الحرام، وزيارة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، طلب مني بعض أساتذتي وإخواني أن أكتب ما أشاهده في الحجاز، فقبلت طلبهم وأعددت العدة وأخذت معي آلة تصوير لأصور بها مناظر الحج وآثار البلاد المقدسة.

ولما سافرت كنت أكتب ما يقع عليه بصري كل يوم في مذكراتي اليومية...».

بهذه النوايا المعرفية، يصدر رحالتنا عباس متولي حمادة، كتابه الموسوم بـ «مشاهداتي في الحجاز» الذي طبع في 17 من رمضان 1355هـ الموافق أول ديسمبر 1936م. وهذا الكتاب يعد من كتب الرحلات الحجازية، أو رحلات الحج والتي يمكن إدخالها ضمن «أدب الحج» وله قيمة خاصة تتجلى من خلال المظاهر التالية:

المظهر الأول: أنه يدون لمرحلة تاريخية مهمة من تاريخ الحجاز الذي دخل منذ فترة ضمن الدولة السعودية الثالثة وهو بذلك يورد

(*) نشرت في مجلة الحج والعمرة، السنة (59)، العدد (9)، رمضان 1425هـ/ أكتوبر - نوفمبر 2004م.

جملة من الأخبار والإسهامات السعودية في تأمين الحج وتنظيم فعالياته مقارنة بالعهود السياسية السابقة.

المظهر الثاني: أنه يورد تفصيلات واضحة وشاملة عن المجتمع الحجازي وأحوال الحجاج في ذلك العام.

المظهر الثالث: أنه يتوج ذلك كله بمجموعة من الصور الفوتوغرافية التي يوثق بها رحلته فنجد صوراً للشخصيات المكية/ الحجازية، وبعض رجال البادية، والمآذن والمساجد والآثار مما يعطي قيمة عالية لهذه الرحلة.

ومن خلال هذه المظاهر الثلاثة يمكن المداخلة مع هذه الرحلة الحجية المباركة عبر المحاور التالية:

- من الاستعداد حتى الوصول.
- روحانية مكة والمشاعر المقدسة.
- انبثاقات سياسية واجتماعية في الحجاز.
- استنتاجات ختامية.

المحور الأول: من الاستعداد حتى الوصول:

كان أمر الحج في تلك الأيام يتطلب من الحاج استخراج جواز سفر وإجازة من العمل وشهادة صحية بخلوه من الكوليرا، وحجز للمواصلات عبر البحر من القاهرة إلى جدة وعبر البر من جدة إلى مكة والمشاعر المقدسة ثم إلى المدينة المنورة وكذلك حجز السكن ومكان الإقامة وما يتطلب ذلك من مأكل ومشرب ومصاريف انتقال. وقد قام المؤلف بذلك كله حيث بلغ مجموع ما رصده لهذه الرحلة

المباركة «32 جنيهاً مصرياً و24 قرشاً صاغاً» سلمها لمركز تفويج الحجاج في بلدته.

والأمر الجميل في هذه الرحلة من الاستعداد للرحلة الإيمانية، أن السلطات المصرية - يومذاك - كانت تمنع سفر النشالين وأصحاب السوابق إلى الديار المقدسة حتى لا يقوموا بأعمال السرقة والنشل، وهذا يعطينا ملمحاً أمنياً - غاية في التنظيم والدقة - للسلطات السعودية في الحجاز والتنسيق مع السلطات المصرية في هذا الشأن، فكان لابد للحاج المصري أن يحصل على شهادة «بحسن السيرة والسلوك وعدم صدورٍ أي أحكام ضده في السرقة والنشل، موقعة من العمدة والمشايخ» خوفاً من أناس كانوا قد يسافرون مع الحجاج لهذا الغرض الدنيء[1].

ومن الأمور الهامة في هذه الرحلة التي أشار إليها المؤلف وسيلة المواصلات البحرية التي أقلت حجاج مصر آنذاك من السويس إلى جدة وهي الباخرة (زمزم) التي يصفها بأنها «مدينة على شاطئ البحر وقطعة من مجد مصر الناهضة...»، وأنها تسير بسرعة عالية وربما تخف لتصل إلى جدة في وضح النهار. وبها تسع طبقات موزعة بين عناصر وصالات الركاب حسب فئاتهم، وبين أماكن الخدمة ودورات المياه، والمقر الطبي، والمطعم وغير ذلك[2].

ومما يلفت النظر إليه في وصفه للباخرة «زمزم» عنابر الدرجة الثالثة التي يختلط فيها الرجال بالنساء وهذا ما لا يتفق مع الآداب الإسلامية والشريعة الغراء - كما يقول - وكذلك الاهتمام البالغ من الحكومة المصرية والشركة صاحبة هذه الباخرة بتوفير الأجواء

الدينية داخل الباخرة من حيث أماكن الصلاة ومشايخ الحملة الوعاظ المرافقين للحجاج يبينون لهم أمور دينهم.

ولعل الملمح الأبرز في هذا السياق ما يتمتع به هذا الأزهري صاحب الرحلة من وطنية خالصة تجلت في صدق مشاعره وهو يغادر وطنه إلى أرض الحجاز وذلك في موقفين:

الأول: إشارته إلى الأعلام المصرية المرفرفة على الباخرة مما يدل على مصريتها، فيقول إنه ظن أنها باخرة أجنبية لكن رؤية العلم الأخضر - علم مصر - وفي هذا دلالة على إنهاء ذلك العهد الذي كانت فيه البواخر الأجنبية تنقل الحجاج المصريين إلى الحجاز وما يلاقونه من إهانة ومشقة وكان الرجال يشحنون مع الخيل والدواب. أما الآن فقد انتهى ذلك العهد وحل محله عهد البواخر المصرية الذي تشرف عليه شركة مصر للملاحة[3].

والموقف الثاني: ملاحظته البارعة حول الطيور التي أُلهمت الوطنية حيث يشير إلى أنه قبل إقلاع الباخرة من السويس أحاطت بها الطيور البيضاء المعروفة (بالنوارس) وسارت مع الباخرة إلى أن فارقت خليج السويس وكانت تطير على ارتفاع منخفض حول الباخرة وتسابقها وتحيط بها من كل جانب واستمرت كذلك إلى أن خرجت الباخرة من حدود مصر الإقليمية البحرية فعادت الطيور من حيث أتت بعد أن ودعت الحجاج وهنا يقول «سبحان ربي هذا طير ألهمته الوطنية فهو يجد نفسه، ويفارق عشه، ويترك صغاره ويحرم من الراحة والاستقرار في سبيل هذا العمل الوطني الجلل الذي ألهمته به»[4].

وبعد ثلاثة أيام من الرحلة البحرية وصلت الباخرة (زمزم) بحجاجها إلى الشاطئ المقابل لمدينة «رابغ» حيث يقع ميقات الجحفة وعنده يحرم الحجاج استعداداً للنزول في ميناء جدة في طريقهم إلى مكة المكرمة، ورابغ كما يصفها هذا الأزهري «تبعد عن جدة بمقدار 140 كيلومتراً وهي المحاذية جداً لميقات الإحرام المعروف لأهل الشام ومصر والمغرب والتي كانت تسمى «مهيعة» ثم الجحفة[5].

وما إن تصل الباخرة إلى جدة حتى يكبر الحجاج على ظهر السفينة «زمزم» فرحين بالوصول إلى بوابة المشاعر المقدسة وابتداء الرحلة الإيمانية المباركة. ويصف لنا فعاليات استقبال الحجازيين للحجاج المصريين على النحو التالي:

- ألقت الباخرة مراسيها على بعد أربعة كيلومترات عن شاطئ جدة وذلك لكثرة الشعب المرجانية التي تحول دون وصول البواخر والسفن إلى الشاطئ.
- وصلت العبارات والسفن الشراعية الصغيرة ومندوبو شركة مصر للملاحة لاستقبال الباخرة زمزم ونقل الحجاج إلى الميناء.
- وصول القنصل المصري بالحجاز وبعض الجنود والضباط للترحيب بالحجاج وتهنئتهم بسلامة الوصول.
- صعود عمال السفن إلى الباخرة لنقل الأمتعة وإيصالها إلى الميناء.
- الانتظار في مبنى الجمرك للتعارف بين الحجاج ووكلاء المطوفين الذين سينقلونهم إلى سكنهم بجدة ثم إلى مكة المكرمة[6].

وفي جدة يقيم صاحب هذه الرحلة يوماً واحداً حيث قضاه في التعرف على المدينة وفضاءاتها الاجتماعية مما يدل على روحه

المتطلعة للمعرفة وحبه للمشاهدة والتسجيل والتداخل مع كل جديد ليقدمه للقراء، ومن ذلك وصفه لجدة كما شاهدها يوم الجمعة 28 ذي القعدة سنة 1354هـ، حيث يقول:

- إنها أكبر موانئ البحر الأحمر والثغر الأول لبلاد الحجاز.
- يحيط بها سورٍ عظيم مخمس الأضلاع، مرتفع عن الأرض أربعة أمتار تقريباً، بناه السلطان الغوري سنة 915هـ بالحجر الضخم ليصد غارات الفرنجة عن الحجاز لما ابتدأوا في استعمار الشرق. وبه تسعة أبواب خمسة في شمال المدينة الشرقي، وأربعة في الجهات الأخرى، وفوق جدار السوق حصون وقلاع حربية هي الآن خاوية على عروشها.
- أغلب مباني جدة مكونة من عدة طبقات ومرتفعة جداً، ومبنية بالحجر الجيري والمائي، حجراتها فسيحة ذات رواشين خشبية بديعة الشكل، معظم شوارعها متسعة ومسقوفة بالخشب أو الصفيح.
- يوجد بالمدينة (جدة) خمسة مساجد (العكاش، والمعماري، والشافعي، وأبو حنيفة، والباشا) وهي مساجد واسعة ليس بها مراحيض إلا مسجد العكاش، ويدخلها الإنسان مقابل أجر يدفعه لخادمها، ولها فرش من الخسف المنقوش بزخرفات إبداعية تدل على ذوق سليم وفن بديع.
- وبالشمال الشرقي لمدينة جدة توجد تكنات قناصل الدول الأجنبية وتتخللها الشوارع المرصوفة وتقوم بها عمليات التحسين والتنسيق حتى أصبحت الآن من الأحياء العربية البديعة.

- تقوم التجارة في جدة على البضائع الأجنبية من اليابان والهند ومصر والشام وتروج - في شهر الحج - تجارة السبح والسجاد واللؤلؤ والمرجان والأواني. والمحلات التجارية كثيرة والأسعار مرتفعة، والمعيشة رخيصة مقارنة بغيرها من مدن الحجاز.
- سكان جدة حوالي (55 ألفاً) ما بين عرب وهنود وبخاريين وسوريين وفرنجة، والأغنياء قليلون والأموال محتكرة بأيديهم، ولذلك كثر العاطلون، ومعظم سكان البلد يحترفون التسول، والتجار من أجناس مختلفة.
- أغلب السكان متدينون وتزدحم مساجدها بالمصلين، والنساء متحجبات، ومعظم الطبقات فقيرة وتشكو من أزمة غلاء المهور مما جعل مسألة الزواج تبدو أزمة طاحنة كما يقول.
- مياه الشرب التي تستمدها مدينة جدة عن طريق الآبار أو عن طريق تحلية مياه البحر، وقيمة الماء في جدة غالية لندرته.
- قبر حواء الذي يقع إلى جهة الشرق من سور جدة وطوله 150 متراً وارتفاع عن الأرض متراً وعرضه ثلاثة أمتار وفوقه قبة مشيدة وقد كان مزاراً للحجاج والزوار ولكن الحكومة السعودية قامت بهدم المباني التي عليه وبنت حوله سوراً يمنع الزائرين(7).

ومن جدة ينتقل بنا صاحب هذه الرحلة إلى مكة والمشاعر المقدسة وهو ما سنعرضه في المحور التالي إن شاء الله.

* * *

المحور الثاني: روحانية مكة والمشاعر المقدسة:

لمكة والمشاعر المقدسة - في نفس كل مؤمن - شغف خاص وروحانية تملأ القلب وتفيض إلى الجوارح والمشاعر، وأكثر ما يحس ويشعر بها الحاج أو الزائر لمكة المكرمة لأول مرة حيث يصاب بشيء من القشعريرة والخشوع والمسكنة أمام عظمة الخالق وقدرته على جعل هذه الأرض وهذا المكان بالذات - مكة - قبلة العالم ومحج المسلمين، فتتحول هذه المشاعر إلى روحانية تكتنزها النفس البشرية وتعبر عنها بالدموع تارة والدعاء والتضرع تارة أخرى.

وهذا ما حصل لصاحبنا الذي يصف لنا مشاعره وقت دخوله مكة ومشاهدته للكعبة المشرفة، وكيف أخذه الوجد وتحرك في نفسه الشوق والهيام ووقعت في قلبه خشية ما شعر بها في حياته قبل ذلك وأحس بجلال وروعة يدخلان قلبه ونور يحيط به[8].

ولما استمع إلى إمام الحرم - الشيخ محمد أبو السمح - في صلاة الفجر وهو يقرأ سورة الرحمن بصوت جهوري مملوء بالخشوع والسكينة، انتقلت إلى روحه هذه المشاعر فامتلأ قلبه - كما يقول - خشية ورهبة وأحست نفسه بالخوف من هيبة الله وقدرته، وكأنه لم يسمع هذه الآيات من قبل[9].

وعندما ينتقل إلى وصف المسجد الحرام والكعبة وبئر زمزم ومقام إبراهيم ومنائر الحرم وأبوابه والمسعى والمطاف وغيرها تشعر - كقارئ - بتلك الروحانية التي تملأ شغاف قلبه، فوقوفه أمام الكعبة متأملاً كسوتها المنقوشة بآيات قرآنية بخط مذهب وفضي «يأخذ بالعقول ويبهر الألباب» كما يقول[10].

وتزداد هذه المشاعر الروحانية جلاءً ووضاءة عندما يتمكن صاحبنا من دخول الكعبة المشرفة في أحد أيام الجمع، ويقضي بها حوالي ساعتين بين ذكر وصلاة نفل ودعاء وخضوع وخشوع لرب السماء وتأمل في قدرة الحق وجعل هذا البيت مهوى الأفئدة ومطلب الملايين من المسلمين. وما إن خرج وأقيمت صلاة الجمعة أخذه هذا المنظر الرهيب حيث جموع المصلين يصطفون على شكل دوائر حول الكعبة المشرفة «خاشعة أبصارهم متجهة قلوبهم لخالقهم» في شكل بديع. فشعر بهزة من جلال الموقف ورهبة المكان وسمو التشريع وروعة الإسلام الذي جعل المشاعر تتوحد والنفوس تهفو لدين الله وطاعة ربهم[11].

وفي الطريق إلى عرفات يوم الثامن من الحجة، حيث يفترض أن يبيت الحجاج في منى ثم يغادرون إلى عرفات صباح اليوم التاسع تقلبت الأجواء فأمطرت السماء، وأبرقت وأرعدت وهبت العواصف الهوجاء، ومر على الحجاج لحظات عصيبة لجأوا فيها إلى الله وتضرعوا وأحسوا بالحاجة إلى مولاهم لينقذهم مما فيه، فاستجاب الله الدعاء وانقشع السحاب وانقطع المطر وتنفس الحجاج الصعداء وظهر نور القمر، فعادت للنفوس طمأنينتها وبدأت مشاعر صاحبنا تستقر ويحس بطمأنينة وخشية وسكينة «تبعث في القلوب أسمى أنواع التأمل والتفكير والرهبة»[12].

وتتجدد تلك المشاعر الإيمانية عند وصول صاحبنا إلى جبل الرحمة ورؤيته للحجاج وهم متجهون إلى الله بعيون دامعة وقلوب واجفة من كل الأجناس والألوان وبكل اللغات يرفعون أصواتهم بالتلبية

والدعاء والاستغفار فكان المنظر رهيباً ومؤثراً، ذكره بيوم المحشر ويوم الحساب وبكى من شدة الوجد والتأثر وراح في تفكير وتأمل عميقين.

كل هذه المشاعر والأحاسيس والروحانيات الإيمانية يجدها الإنسان الحاج والزائر إلى مكة والمشاعر المقدسة فلا يعود إلى بلاده إلا وقد تطهر من أدران الدنيا وعاد بروح متجددة وقلب يزداد إيماناً، فالحج - كما يقول المؤلف/ الرحالة - يملي على النفوس شعوراً جديداً، ويحدث في الأفكار تطوراً غريباً، وهو فوق ذلك يشفي الأجسام من أسقامها والأرواح من عللها وآلامها(13).

* * *

المحور الثالث: انبثاقات سياسية واجتماعية في الحجاز:

تعتبر الفترة التاريخية التي حصلت فيها هذه الرحلة انبثاق عصر سياسي جديد في منطقة الحجاز، حيث تشير الأدبيات التاريخية إلى أن الملك عبدالعزيز آل سعود قد استطاع أن يضم إلى حكمه وملكه منطقة الحجاز، بل أعلن توحيد جميع الأقاليم النجدية والعسيرية والحجازية إلى حكومته وأطلق عليها اسم المملكة العربية السعودية في العام 1351هـ، وبعد ثلاث سنوات يقوم صاحبنا برحلته إلى الحج في العام 1354هـ.

ومن هنا تتجلى القيم التاريخية لهذه الرحلة التي تسجل بدايات عهد سياسي جديد في الحجاز ونهاية عهد سياسي قديم تمثله حكومة الأشراف. وعلى ذلك سيروي لنا صاحب الرحلة كثيراً من المشاهدات والصور السياسية والاجتماعية التي يقارن فيها بين الحديث والقديم من العهود السياسية.

وفي هذا الإطار يشير إلى ما شاهده في طريقه من جدة إلى مكة من دلالات سياسية مثل قصور الشريف حسين - ملك الحجاز السابق - في قرية الشميسي وقد تهدمت وأصبحت «خاوية على عروشها» كما يقول.

كما لاحظ وجود رجال الشرطة السعودية على طول الطريق ورغم قلتهم، فإن الأمن قد استتب وانتهى عصر قطاع الطرق الذين كانوا يؤذون الحجيج في العهود التاريخية السابقة لآل سعود في منقطة الحجاز. ويورد من المشاهدات والأخبار في هذا الجانب ما يدل على أن قضية الأمن قد حُسمت في هذا العهد الجديد(14).

كما يشير صاحبنا إلى نظام الحكم الذي أقره الملك عبدالعزيز آل سعود عام 1345هـ والخاص بمنطقة الحجاز، والذي نُشر في صحيفة أم القرى الرسمية، حيث قسمت المنطقة إلى ثماني عشرة إمارة، وعين ابنه فيصل نائباً عنه في حكم الحجاز وإدارة الأمور وشكلت الوزارات، وكانت الشريعة الإسلامية هي مصدر الحكم والدستور، واتبع فيها نظام الشورى(15).

ولم ينس صاحب الرحلة - في هذا السياق - أن يشير إلى وضع الحجاج في عرفات الله وأنهم يمثلون مؤتمراً إسلامياً وإنسانياً فيه كل القيم السياسية التي توجهها الشريعة الإسلامية وكيف يمكن لهؤلاء المؤتمرين أن يعودوا إلى بلادهم متزودين بكل المشاعر الإيمانية للعمل على نهضة أوطانهم والمناداة بتطبيق الشريعة الإسلامية حكماً ودستوراً حتى تكون منطقة الحجاز وسياستها الحكيمة أنموذجاً يحتذى به.

وفي هذا السياق أيضاً، نجد كثيراً من الرؤى والمشاهدات الاجتماعية والدينية والتعليمية والثقافية وقضايا المال والأعمال والتجارة للمجتمع الحجازي مما يدل على تغلغل هذا الكاتب في النسيج الاجتماعي للمجتمع والخروج بتلك المشاهدات ومن ذلك ما يلي:

أولاً: في المجال الاجتماعي:

(1) وفيه نجد إلماحات مهمة عن قضية الزواج وغلاء المهور في المجتمع الحجازي، حيث لاحظ صاحبنا هذه الظاهرة منذ وصوله إلى جدة فمعظم الطبقات الفقيرة تشكو من هذه المشكلة والسبب في ذلك غلاء المهور وضيق ذات اليد وما يمكن أن تؤدي إليه هذه الظاهرة من انحراف في السلوك وشذوذ في الأعمال.

(2) ويؤكد هذه المسألة أثناء حديثه عن المجتمع في مكة المكرمة حيث يشير إلى عادة الحجاب المنتشرة بين النساء المكيات والحشمة والوقار للمرأة الحجازية والتمسك بدينها[16].

(3) كما يشير إلى بعض العادات والأعراف والتقاليد، حيث شاهد صاحبنا أن المرأة الحجازية تدخن النرجيلة، وتتكل على الخدم ولا تشرف على الأعمال المنزلية بشكل عام وتثقل كاهل الزوج بالنفقات المالية.

ثانياً: في المجال الديني:

(1) وفي هذا المجال يتحدث عن المناخ الديني الذي يعيشه الحجازيون من خلال المذهب الشافعي والمذهب الحنبلي الذي بدأ العهد السعودي في إدخاله إلى مجتمع الحجاز وهذا يدل على تماهي

البعد السياسي مع البعد الديني، لكن الغالب على الحجازيين السلفية المتمسكة والواعية بدينها وعصرها.

(2) ومن المظاهر الدينية التي لاحظها صاحبنا هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدروس الدينية التوعوية بالحرم الشريف، وبعض المعاهد الدينية في مكة المكرمة.

(3) وكذلك يشير صاحبنا إلى ما أحدثه الحكم السعودي الجديد ودعاة المذهب الحنبلي من هدم القباب والآثار الإسلامية خوفاً من الانحرافات الاجتماعية والدينية نحو عبادة القبور والتمسح بها والطواف حولها كما هو موجود في العديد من الدول الإسلامية وذلك من باب سد الذرائع[17].

ثالثاً: في المجال الثقافي والاجتماعي:

(1) وفي هذا المجال يقف صاحب هذه الرحلة عند مسألة الطوافة وكيف أن المطوفين لا يعرفون غير لغة واحدة مع أن كثيراً من الحجاج من طوائف وثقافات ولغات مختلفة وهذا يتطلب إيجاد مدرسة لتعليم الطوافة والترجمة والقدرة على التفاهم مع الحجيج حسب لغاتهم، وأن يكونوا على علم ودراية بأمور دينهم وتاريخ بلادهم وهذا لم يجده لدى جماعة المطوفين في مكة الذين تعامل معهم[18].

(2) وفي سياق آخر يشير كاتب هذه الرحلة إلى أن التعليم في الحجاز لم ينتشر بالشكل المطلوب في العصور العثمانية وعهد الأشراف وإن وجد بعض المدارس كالفلاح في مكة وجدة. ومع بداية العهد السعودي بدأت ملامح التعليم والاهتمام به تتضح فأنشئت

المدرسة الخيرية والعزيزية والسعودية والفيصلية والمعاهد الدينية على نفقة الحكومة السعودية واهتمت بإرسال البعثات العلمية إلى مصر وغيرها. ولكنه يشير في جانب آخر إلى أن تعليم البنات لم يُهتم به بالشكل المطلوب فلازلن يتعلمن في الكتاتيب[19].

(3) أما وسائل الثقافة الأخرى من صحافة وطباعة فقد كانت في بداياتها ولا يوجد بها - وقت الرحلة - إلا أم القرى وصوت الحجاز وتطبعان بكميات قليلة، ويشير في هذا الإطار إلى تقييد حرية الكتاب فهناك لجنة تراقب الكتاب والصحفيين والكتب المعدة للنشر، وهناك رقابة على الكتب التي تدخل إلى الحجاز وهذا مما يضعف المجال الثقافي والأدبي في الحكومة السعودية الجديدة في الحجاز. ولذلك يقترح كاتبنا أن تخفف هذه الرقابة الصارمة وتشجع المثقفين والكتاب على الإبداع والإنتاج والنشر حتى يتم التثاقف والتواصل مع الآخرين في العالم العربي والإسلامي[20].

رابعاً: في المجال الاقتصادي:

وهنا يشير صاحبنا إلى مجموعة من المشاهدات في الحقل التجاري والاقتصادي في الحجاز أثناء هذه الرحلة، حيث يذكر أن التجارة في الحجاز متأخرة بسبب صعوبة المواصلات ووسائل النقل ولكنها بدأت في التحسن بعد دخول السيارات في العهد السعودي.

ويعتبر موسم الحج هو الموسم التجاري الرائج وقد يستمر إلى ثلاثة أشهر، كما يشير إلى كثرة الأسواق سواءً في مكة أو جدة أو المدينة المنورة ويسمي هذه الأسواق: سوق الليل، وسوق الشامية وسوق المسعى.

كما يشير إلى أن التجارة ترد من اليابان والهند والصين مثل المنسوجات الحريرية والقطنية والسبح، والسجاد والأواني النحاسية والفضية.

ويذكر أيضاً - في هذا السياق - أن التجار أغلبهم من غير أهل الحجاز بينما يظل الحجازيون عمالاً بأجور ضعيفة لدى هؤلاء التجار ويقترح في هذا الصدد أن تقوم الحكومة السعودية بدعم التجار المحليين وتمكينهم من العمل التجاري ومنع الأجانب من التجارة أو فرض الضرائب عليهم[21].

ومن التجارة الرائجة في الحجاز - كما يقول المؤلف - تجارة الرقيق/ العبيد والتي لاحظها في مكة ويشير إلى حالة نادرة لم أجد لها مثيلاً في كتب الرحلات في هذه الفترة. وكذلك تجارة النقود التي يعتبرها تجارة رابحة لأن العملة السعودية نوعان: نوع الجنيه الإنجليزي، والنوع الثاني العملة الفضية التي سُكّتْ في العهد السعودي[22].

وهكذا يقف بنا - صاحب هذه الرحلة - أمام مشاهده وآرائه في كثير من القضايا الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية والتعليمية، ويجعلنا أمام بانوراما واقعية لذلك العهد والفترة السياسية التي استقبلتها الحجاز في نهاية عهد الأشراف وبدايات العهد السعودي، مما يشكل لوحة تاريخية مزودة بكثير من شهادات الواقع، وتوقيعات الحاضر.

المحور الرابع: استنتاجات ختامية:

ومما سبق ذكره، يتضح أننا أمام أديب، صاحب قلم متمكن وحاذق في كتابة المذكرات والذكريات، بارع في رصد المشاهدات

وتحويلها إلى لغة سهلة سلسة، وقصة سردية جميلة وقادر على رفدها بالأدلة والإثباتات من مرجعياتها المختلفة. وليس هذا بغريب على من كان من أبناء الأزهر الشريف فهو يتكئ على حصيلة معرفية ودينية تمكنه من مثل هذه الكتابة الأدبية والخوض في فضاءاتها المتعددة.

لقد طاف بنا - كاتب هذه الرحلة - في جولة إيمانية منذ أن قرر التوجه لأداء فريضة الحج وحتى عاد منها، متداخلاً مع كثير من الإرهاصات السياسية والاقتصادية والدينية والتعليمية والثقافية والاجتماعية التي عايشها وتأثر با، فبثها في ثنايا كتابه/ الوثيقة «مشاهداتي في الحجاز» حيث يستطيع القارئ أن يتلمس بعض معالم هذا الخطاب الأزهري.

وفي الجملة فقد حاولنا في هذه المداخلة التعريف بهذا المنجز الأدبي في حقل رحلات الحج المباركة، والوقوف على أبرز المعالم التي ضمنها هذا الكتاب مما يضيف أبعاداً معرفية وثقافية لكل من يتواصل مع هذا العطاء الفكري والأدبي.

والحمد لله رب العالمين،،، جدة، 1425هـ



الهوامش والإحالات

(1) عباس متولي حمادة – مشاهداتي في الحجاز، ص 7.

(2) نفسه ص ص 13-19.

(3) نفسه ص ص 13، 15، 18.

(4) نفسه ص ص 14-15.

(5) نفسه ص ص 20-21.

(6) نفسه ص ص 24-25.

(7) نفسه ص ص 25-29.

(8) نفسه ص 31.

(9) نفسه ص 34.

(10) نفسه ص 42.

(11) نفسه ص ص 74-75.

(12) نفسه ص 79.

(13) نفسه ص 100.

(14) نفسه ص ص 29، 30، 53-57.

(15) نفسه ص ص 50-51.

(16) نفسه ص ص 27، 54، 55، 64.

(17) نفسه ص ص 65-66.

(18) نفسه ص ص 35-36.

(19) نفسه ص ص 57-59.

(20) نفسه ص ص 59-60.

(21) نفسه ص ص 47-48.

(22) نفسه ص ص 49-50.

من رحلات الغربيين إلى الحجاز

مقدمـة:

تعتبر كتب الرحلات والرحالة الغربيون إلى الحجاز والأراضي المقدسة مصدراً مهماً من مصادر تاريخ هذه المنطقة سواء على المستوى الديني أو الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي. وإن المطلع على ما كتبه أولئك الرحالة سيجد كماً معلوماتياً لا يستغنى عنه الباحث والدارس في أمور المنطقة وتقلباتها السياسية المستمرة.

يقول أحد الباحثين في هذا المجال(*) «وليس من المبالغة في شيء القول إن ما كتب عن جزيرة العرب وخاصة بلاد الحجاز والأماكن الدينية يعد أكثر ممَّا كتب عن أي جزء على وجه الأرض. بل إن ما كتب عن مكة المكرمة والمدينة المنورة في كافة المجالات يربو مئات المرات على ما كتب عن المدن الأخرى في الجزيرة العربية برمتها».

ولقد شهد القرن الخامس عشر الميلادي/ التاسع الهجري بدايات هذه الرحلات واستمرت حتى النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي. وتميزت هذه الرحلات بطابعها الفردي المبطن بالروح التبشيرية أو الاستخباراتية، أو العلمية والسياسية. وأياً

(*) الدكتور عبدالله بن إبراهيم العسكر: رحلات الغربيين إلى بلاد الحجاز. محاضرة قدمت في نادي الطائف الأدبي، الثلاثاء 1423/5/20هـ الموافق 2002/7/30م.

كانت هذه الغايات فإنها رصدت لنا أخباراً ومعلوماتاً هامة عن هذه المنطقة استفاد منها الدارسون والباحثون في جميع التخصصات.

وفي هذا السياق سوف نستعرض ثلاثة من الرحالة الغربيين زاروا الحجاز وسجلوا مشاهداتهم عن الحج والمشاعر المقدسة والمجتمع الحجازي لعلنا نتعرف على أدبيات هذا النوع من الرحلات والرحالة!!

(1) مستشرق فرنسي في الديار المقدسة:

في العام 1312هـ الموافق 1894م - وفي غير موسم الحج - تتهيأ الظروف لأحد المستشرقين الفرنسيين وهو: جرفيه كورتلمون (Gervais Courtellmont) أن يزور الديار المقدسة ويسجل ذكرياته ومشاهداته، ويوثقها بالصور الفوتوغرافية ضمن كتابه المعروف: رحلتي إلى مكة المكرمة.

وكان الهدف منها: جمع المعلومات عن الظروف التي يعيشها الحجاج المغاربة القادمون من مناطق السيطرة الفرنسية، ودراسة الأثر الروحي الذي يحدثه الحج في نفوس الحجاج بعد عودتهم إلى ديارهم.

من الجزائر تبدأ رحلة هذا المستشرق، حيث ادعى الإسلام وأسمى نفسه عبدالله بشير، وتعرف على الحاج الجزائري «آكلي» الذي سيرافقه الرحلة ويكون دليله وصديقه. وهاهو يصف هذه التجربة منذ أن يغادر الجزائر وحتى يستقر به المقام في مكة المكرمة وديار الحجاز.

يقول كورتلمون إن رحلته البحرية بين الجزائر والسويس في القطر المصري استغرقت سبعة أيام، وبين السويس وجدة في القطر الحجازي استغرقت ثلاثة أيام. وقد وصف الرحالة ما عاناه في البحر

من الأهوال وتلاطم الأمواج وحالة السفينة في هذه الأحوال الهائجة والعواصف البحرية.

ولما يصل جدة يلفت نظره وقوف السفن ورسوها بعيداً عن الشاطئ بسبب الشعب المرجانية مشيراً إلى أن كثيراً من السفن تحطمت بسببها «فهذه سفينة تجارية مشطورة إلى نصفين»، «وهناك يظهر على سطح الماء شراع وبجانبه قمة مدخنة» وهذه «سفينة تجارية جميلة قدمت من «موغادور» من طنجة كانت محملة بالحجاج المغاربة غرقت ولكن ركابها أنجاهم الله»!! كما يقول.

ثم يصف أحد الرجال الجديين المسؤولين عن استقبال السفن وإرشاد ركابها إلى النزول واستخدام السنابيك للوصول إلى الشاطئ، فهذا الرجل «يرتدي بدلة طويلة وعلى رأسه عمامة متواضعة، لون عينيه أسود داكن كما لو أنهما محترقتان، يحدق في الأفق دون أن يرمش ويعطي أوامره المتعلقة بإجراءات الوصول باللغة الإنجليزية».

كما يصف مشهد السنبوك (القارب) وهو يحملهم إلى الشاطئ فيقول: إن العاصفة هبت «وكان قاربنا يتلوى بين الصخور المرجانية ويترنح أحياناً بشكل خفيف مثيراً هلع الشيخين البدويين اللذين ليس لديهما خبرة في ركوب البحر».

ثم يصف الازدحام الشديد أمام بوابة الجمارك والحجر الصحي وكيف قبض عليه رجال الشرطة الأتراك للتحقق من هويته وهنا يقول: «إنها بداية سيئة فأنا لا أعرف اللغة التركية وعربيتي الجزائرية لا يفهمها أحد».

ولما تخلص من الأسر والتوقيف بعد تدخل مرافقه الجزائري أخذ جولة على مدينة جدة للتعرف عليها حيث وصفها بأنها «مدينة حيوية موحشة، مبنية على منبسط رملي منخفض، لا يوجد فيها أي تل أو منحدر، إنها شاطئ محترق ومجدب، مرفؤها موحش ووضعها محزن، الإقامة فيها لا يمكن تحملها، ينقض عليك لفيف من الناموس ليل نهار، والماء فاسد، والحرارة مليئة بالرطوبة، لا يوجد فيها أي أثر للخضرة يمكن أن تبدد كآبة المنظر الحزين. أما الشوارع فمملوءة بالحيوية والبيوت محكمة البناء، مزينة بالمشربيات وجدرانها من الحجر».

ويختم وصفه لمدينة جدة: «إنها مركز تجاري كبير ولكنها تنتمي إلى زمن آخر. إنها واحة من الصخور ضائعة على هذا الساحل العقيم المفرغ!!».

كما يصف مقبرة السيدة حواء وضريحها والسور المحيط بجدة والمتهدم من بعض جهاته، وهنا يتهم الحكومة العثمانية على هذا الإهمال والتهاون!!

وحين سفره إلى مكة، يصف الطريق والمواصلات فيشير إلى أن المسافة بين جدة ومكة 87 كيلومتراً يقضيها المسافر خلال يومين ووسيلة المواصلات هي الحمير والجمال ولابد أن يختار إحداهما، وكان يميل الرحالة كورتلمون الفرنسي للجمال يقول: «كنت أرغب في امتطاء الجمل الذي أحب خطواته التي تشبه المهد، ومشيته الاسترخائية، الجمل هو المطية الحقيقية في هذه الأماكن المقفرة والقاحلة، إنه الجمل المثير للسخرية والمعاند، وعلى الرغم من أن مواقفه غريبة إلا أن قلبه طيب إنه الجمل الذي لا يتوقف عن الشكوى سواء عند تحميل

الأغراض عليه أو عند إنزالها في الوقوف وفي البروك، لكنه يسير دائماً دون أكل أو شرب، إنه حيوان مناسب خُلق للصحراء لمواجهة كآبة هذه البلدان العتيقة الميتة وبعزلتها التي لا نهاية لها».

ورغم هذه المميزات للجمل، اضطر لاختيار الحمير الحجازية لأنها مدربة على نقل المسافرين ولها سمعة جيدة في هذا المجال وبخبرتها ستقطع المسافة بن جدة ومكة في رحلة واحدة، دون الحاجة لتغييرها.

أما الطريق بين جدة ومكة فهي غير آمنة «لأنها ملأى بالبدو النهابين»!!

ومن الغرائب التي تبدو في هذه الرحلة أن الفرنسي كورتلمون يلبس ثياب الإحرام من جدة وليس من الميقات الذي يمر به حجاج المغرب العربي القادمين بواسطة البحر وهو ميقات «الجحفة» بالقرب من «رابغ»، وقد اعترف بذلك عندما قال:

توضأت الوضوء الأكبر وربما يقصد (الاستحمام)!! ولبست ثوب الإحرام وهو اللباس الوحيد الذي يرتديه الحاج وينحصر في قطعة من الثوب غير مخيطة تلف على الخصر.

ثم يصف حالته أثناء الطريق ومنها تتضح مشاعره النفسية وأحواله الفكرية وأعماقه الشخصية التي تظهر خلف كلماته وعباراته، يقول:

«هاأنذا على الطريق أمتطي حماري عاري الجذع حليق الرأس تحت وهج الشمس في الساعة الثانية ظهراً وأنا أعاني الخوف من ضربة شمس» ولما أخبر مرافقه الجزائري بهذه المشاعر والخواطر رد عليه بخشونة: ألست بين يدي الله فما الذي تخشاه؟!

وكان الطريق الذي سلكه من جدة إلى مكة يعبر الكثير من الوديان والسهول والمرتفعات الجرداء التي تشبه البراكين الخامدة، وإذا دخل الظلام اشتد الخوف وزاد الترقب والحذر. وكانت القوافل تشاركه الطريق «وتسوقها أشباح سوداء لا تتبادل مع الآخرين أي تحية ولا كلمة سلام خلافاً للأعراف العربية» كما يقول.

وفي «حدة» - وهي قرية (في منتصف الطريق تقريباً) بين جدة ومكة - ينزل الرحالة الفرنسي «كورتلمون» ورفيقه في إحدى مقاهيها للصلاة والراحة والأكل وفي منتصف الليل يغادرون إلى مكة، وبالقرب منها ينزلون للنوم والمبيت.

وفي الصباح ومع بزوغ الفجر يصلون إلى حدود الحرم ليلاحظ وجود عمودين من الأسمنت إشارة إلى تلك الحدود التي قيل له عنها إنها نقطة بداية تحريم الصيد أو قتل أي حيوان بري مع وجود أسراب كثيرة من الطيور والحمام البري الذي يقترب من القوافل دون أي شعور بالخطر فهي آمنة مطمئنة لأنها في أرض الحرم.

وما هي إلا سويعات حتى وصل الرحالة الفرنسي إلى بيت الله الحرام والكعبة المعظمة واستقبلهم المطوف عبدالرحمن بوشناق وهنا يقول: «ها هي الكعبة المشرفة تقف شامخة أمامنا بإجلال، محاطة بستارها الأسود المزخرف.. إنها بيت الله بالنسبة لجميع المسلمين. سرة الدنيا».

وينقل الرحالة الفرنسي عن المطوف بوشناق كلمة مهمة: «أخي لا تعتقد أنك تعبد هذا الحجر أو هذا القماش أو الذهب الذي يحيط

بها، أنت هنا في مركز الأرض تتجه نحوها جميع الصلوات في العالم الإسلامي تتجمع كلها في هذا المكان لترفع مباشرة إلى السماء، أنت هنا أقرب إلى الله..».

ويورد الرحالة الفرنسي معلومة غريبة عن شرب ماء زمزم لغير المسلمين فيقول: «إنه شرب بلذة من ماء زمزم واستزاد منه مع أنه سمع أن المسيحي لا يمكن أن يبتلع جرعة واحدة من ماء زمزم دون أن تنسد حنجرته، بل إنه سيختنق بهذا الماء بدل أن يشربه، وأن الرجل سيئ النيَّة سيجد في ماء زمزم طعماً كريهاً..»!!

ويصف هذا الرحالة صلاة المغرب في الحرم الشريف حيث كان عدد المصلين حوالي عشرين ألفاً تراصوا في صفوف منتظمة، يقفون في سكون وثبات وعمَّ الحرم الشريف صمت مطبق، وامتلأت القلوب بالإيمان ولا تسمع إلا الله أكبر فيردد الجميع بصوت واحد خافت الله أكبر فتسمع لها جلجلة تستمر مدة طويلة مع انحناء المصلين للركوع. تستمر الصلاة ومعها تستمر جباه المصلين في ملامسة الأرض (يعني السجود) عبادة لله وخضوعاً له، ثم تتوالى الركعات في حركات هادئة مملوءة بالإجلال فتزيدهم وقاراً وهكذا إلى أن تنتهي الفريضة بالسلام.. تنتهي الصلاة إلا أن المصلين يستمرون في الجلوس في صمت يتأملون وهم يمررون بين أصابعهم حبات السبحة المصنوعة في أغلبها من العاج.

ثم يصف الحرم الشريف أثناء الليل في الفترة ما بين المغرب والعشاء حيث تغيب الشمس وتبدأ فترة الشفق، وذلك في عبارات تصويرية غاية في الجمال والعذوبة والروعة اللغوية حيث يقول:

«وفي وسط لمعان شعاع الذهب المتوهج المنتشر في كلٍ الجهات يتوالى بروز بصيص لون وردي ذي دفء لانهائي محيطاً كل شيء بشعاع دافئ، ثم يتحول هذا البصيص إلى لون ضارب إلى البنفسجي فإلى لون الحديد الرمادي ثم يجيء الليل ليلقي بظلاله على الحرم الشريف شيئاً فشيئاً ناشراً ثوبه الأدكن لإخفاء كل هذه الاشياء الروحية، وبعد أن يصبح الظلام أكثر كثافة يعود الناس بلباسهم الأبيض إلى الطواف بصمت، يتحركون كالظلال فوق البلاط المصقول حول الكعبة المشرفة التي يتماهى ستارها الأسود بسرعة في ظلال الليل. هاهي ذي المصابيح الكثيرة تتلألأ في الحرم الشريف تنير الليل بشرارتها اللامعة مكسرة جمال المكان فيشرع الناس في التحاور بينهم ويزداد التحرك نحو الانصراف وكثرة الذهاب والمجيء إلى أن ينسحب الجميع..».

ثم يصف الرحالة الفرنسي كورتلمون بيوت مكة التي تمتاز بالسطوح وهو «المكان الأكثر متعة في البيت، ينام الناس فيه، ولا يحتاجون للغطاء ويقسم إلى طبقات ومستويات فيصبح على شكل مدرج ليكون أكثر ملاءمة وستراً، ويتحول السطح إلى شقة حقيقية بدون سقف.

كما يصف صداقاته في مكة وعلاقاته التي بناها طوال مدة إقامته فيها فهذا عبدالواحد وأصله مغربي، الذي كان يرافقه في جولاته الطويلة في مكة ومنى وجبل أبي قبيس وغيرها. وهذا أحمد بوشناق أخو المطوف عبدالرحمن الذي كان يساعده في الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة وتقبيل الحجر الأسود وهذا الدرويش الجزائري الحمال الذي ساقته الأقدار للإقامة في مكة والعمل فيها

لخدمة الحجيج، وهذا مفتي المالكية الشيخ محمد عابد الذي ربطت بينهما علاقة ثقافية وعلمية وحوارات فكرية طوال فترة وجوده في مكة.

ثم يصف جبل أبي قبيس الذي تمكن من صعوده بمرافقة عبدالواحد من أجل الحصول على صور خاصة لمكة المكرمة من أعلى جبالها حيث يقول:

صعدنا معاً ذات صباح إلى جبل أبي قبيس وهو جبل وعر يشرف على المدينة وتوجد في قمته قبة صغيرة أنيقة، قليلون من الحجاج الذين يذهبون إلى هناك من أجل الاستغفار أو التعبير عن أمنياتهم، أما أنا فكنت آمل التقاط صورة بانورامية للمدينة المقدسة من هذه النقطة التي تشرف عليها..

وفي سياق مختلف نجد الرحالة كورتلمون يذكر أن عدد سكان مكة المكرمة حوالي مائة ألف نسمة وأغلبهم من الهنود الذين يشكلون ما نسبته 75 ٪، كما يذكر أن مكة تشتهر بالمهن التي تتوزع في أسواق متخصصة فهناك سوق الأقمشة، وسوق العطور، وسوق الذهب والصاغة، ولكل مهنة شيخها القيِّم عليها. كما يشير إلى عناية أهالي مكة وساكنيها بنظافة مدينتهم كل في الشوارع المحيطة بدورهم وذلك بشكل تطوعي وهذا أعطى للمدينة المقدسة بهاءها وجمالها ونظافتها الدائمة ووثق بين السكان والمقيمين روح التضامن الكبيرة السائدة بينهم.

وفي جوانب أخرى من رحلته يذكر عشقه للتسوق والشراء من هذه الأسواق وما عاناه من ذلك في سوق الذهب والفضة. ثم يصف البيوت والمنازل المكية فهي «جيدة البناء، مبنية من الأحجار والبلاط ومدعمة بأعمدة من خشب، وتتألف من دورين أو ثلاثة إلى خمسة

أدوار وجميعها مزينة بالمشربيات المصنوعة من خشب الهند وغالباً ما يكون حسن الصنعة. ويجنح المعماري أحياناً إلى إعطاء واجهة البناية أشكالاً طريفة لا تخلو من جمالية حقيقية أما البيوت من الداخل فمرتبة بعناية خصوصاً ما يتعلق منها بوسائل الراحة. وأما الأدوار العليا فأكثر إتقاناً لأنها المكان الوحيد الذي يمكن التعرض فيه لبعض هبات الريح الذي يعز في هذا البلد لكن ألطف ما في البيوت العربية دون شك هي سطوحها التي لا تستخدم مع الأسف إلا في الليل..».

بهذه الصور التعريفية يختم الرحالة الفرنسي كورتلمون المعروف بـ عبدالله بشير رحلته إلى مكة ليكون أحد الغربيين الأوائل الذين دخلوا الحرم الشريف بصورتهم الإسلامية وخلفيتهم المسيحية.

لكن أغرب ما جاء فيها هي قصة الجمال الخضر والفتى المورسيكي التي ذكرها نقلاً عن مفتي المالكية الشيخ محمد عابد.. والتي سنأتي على ذكرها في مبحث العجيب والغريب من أدب الرحلات الحجازية.

بقي أن نقول إن هذه الرحلة من أهم الرحلات الغربية/ الفرنسية تحديداً، لأنها اشتملت على صور نادرة ووحيدة قام بتصويرها الرحالة نفسه وهي أكثر من واحد وثلاثين صورة فوتوغرافية متميزة، كنت أتمنى أن أرفق بعضاً منها في هذه الورقة ولعل الزمن يتيح لي ذلك(*) .

جدة 1434/1/20هـ

(*) للتوسع انظر:
- مجلة المعرفة، العدد (165)، ذي الحجة 1429هـ، مقال بعنوان: رحالة فرنسي يرسم مكة المكرمة بالكلمات، للكاتب بدر الخريف، ص ص 49-61.
- الدكتور محمد خير البقاعي: جيل - جرفيه كورتلمون، قراءة في كتابه رحلتي إلى مكة المكرمة، ورقة عمل قدمت في الندوة السنوية الكبرى لموسم الحج 1422هـ (أدب الحج) ونشرت في السجل العلمي التوثيقي لهذه الندو التي نشرته وزارة الحج، ط 1، 1423هـ/2003م، تحرير أبو بكر باقادر، ص ص 569-600.

(2) النمساوي المسلم في قلب الحجاز:

ومن أهم الرحلات الحجية الغربية التي شهدتها منطقة الحجاز والديار المقدسة، هي رحلة المفكر النمساوي جنسية، واليهودي ديانة «ليوبولد فايس» والذي أسلم عام 1926م وسمى نفسه «محمد أسد».

لقد تعرف «محمد أسد» على الإسلام والثقافة الإسلامية من خلالٍ جولاته ورحلاته في ديار العالم الإسلامي من الشمال الأفريقي غرباً إلى أفغانستان شرقاً، وبعد أن تعمق في قراءة الشريعة الإسلامية والتاريخ الإسلامي وبذلك تشبعت روحه ونفسه بكل المعاني والقيم والحقائق عن الدين الإسلامي الحنيف. ثم توج ذلك كله برحلته إلى الحج في العام 1927م - في بدايات العهد السعودي وحكم الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله - وقد وثق هذه الرحلة في أحد كتبه المشهورة وهو كتاب «الطريق على مكة» المطبوع في بيروت عام 1956م، وأهداه إلى الملك سعود رحمه الله.

يشير الرحالة النمساوي المسلم «محمد أسد» إلى بداية رحلته الحجية إلى الحجاز، فقدٍ بدأها من مصر، ومن السويس تحديداً حيث اتخذ البحر طريقاًإلى الحجاز والسفينة (الباخرة) وسيلة للمواصلات، وزوجته إلسا وابنهما الأصغر أحمد رفقاء الرحلة. ولقد شاركه في السفينة التي أقلته للحجاز حجاج مصر، وحجاج الشمال الأفريقي، وكانت هذه الباخرة تابعة لشركة البواخر التي لا يهمها راحة الحجيج بقدر ما يهمها النَّهم والجشع كماً يقول، فقد تأذى من ازدحام الحجيج وكثرتهم «فقد حشرتهم حشراً في كل مكان، على السطح وفي الغرف والممرات والسلالم وفي كل زاوية توفرت لديها» وفوق ذلك لم

توفر لهم الطعام والماء وقضوا أيامهم البحرية في شدة وبلاء ولكنهم كانوا راضين ومؤمنين ومتيقنين من هدفهم النهائي وغايتهم الدينية وهي الوصول إلى مكة وأداء شعيرة الحج فيخفف ذلك مما هم فيه متوسلين بالتلبية والذكر والدعاء.

ويبدأ الحاج/ الرحالة «محمد أسد» في سرد مشاهداته في البحر الأحمر وتأملاته الفكرية. فهذا البحر لا يعرف سبب تسميته ووصفه بالأحمر، ذلك أن مياهه شهباء تعكس ما حوله من الجبال السوداء العارية والصخرية الجرداء - كما يقول - ثم تصبح مياهاً زرقاء وقت الصباح كمياه البحر المتوسط. ولعله هنا لم يسمع بسبب تسمية البحر الأحمر لوجود الشعب المرجانية في أعماق البحر ويميل لونها إلى الحمرة فسمي بذلك ربما فيما بعد وقبل أن تصل إليه هذه الثقافة الجديدة!!

ثم يصف مشاهداته في «رابغ» المدينة الحجازية الساحلية التي يقف عندها ركب الحج المصري، فيقول عنها إنها ميناء صغير شمال جدة، يتوجب على الحاج أن يحرم منها ويطرح ثيابه اليومية ويضع على جسمه لباس الإحرام وذلك «اتباعاً لسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم وحتى تزول الفوارق الطبيعية بين الناس فلا غني ولا فقير ولا رفيع ولا وضيع، فالجميع سواسية أمام الله والناس»، كما يقول.

وسريعاً اختفت الألبسة الزاهية «فلم نر الطرابيش التونسية الحمراء، أو البرنس المراكشي الفاخر، أو جلابيات الفلاحين المصريين المزخرفة، ولم يبق إلا هذا اللباس الأبيض المتواضع»!!

وبعد ثلاثة أيام، تبدو للرحالة محمد أسد، معالم مدينة جدة، فيرتفع الصوت بالتكبير والتلبية «لبيك اللهم لبيك». وها هي جدة «بيوتها الحجرية المرجانية الحمراء والصفراء الداكنة، والنوافذ المنقوشة والمشبكة، وستائر الشرفات الخشبية. وفي الوسط برزت منارة بيضاء مستقيمة كأصبع منتصبة»!!

وها هي القوارب تصل إلى السفينة التي رست بعيداً عن الشاطئ بسبب الشعاب المرجانية، وتحمل الحجاج وأمتعتهم لتوصلهم إلى الميناء.

وفي جدة، يصف صاحبنا أسواقها ومجتمعها الخليط من أجناس كثر، وبيع الطعام المكشوف، والمقاهي ذات الأواني النحاسية، والمقاعد المصنوعة من جذوع النخلِ، والحوانيت الصغيرة الملأى بالبضائع الشرقية والأوروبية، مشيراً هنا إلى أن جدة هي المدينة الوحيدة في الحجاز التي يسمح لغير المسلمين أن يقيموا فيها!!

ولما غادر جدة إلى مكة، يقدِّم لنا وصفاً للطريق «سهلٌ عريضٌ أشهبٌ متوحد، وتلالٌ منخفضةٌ معزولة، جرداء لا أثر فيها لأي حياة. وفوق هذا السهل كانت القوافل تشق طريقها بعناء، وفي مواكب طويلة مئات وألوف من الجمال والحمير وبعض السيارات التي تزعق أبواقها مبددة صمت المكان، ومثيرة للجمال التي بدأت تحس بعداوة السيارات "لقد كان هناك زمن جديد يقترب، مهدداً تلك الحيوانات الشامخة الصابرة، فيملؤها خوفاً وتشاؤماً» كما يقول!!

ثم يصف «بحرة» القرية الواقعة في منتصف الطريق، يستريح فيها الحجاج طيلة النهار، ثم يواصلون سيرهم في الليل، بسبب الحر الشديد، وهي مبنية من الأكواخ وسيقان النخيل، وبها مسجد صغير. وفي ذلك المكان شاهد عجباً من المخيمين بجواره وهم من بلاد

البنقال، إذ كانوا يتحلقون حول رجل منهم استبد به المرض، وقربت منه المنيَّة، ولما أسلم روحه لله، لم يبك منهم أحد وكأنهم فرحون بموته في الأراضي المقدسة، وهو في طريقه للحج فغُسِّل وكُفِّن وصُلِّي عليه ودُفِن، وهم في راحة وأمن وطمأنينة أن الله قد قَبلَه شهيداً.

وما إن يصل مكة، حتى يصف لنا بيوتها وأسواقها ومجتمعها، ولكنه يتوقف عند مشاهدته للحرم الشريف والكعبة المعظمة، واصفاً ذلك وصفاً دقيقاً إذ يقول «ومن ثم رأيت لأول مرة، المربع داخل الحرم يحيط به من كل جانب، أروقة ذات أعمدة كثيرة، وعقود نصف دائرية، وفي وسطها مكعب علوُّه أربعون قدماً تقريباً، مكسوٌّ بقماش أسود، له حاشية عريضة، طُرزت عليها بخيوط من ذهب، آيات قرآنية!! هذه إذن الكعبة جزيرة هادئة وسط ساحة المسجد المربعة الواسعة، أبسط من أي أثر معماري آخر في العالم، ويكاد يبدو أن أول من بنى الكعبة، قد أراد أن يوجد رمزاً لضعة الإنسان أمام الله!!» كما يقول.

ويصف حاله في الطواف، ومشاعره تجاه إخوانه الحجاج المسلمين من كل بقاع الدنيا، يقول: «وأصبحت جزءاً من ذلك السيل البشري الدائر حول الكعبة، أناس يبكون، وآخرون يبتهلون إلى الله بالدعاء، وآخرون يمشون مطأطئي الرؤوس»!!

كما يذكر الرحالة محمد أسد وفاة زوجته في مكة بعد مرض دام أقل من أسبوع، بسبب الحر، والأطعمة التي لم تكن قد اعتادتها، وقد دُفنت في مقبرة مكة الرملية - ولعله يقصد مقبرة المعلاة - ووُضع حجر فوق قبرها وقد عانى بعد وفاتها الكثير، فأحس بالفقد والذكرى وظلمة لم تنقشع إلا بعد زمن طويل كما يقول.

وفي عرفات، يوم الوقفة، ويوم الحج الأكبر – يتذكر مشاهداته الروحانية، ووقفاته الإيمانية العميقة، فيصور لنا ذلك في لغة فلسفية إذ يقول: «في وسط هذا القفر الميت من الوديان والتلال يقع سهل عرفات، حيث يتجمع فيه الحجاج، كيما يذكروا ذلك «اليوم الآخر» عندما يتعين على الإنسان أن يؤدي لخالقه حساباً عن كل ما أتاه في هذه الحياة الدنيا!! كم وقفت هناك عاري الرأس، في ثوب الإحرام، بين حشد من الحجيج مولين وجوهنا نحو جبل الرحمة، واقفين متربصين حتى الظهر، وحتى الأصيل نتفكر في ذلك اليوم، الذي لا مفر منه، يوم الحساب!!».

بهذه العبارات الفلسفية/ الإيمانية يختم الرحالة/ الحاج النمساوي/ المسلم/ المستشرق محمد أسد أطروحته عن مشاهداته وملاحظاته في حجته الأولى عام 1927م(*).

جدة 1434/2/10هـ



(*) محمد أسد: الطريق إلى مكة، ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، 1956م.

(3) طبيبة ألمانية في الحجاز:

... لا يدري الإنسان الغربي/ غير المسلم، كيف تجيء ساعة الهداية الربانية لدين الإسلام. وهذه واحدة من سيدات المجتمع الأوروبي، وتحديداً من ألمانيا، عاشت أسرتها في تركيا، وكان أبوها يعمل طبيباً منذ العام 1964م ومعه عائلته وابنته (ميشائيلا) ذات الثلاثة عشر ربيعاً.

لقد تفتح عمر هذه الشابة على روحانيات الإسلام ومظاهره في تركيا حيث الأسر المسلمة والشعائر الإسلامية من آذان وصلاة وصيام، ومعالم الإسلام من مساجد ومآذن ومتاحف، وبدأت تقترب من هذه الروحانيات حتى استسلمت لدين الله الإسلام وشعرت بقربها النفسي والروحي من هذا العالم فأسلمت وحسن إسلامها وعاشت كل فضاءاته المعرفية والروحية.

أسلمت «ميشائيلا» وواصلت تعليمها حتى حصلت على الدكتوراه في الطب النفسي، وافتتحت عيادة طبية في بلدتها «فرانكفورت» بألمانيا. وفي عام 1996م الموافق 1416هـ، راجعتها في العيادة عجوز تركية في الستين من عمرها فذكرتها بأيامها الأولى في تركيا، وحصل بينهما الكثير من الألفة والصداقة والمحبة ما جعلهما يسعيان لأداء فريضة الحج معاً في ذلك العام مع حملة للحج يقوم بها ويشرف عليها المركز الإسلامي التركي في ألمانيا.

ولما تحقق لها ذلك سجلت مذكراتها ومشاهداتها في واحدة من أغرب رحلات الحج التي قام بها الغربيون إلى مكة المكرمة والحجاز. فها هي تصف مشاعرها وهي تركب الطائرة السعودية، وتستمع إلى

دعاء السفر باللغة العربية، فيخفق قلبها بشدة، وتشعر بالطمأنينة والسلام تحفان بالطائرة وركابها، وأنها بين قوم متجهين إلى الله يهللون ويكبرون ويصلون قياماً وقعوداً، وتشعر برغبة ملحة في تلاوة سورة (الكافرون). لتذكر نفسها بما هي فيه من نعمة الإسلام والخلوص من الكفر والشرك والكافرين. وهذه قمة المشاعر الإيمانية التي كست روح هذه الحاجة/ الطبيبة/ الألمانية وغطت قلبها بمشاعر الغبطة والفرح!!

وها هي تصف مشاعرها وهي تسمع الحجيج في الطائرة يرفعون أصواتهم بالتلبية فتقول إن صوتاً كهذا يجعل الدموع تنساب والخشوع يعم، وتتذكر أنها المرة الأولى التي تخرج من بيتها دون زينة من كحل وغيره ولذلك لم تبال بانهمار دموعها لأن الكحل لن يختلط بدموعها - كما تقول - وهاهي تبكي مثل كثير من الحجاج رفقائها في الطائرة ولا تشعر بالحرج من هذا التدفق العاطفي والبكاء الممزوج بالنشيج وهو تعبير عن الشوق واللهفة لبيت الله الحرام وسعادة باستجابة دعائهم وتحقيق أملهم في تأدية هذه الشعيرة الإيمانية!!

وفي مطار جدة، تذكر هذه الحاجة الألمانية، حرص رجال الجوازات على التفتيش والتدقيق حتى لو أدى ذلك إلى تأخر الحجاج في صالة المطار لدرجة التعب والإرهاق، والوقوف حائرة أمام تصرف أحد رجال الجوازات الذي يقوم باللف والدوران حول الحجاج الذين قسمهم إلى مجموعتين حسب الجنس فالرجال في جهة والنساء في جهة أخرى، وتصف بعض المواقف الأمنية غير المبررة - من وجهة نظرها - فموظف الجوازات يقوم - من حين لآخر - باختيار إحدى

السيدات بصورة عشوائية ويأمرها أن تنتقل من مكانها إلى مكان آخر يحدده حسب مزاجه ولا أحد يفهم لماذا يفعل ذلك ولكنهن يستجبن ولا يقمن بالجدل والمحاورة لأنهن في لباس الإحرام ويشعرن بالإرهاق الشديد والتأخير الممل، ولكنهن يتغيرن فجأة إلى النشاط والهمة والحيوية وذلك بعد أن قام أحد الحجاج الأتراك المسنين - والذي يبدو عليه الضعف والهزال وكبر السن - بالتلبية والتكبير بصوت مرتفع وشجي، فاستجاب له الآخرون ورفعوا أصواتهم بالتلبية حتى اهتزت له جنبات المطار!!

وفي الطريق إلى مكة، تشاهد الحاجة «ميشائيلا» لوحة إرشادية لمنع غير المسلمين من دخول الحدود الآمنة للحرم الشريف، فتشعر بالسعادة لانتمائها إلى جموع المسلمين الذين سيتاح لهم الدخول إلى مهد الإسلام ومنطقة الحرم حاجة/ ملبية/ داعية.

وفي مدخل مكة المكرمة تقول: إنها شاهدت لوحة إعلانية دعائية لسلسلة مطاعم «ماكدونالدز» بحروف عربية، فاستغربت أن تجد هذا المنتج الغربي يطاردها في كل مكان.

وفي الفندق الذي نزلت فيه تقول إنها تعلمت المزيد من الصبر وتربية النفس على التحمل والجلد، لأنها وجدت نفسها تشارك (ستا) من السيدات في حجرة واحدة تعاني إحداهن من الشخير المزعج، كما وجدت نفسها تشترك مع (أربعة وثلاثين) سيدة في دورة مياه واحدة مع ما يحدثه هذا من زحام وتأخير لقضاء الحاجة، وتظل النساء مستسلمات لقدرهن فلا رفث ولا غضب!!

ويبدو أن هذه الحاجة الألمانية وصلت مكة وزارت الحرم الشريف أثناء الليل. فهاهي تصف مشاعرها عندما لاحت أنوار المآذن فتقول: إن قلبها لم يتوقف عن الدق بعنف، ولما رأت الكعبة تملكها إحساس غريب فهذا البناء الصغير يختلف عن الصورة الذهنية التي رسمتها قبل هذه المشاهدة الحقيقية. وهنا تؤكد: إن هذا البناء الصغير لبيت الله الحرام/ الكعبة - رغم بساطته - فإنه أعظم بناء في العالم.

ثم تصف الطواف حول البيت الحرام ومشاعرها النفسية أثناء أداء ذلك الركن العظيم حيث فقدت كل إحساس بالزمن وفقدت ما يميزها عن غيرها فهي قطرة في محيط هادر ترتفع معه وتهبط، وتشعر أنها تخلصت من جسدها وارتحلت إلى أعماقها رغم الإرهاق الشديد وقلة الطعام والنوم والاندماج مع الطائفين بكل فئاتهم، فأصبحت بذلك إنسانة أخرى ذات وعي جديد مختلف عما كانت عليه قبل الحج، وتتعجب من هذه المعجزة الإلهية فهذا التيار المتدفق من البشر لم يتوقف عن هذه الشعيرة طوال أربعة عشر قرناً - كما تقول.

وفي المسعى تتذكر السيدة هاجر التي هرولت في ذات المكان بحثاً عن الماء لوليدها نبي الله إسماعيل وما تحقق لها من ظهورزمزم وقصتها الروحانية عندما نبع الماء تحت قدمي إسماعيل عليه السلام ففرحت به وزمزمته حتى لا يضيع في البيداء المكية. وتذكرت حينها أهمية هذا الماء المبارك وما سمعته عنه من أحاديث فهو لما شرب له.

ومن مشاهداتها في الحج - وفي المطاف والمسعى تحديداً - ما عانته من الحجاج ذوي الأجسام القوية الذين يتدافعون ويؤذون الآخرين وخاصة النساء، فعند تقبيل الحجر الأسود يباغتها رجلان

من ذوي الأجساد القوية فيزيحانها ويبعدانها بعنف شديد ليصلا إلى الحجر الأسود دون آبهين بهذه الحاجة ورفيقتها التركية.

وفي عرفات ومزدلفة تتعجب من كثرة الحجاج وزيادة أعدادهم مع ضيق المساحة في هذين المشعرين ولكن العناية الإلهية توسع المكان لهم وتقول: إنها لم تر في حياتها كل هذا العدد من البشر في صعيد واحد، فإذا حان موعد الصلاة اتسع لهم المكان وتحركوا بانتظام ركوعاً وسجوداً في مهابة وخشوع أمام رب عرفة والمزدلفة وكل بقاع الدنيا والسموات السبع.

وفي منى تحدثنا هذه الحاجة الألمانية بما شاهدته وحصل لها أثناء رمي الجمرات، فهؤلاء مجموعة من الرجال يتعاركون ويتزاحمون ويضربون ليوسع لهم الطريق، فينالها من ذلك العنف الجسدي بين الحجاج ضربة على رأسها تفقدها الوعي وتشعر معها بدوار شديد وتكاد تسقط على الأرض لولا زحام الناس عند الجمرات ومساعدتها لسقطت وداستها الأقدام، كما تقول.

كما تشير إلى أولئك الرجال الذين يحيطون نساءهم وبناتهم وزوجاتهم أو أمهاتهم فيوسعون لهن الطريق ويحجزون الحجاج عنهن!! وتتعجب هنا فتقول: «إنها لا تفهم سبباً لكل هذا العنف في موقف رباني يستشعره الإنسان الحاج. وهنا تخرج بنتيجة ورؤية دينية حول هذا العمل البشري غير المنسجم مع الروح الإيمانية فتقول: إنها تعتبر مرتكبي العنف بين الحجاج مثل خلايا السرطان في الجسم، عناصر تتحول من خلايا سليمة إلى شيء فاسد خبيث ينتشر فيؤذي من حوله.

وأمام زمزم - الماء المبارك - تقف هذه الحاجة الألمانية متسائلة عن بركة هذا الماء ودوره في تزويد الحجاج بالرائحة العطرية/ الزكية لأنهم يشربون منه ويغتسلون فلا يعرقون «لأن الجسم يرفض التخلص من هذا الماء فلا يعرق من يشربه، ولا يحتاج للتوجه إلى الحمام مهما شرب منه» كما تقول!! ولذلك قررت أن تغسل شالاً من القماش في ماء زمزم وتقسم ألا تغسله أبداً بأي ماء آخر لتهديه إلى ابنتها (أمينة)».

وفي نهاية رحلتها الحجية تذكر هذه الطبيبة الألمانية ميشائيلا مجموعة من المعجزات التي لا تحدث إلا في مكة وفي الحرم تحديداً، فرائحة المسك المنبعثة من الحجر الأسود ومن شمها دخل الجنة. والحمام الذي يطير في أرجاء الحرم فلا يعلو فوق الكعبة ولا يقف على سطحها ولا يلقي بمخلفاته في الحرم رغم أن أسرابه لا تنقطع ويظل ستار الكعبة دائماً نظيفاً.

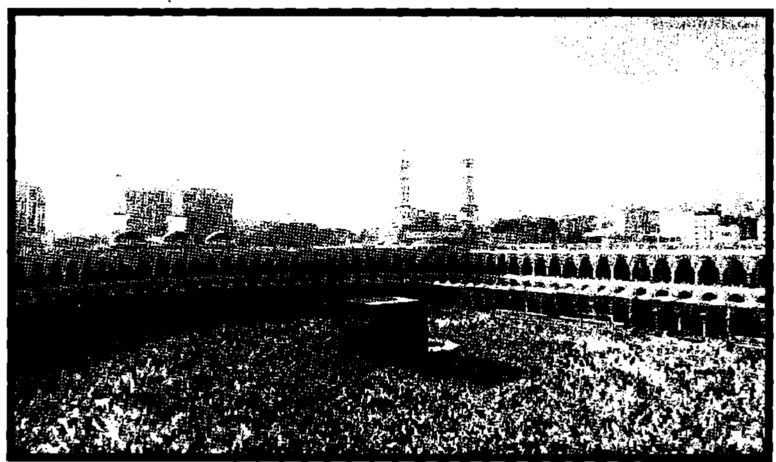
وتختم رحلتها المكية بما عانته في مزدلفة حيث مرضت وتعبت وألفت نفسها مريضة واهنة أشد الوهن وراقدة في تراب مزدلفة ولكنها تشعر في تلك اللحظات أنها في نقطة ارتفاع وسمو روحاني لم تشعر بمثله طوال وجودها الحياتي.

هذه إحدى صور ومظاهر الحج، من وجهة نظر طبيبة ألمانية كتب الله لها أن تسلم وتسمى نفسها (عزيزة) وأن يمن الله عليها بهذه الرحلة المباركة التي خرجت منا بدروس وعبر وأهمها:

إنها شعرت بأنها تعيش مثل أفقر فقراء العالم في الهند، وأنها تجرب معاناتهم مع الجوع والفقر والمرض، وتنصح الشعب الألماني

ألا يكثر من الشكوى، فكل ما يواجهون من مصاعب حياتية ومعيشية لا يمكن مقارنته بمعاناة هؤلاء الفقراء المعدمين(*).

جدة 1434/2/15هـ





(*) مجلة المعرفة، العدد (165) ذي الحجة 1956هـ. مقال بعنوان: مريضة واهنة راقدة على تراب مزدلفة. للكاتب أسامة أمين، ص ص 73 79.

الحج وفضاءاته الجغرافية والصحية

«مقاربات تعريفية»

تمهيــد:

وفي سياق حديثنا عن أدبيات الحج من خلال الرحلات التي كان الحج هدفها وغايتها، والرحالة الأدباء، هم منشؤوها وناشروها، نصل بحديثنا إلى ما سجله بعض الأدباء والكتاب عن مجالات تتعلق بالحج وفضاءاته الجغرافية والصحية. وذلك من خلال مؤلفاتهم وأبحاثهم التي تمت بصلة إلى ما نحن بصدده من الرحلات الحجيَّة. ولعل أبرز ما سنقدمه هنا كتابين مهمين مما يمكن إضافته إلى هذا المجال.

(1) طريق الحج العراقي.. ومنطقة القصيم(*):

تظل طرق الحج مورداً مغر للدراسين والباحثين لاستكناه آفاقها ومراودة مسالكها، ومقاربة كل ما أنتج حولها من أدبيات تاريخية أو حقول معرفية، ذلك أنها تقدم فصولاً عن شعيرة الحج والمسالك والسبل المؤدية إليها، والمعالم والبلدان التي تمر فيها، والدول والحكومات التي تشرف عليها، والشعوب والقبائل التي يتعارفون فيها، والحيوات السكانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تؤثر بها.

(*) نشرت في مجلة الحج والعمرة، السنة (58) العدد (10) شوال 1424هـ/ ديسمبر 2003م.

وفي هذا السياق تأتي هذه الدراسة(*) التي تبدو في ظاهرها أنها إقليمية «تختص بإقليم» القصيم من أرض الجزيرة العربية ولكنها - في واقع الأمر - ترصد الآثار الاقتصادية والاجتماعية التي تأتي عن طريق الحج العراقي الذي يمر بهذه المنطقة وهي آثار إيجابية وجديرة بالرصد والدرس والتحليل ذلك أن لقوافل الحجيج مواطن ومسائل ودروب تقيم فيها وتسير، وينشأ عن هذا المسير والإقامة كثير من الفوائد والقيم والمظاهر التي يستفيد منها المجتمع المضيف.

«وطريق الحج العراقي» الذي تتداخل معه هذه الدراسة وتعرف به في أحد أهم أبوابها (الثاني 85-169) هو المعروف بطريق حاج البصرة، والبصرة أحد حواضر العراق الهامة مثل بغداد والكوفة.

وهي رمز للعراق ككل ومنها يبدأ الطريق حيث تؤرخ هذه البدايات كتب التاريخ المعتبرة وذلك منذ أن بدأ الاستيطان العربي الإسلامي فيها على عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الذي أمر عتبة بن غزوان المازني بأن يختط هذا الطريق، ومن حينذاك عرف طريق حاج البصرة.

وهو في الأصل أحد المسالك التجارية القديمة الرئيسية التي تربط بين الجزيرة العربية الغربي والشرقي بمحاذاة وادي الرمة الكبير الذي يجري معظمه في القصيم وينتهي حتى شط العرب بالبصرة.

(*) الدراسة بعنوان: الآثار الاجتماعية والاقتصادية لطريق الحج العراقي على منطقة القصيم.

المؤلف: صالح بن سليمان الناصر الوشمي.

الناشر: نادي القصيم الأدبي.

العام: 1415هـ/1994م.

وفي هذا الصدد يورد المؤلف كثيراً من النقولات التي تثبت ورود ذكر هذا الطريق ووصفه والمواضع التي يمر بها مما يؤكد على أن «القصيم» كانت إحدى المواضع الهامة التي يمر بها طريق الحاج العراقي المعروف (طريق البصرة) ولعل السبب في ذلك يعود إلى كثرة الماء وسهولة مسلك الطريق في كثير من أجزائه.

على أن هذا الطريق لم يقتصر على حجاج البصرة أو الحجاج العراقيين فقط وإنما كان مسلكاً لقوافل الحجيج القادمين من اليمامة والبحرين الذين وجدوا في هذا الطريق ما شجعهم على مسلكه مثل الأمن الوارف على منطقة القصيم، والمرور على مراكز التجمع السكاني التي قامت على طول هذا الطريق، وتوافر موارد المياه.

ثم تتطرق نصوص الكتاب إلى المحطات والمواضع التي يقف عندها حجاج البصرة في طريقهم إلى المشاعر المقدسة وخاصة في منطقة القصيم، ويوجزها المؤلف في أربعة طرق أو مسارات، على النحو التالي:

الطريق الأول:

وهو الأكبر والأكثر مسالكاً ومحطات، حيث يمر الحاج بالمحطات التالية: النباج - العوسجة - القريتين - رامة - آمرة - طخفة - وأخيراً خيرية. وهذا الطريق يتجه مباشرة إلى مكة المكرمة دون المرور على المدينة المنورة.

الطريق الثاني:

وهو الطريق الموصل إلى المدينة المنورة لمن أراد من حجاج البصرة وغيرهم حيث يمرون بالمحطات التالية: وادي قو - أثال - عيون الجواء

- الناجية - الفوارة - الرحة - النقرة. وفيها يلتقي حجاج البصرة بحجاج الكوفة حيث يجمعهما درب زبيدة شمال غرب القصيم.

الطريق الثالث:

وهو طريق مهجور لا تسلكه قوافل الحجيج بكثرة، لوعورته وقلة الماء واختلال الأمن، وفيه يمر الحجيج بالمحطات التالية: القيصومة - قنة - حومانة الدراج - أبرق العزاف - بطن نخل.

الطريق الرابع:

وهو الطريق الذي يبدأ من أنقرة - حيث يلتقي طريق البصرة بطرق الكوفة (درب زبيدة) ويصل إلى المدينة المنورة.

* * *

ثم يستعرض الباحث - في محور جديد وهام - أهم وأبرز الملامح الطبيعية للمحطات التي ذكرناها مقارباً بين مسمياتها في كتب البلدانيين والمصادر القديمة، ومسمياتها المعاصرة مستشهداً بنماذج شعرية تؤكد تلك المسميات، ومحدداً للمسافات بينها، والآثار الباقية فيها، متوجاً ذلك كله بخرائط معاصرة توضيحية، وردود تحقيقية لبعض الأوهام التي وقع فيها الكتاب القدامى والمحدثين.

من كل ذلك يخرج القارئ/ المتلقي بانطباعات إيجابية تزيد من رصيده المعرفي: فمنطقة القصيم - التي كنا نعدها منطقة صحراوية ورملية وذات غياب تام في البعدين الاقتصادي والسياسي - تتجلى لنا منطقة هامة وذات إرث سياسي واقتصادي واجتماعي كبير شكلت فيها مساراً للمواصلات، ونقطة التقاء وتقاطع للطرق البرية القديمة، ومسلكاً تجارياً هاماً تنقل عبره تجارة الشرق إلى غرب الجزيرة مما

أدى إلى استثمارها كمحطة يعبرها الحجاج ويقيمون فيها ويسلكون طرقها ومسالكها إلى بيت الله الحرام ومسجد المصطفى صلى الله عليه وسلم، طوال عصور الدولة الإسلامية، سواء العهد النبوي والراشدي أو العهد العباسي أو الأموي أو الدول المتلاحقة، الأمر الذي جعل لهذه المنطقة تميزاً واضحاً عرفت به وهو مرور الطريق الديني بكثير من أراضيها وما يتبع ذلك من تفاعل تجاري واقتصادي واجتماعي.

وهنا يجيء الباب الثالث والأخير من هذه الدراسة المتميزة حيث يناقش المؤلف - في فصلين كاملين - مجموعة من الآثار الاجتماعية والاقتصادية الذي شكله هذا الطريق الديني على منطقة القصيم. فعلى البعد الاجتماعي تبدو مجموعة من المكتسبات الاجتماعية للمنطقة ولعل أبرزها التجمعات السكانية والاستقرار المدني.

فالمعروف عن منطقة القصيم أنها بيئة صحراوية وقبائلها البدو الرحل، وهذا لا يشجع على الاستقرار والتمدن والحضارة، إلا أن مرور هذا الطريق - في بعديه التجاري والديني - قد ساعد على ذلك التحول فقامت الحواضر والمدن والتجمعات السكانية مستفيدة من الحركة التجارية والبشرية عبر طريق الحجاج البصري (العراقي) التي بدأها الصحابي الجليل عبدالله بن عامر بن كريز والي العراق على عهد الخليفة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فنشأت مجموعة من القرى والمخيمات السكانية مثل النباج والقريتين والفوارة وضرية والعوسجة وغيرها.

إن ظهور مثل هذه الحواضر والمحطات أوجد حركة اقتصادية نشطة أثبتت الآثار في المحطات الأثرية ذلك ووصف الكتاب والبلدانيون

والرحالة الأسواق العامرة في تلك المناطق بما لا يدع مجالاً للشك من الأثر الاجتماعي والاقتصادي الذي أحدثه هذا الطريق.

وتشير الدراسات - في هذا الصدد - إلى الكثير من الآثار العمرانية من قصور وأسواق ومساكن وبرك ماء وسدود، مثل قصر مارد، وقصر بني تعمر وبركة النباج وغيرها من الآثار العمرانية في المدن والحواضر التي أنشئت على طول الطريق في منطقة القصيم.

ثم يصل المؤلف أخيراً إلى بيان النتائج الإيجابية لمرور هذا الطريق بمنطقة القصيم في بعديها الاقتصادي/ التجاري والاجتماعي، حتى يشير إلى أبرز المعالم الاقتصادية والاجتماعية من خلال المكتسبات التالية:

(1) توسع الموارد الاقتصادية من تجارة وزراعة ومعادن وصناعة فكانت الأسواق العامرة، والتجارة الرابحة، والزراعة القائمة، والصناعة المتنوعة، وأعمال الطريق والصيانة المستمرة مما أوجد حركة عمالية استفاد منها المجتمع القصيمي حيث وجدت طبقة عاملة تكتسب بمجهودها من وراء تلك الحركة التجارية والاقتصادية في جميع مجالاتها.

(2) التفاعل الاجتماعي وتبادل المنافع واكتساب العادات والتقاليد بسبب الاختلاط بين أهل المنطقة والحجاج والتجار والمسافرين على هذا الطريق. فقد عرف المجتمع القصيمي كثيراً من العادات والتقاليد التي تأثر بها مثل الاجتماعات المصغرة لأبناء المهنة الواحدة، وعادة الصباحة للزوجة، وعادات الختان والاحتفال

بختم القرآن، وإضاءة المساجد في ليالي رمضان، وعادات في المأكل والمشرب واللباس وغيرها من العادات والتقاليد المكتسبة.

(3) التمازج الثقافي من حيث اللغة والأمثال والأشعار فكثيراً ما يورد المؤلف نماذج من هذا التَّمازج والتشابه بين أمثال تردد في القصيم ويجد لها شبيهاً في العراق ويعيد السبب إلى ذلك التمازج الثقافي الذي أحدثه الحاج العراقي في منطقة ومجتمع القصيم.

(4) التمازج العائلي والتواصل بين أبناء القصيم وأبناء العراق من خلال هذا الطريق الديني والتجاري فقد حقق المؤلف وتابع مسيرة أكثر من عائلة قصيمية كامتداد وجذور في العوائل العراقية مثل عائلة الذكير والبسام والشبل والقاضي وغيرهم وقد وصل كثير من أبناء هذه الأسر - التي هاجرت إلى العراق - إلى مناصب قيادية رفيعة.

وكذلك كان امتداد الأسر القصيمية إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة حيث نشأت في هاتين المدينتين المقدستين كثيراً من الأسر والعوائل القصيمية نتيجة لمرور هذا الطريق التجاري والديني بمنطقة القصيم.

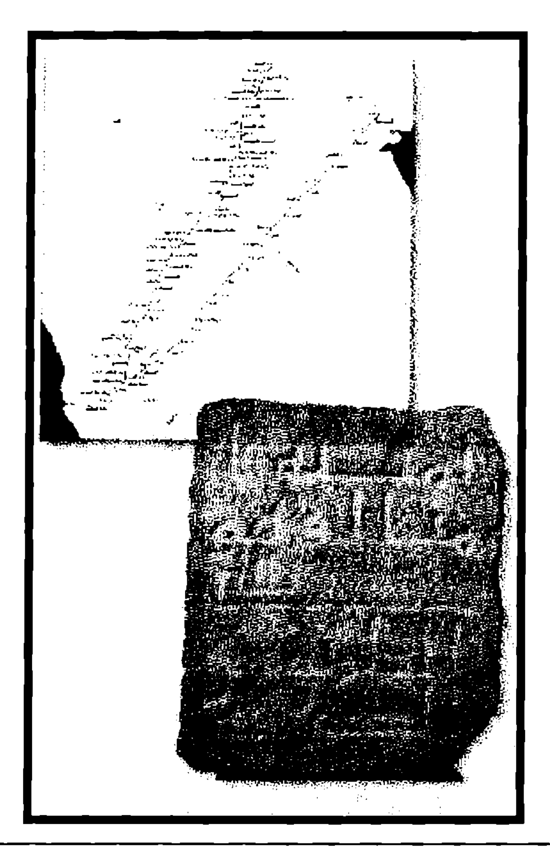
وبالجملة فإن لهذا الطريق المعروف (بطريق الحاج البصري العراقي) آثار اجتماعية واقتصادية كثيرة على منطقة القصيم وهي آثار إيجابية في كل مناحي الحياة استفاد منها المجتمع القصيمي أيما استفادة وشكلت سمات بارزة كبعدها المرتبط بالشعيرة المقدسة شعيرة الحج التي يفد إليها المسلمون من أقطار المعمورة.

وأخيراً:

فإن طرق الحج العراقي الذي يمر بأغلب مدن وقرى منطقة القصيم قد كان سبباً في جعل هذه المنطقة نقطة اتصال بين الديار الإسلامية وأصبحت طرق الحج التي تجتازها جسور تواصل تربط المنطقة بالعالم الإسلامي، وفي نفس الوقت ذات أثر اجتماعي كبير لأبناء القصيم.

والحمد لله رب العالمين،،،

جدة 1424هـ



(2) الحجر الصحي في الحجاز 1865-1914م(*):

تعتبر منطقة الحجاز - بصفة عامة - ومناطق الحج فيها - بشكل خاص - مناطق قابلة لانتشار الأوبئة والأمراض، لاسيما وأنها تستقبل في كل عام موسم الحج الذي يفد إليه من أقطار العالم الإسلامي حجاج متعددو الأجناس والبيئات بكل ما يعنيه التعدد من قيم وعادات وأساليب حياتية وتقاليد وأفكار وصحة ومرض، وغير ذلك.

وقد أفاضت الأدبيات التي تتحدث عن الحج والحجاج في هذه المسائل، وأشار الرحالة والزوار إلى كثير من المعاناة من الأمراض والأوبئة التي تنتشر في الحج وما يعاني منها الحجاج ومنها ما يحملها الحاج من بلده، أو تنتقل إليه بالعدوى أثناء سفره، أو يصاب بها خلال حجه ثم يعود بها إلى بلاده إن سلمه الله من الموت والفناء.

ولعل أمراض الصدر، والاحتقانات الدماغية، وضربات الشمس، وأمراض العيون، والكبد والجهاز الهضمي والدوسنتاريا وأمراض الجدري والتيفوئيد والحميات والكوليرا، من أبرز الأمراض والأوبئة التي سجلها الرحالة والحجاج في كثير من مواسم الحج[1].

وتشير كثير من المصادر أن تدني الأحوال الصحية في مناطق الحج يعود إلى قلة الاهتمام بالمجال الصحي والعناية بالنظافة، وفساد الهواء في مكة وعدم الوعي لدى الحجاج، أضف إلى ذلك االاستخدام السيئ لمياه الشرب ورمي الذبائح والأضاحي في الطرقات وعدم وجود دورات مياه صحية وكافية لجميع الحجاج مما يؤدي إلى سوء الأحوال الصحية وتفاقم الأمراض وانتشار الأوبئة بين الحجاج الأمر

(*) نشرت هذه الدراسة في مجلة: بحوث المدينة النبوية، شهر رجب 1424هـ.

الذي يستدعي الحكومات المشرفة على الحج والحجاج سواء في ولاية الحجاز حيث شرافة مكة وحكامها من الأشراف، أو الحكومة العثمانية أن تسن النظم والقوانين الصحية، وتعمل على تخفيف هذه المشاكل بفتح المشافي وإرسال البعثات الطبية، وإقامة المحاجر الصحية وإنشاء المستشفيات والصيدليات وإنشاء شبكات الصرف الصحي وحل مشاكل المياه.

*   *   *

وفي هذا السياق تتبلور طروحات هذا المنجز المعرفي الذي نتداخل معه الآن(*) والذي كان في الأصل رسالة علمية أكاديمية قدمتها المؤلفة التركية بلغتها الأم، ولأهميتها الفكرية وعلميتها وحداثتها في بابها، أقدم مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض على ترجمته ونقله إلى العربية مشكلاً بذلك أول إصدارات سلسلة الكتب المترجمة.

تكمن أهمية هذا المنجز العلمي في جملة من الأمور نصنفها فيما يلي:

1 – أنه إضافة جديدة ومفيدة للمكتبة التاريخية لأنه يقوم على مادة وثائقية/ عثمانية تجلي كثيراً من ضبابيات الأوضاع السياسية

(*) **اسم الكتاب**: الحجر الصحي في الحجاز 1865-1914م.
المؤلف: الدكتورة: جولدن صاري يلدز.
المترجم: عن اللغة التركية الدكتور عبدالرزاق بركات.
المراجع: الدكتور مسعد الشامات.
الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.
الطبعة: الأولى 1422هـ/2001م.

والإدارية والاقتصادية في الدولة العثمانية ومنطقة الحجاز كإحدى الولايات التابعة للعثمانيين في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

2 – أنه يقدم رؤية كاملة وشاملة للأوضاع الصحية والإدارية والاجتماعية لمنطقة الحجاز ودور الحج والحجاج في كل المسائل الصحية والدور الذي قامت به الحكومة العثمانية لحل هذه المسائل.

3 – أنه يوضح حقيقة المؤامرة الاستعمارية الغربية التي كانت تتزعمها إنجلترا آنذاك والتي تهدف إلى اغتيال (الرجل المريض) وإجهاض الدعوة إلى الجامعة الإسلامية التي تبناها السلطان عبدالحميد الثاني.

4 – أنه يؤرخ لمرض الكوليرا الذي انتشر في منطقة الحجاز قادماً مع حجاج الهند وحملها الحجاج إلى مناطق جديدة من العالم امتدت ما بين مصر وإيران حتى بلغت أوروبا، الأمر الذي حرك الدول العظمى واتخذته ذريعة للتدخل في أمور الحجاز.

5 – أنه بيّن الدور الكبير الذي قامت به الدولة العثمانية في صد الهجمة الأوروبية والتفاعل مع القضايا الصحية في الحجاز وإبعاد هذه المنطقة عن المداولات الاستعمارية.

6 – أنه يحدد الجهود التي قام بها العثمانيون في إصلاح الأحوال الصحية في الحجاز وذلك بإرسال الهيئات الطبية وإنشاء المستشفيات، وإقامة المحاجر الصحية وسن النظم والقوانين الصحية.

7 – وأخيراً فهذا الكتاب يعد أول دراسة واقعية وشاملة عن موضوع الحجر الصحي في الحجاز سواء في لغته الأم التركية أو في اللغة العربية وهو بذلك يسد نقصاً كبيراً في السياق التاريخي والمعرفي المرتبط بتاريخ الدولة العثمانية، وتاريخ منطقة الحجاز ومناطق الحج والمشاعر المقدسة.

* * *

تعتبر الفترة التاريخية التي يعالجها هذا الكتاب (1865م- 1914م) من أغنى الفترات التاريخية العثمانية، ففيها ساءت الأحوال السياسية والاقتصادية لدرجة أن الغرب أطلق عليها (الرجل المريض)، وفيها بدأ التدخل الأوروبي في جميع القضايا والمسائل العثمانية، وفيها ظهرت الجمعيات الداخلية التي تربت في أحضان الغرب، وبدأت بوادر التمرد والعصيان على السلطنة العثمانية، وفيها برزت الولايات العثمانية البعيدة تطالب بالاستقلال والحكم الذاتي، وفيها - أخيراً - ضعفت القبضة العثمانية على الولايات العربية ومنها ولاية الحجاز[2].

كل هذه الظروف جعلت الحكومة العثمانية في منأى عن الحجاز والمشاكل الصحية التي يعانيها خلال مواسم الحج وقدوم الحجاج، ولهذا يناقش الكتاب في قسمه الأول (ص ص 43-136) المسألة الصحية في الحجاز بعد انتشار وباء الكوليرا عام 1865م، وموقف الدولة العثمانية من ذلك، والموقف الدولي الأوروبي الذي انبنى على هذه المشكلة الصحية.

لقد ظهر وباء الكوليرا أول مرة في الحجاز عام 1831م وتكرر ظهوره بعد هذا العام خمس مرات أخرى[3] ومباشرة تحركت دوائر السياسة الغربية والأوروبية تجاه هذه الأزمة وحاولت التدخل ليكون

الحجاز - وهي المنطقة الثانية - ضمن استراتيجياتها الاستعمارية فأدرجت هذه المشكلة ضمن جدول أعمالها السياسية الدولية، وتنبهت الحكومة العثمانية لخطورة هذا الأمر فتحركت لإجهاض المحاولة الأوروبية وبدأت في عمل الاحتياطات اللازمة للتخفيف من حدة المرض أو القضاء عليه. ولكن الدول الأوروبية تداعت لعقد المؤتمرات الصحية لوقف زحف هذا الوباء القادم من أراضي الدولة العثمانية فكان مؤتمر باريس الأول عام 1851م.

وبناء عليه طالبت الحكومة العثمانية بعقد المؤتمر الصحي الثاني في استانبول عام 1866م لدراسة الحالة الصحية في البحر الأحمر والولايات العثمانية ومنها الحجاز وخرج المؤتمر بمجموعة من القرارات أهمها:

- تأسيس محاجر صحية على سواحل البحر الأحمر.
- تشكيل هيئة تكلف بخدمة الضبط الصحي بمكة المكرمة.
- ترك مسألة حماية أوروبا من الأمراض الوبائية إلى الدولة العثمانية على اعتبار أن وباء الكوليرا انطلق من الحجاز[4].

كما يعالج هذا القسم مجموعة من المحاور التي تبين الاهتمام العثماني بمسألة الصحة في الحجاز من خلال إرسال الهيئات الطبية من العاصمة العثمانية وتكليف الأطباء المصريين والإدارة المصرية لتشكيل النظم الصحية وتطبيقها في سواحل البحر الأحمر، وإنشاء المحاجر الصحية مع ما يتطلب ذلك من مصاريف ونفقات وتأمين طرق الحجاج، وتحسين وسائل النقل وخاصة السفن والبواخر الشراعية.

ويخلص هذا القسم من الكتاب إلى نتيجة مهمة وهي أن الدولة العثمانية لم تأل جهداً في سبيل الدفاع عن المقدسات الإسلامية وسعت

إلى تحسين الأحوال الصحية في الحجاز قدر إمكاناتها، ورغم كل تلك المحاولات فإنها دخلت في صراع مع الدول العظمى التي انتهزت ظهور هذه المسائل الصحية لتقوي قبضتها وتسعى إلى تفتيت الرجل المريض واستلاب الكثير من ولاياته.

* * *

ثم تنتقل مؤلفة الكتاب إلى القسم الثاني (ص ص 139-237) والذي خصص لمناقشة الأوبئة – وخاصة الكوليرا – التي تعرضت لها منطقة الحجاز في الفترة من 1831-1916م وكان عددها حوالي اثنتين وعشرين مرة تتعاقب عاماً بعد عام، وقد تظهر في فترات قد تصل إلى عدة سنوات ولعل أهم وأبرز هذه الأوبئة التي خلفت الكثير من الضحايا والوفيات ما يلي:

عام 1865م وباء خطير وحصد الكثير من الضحايا.

عام 1872م ظهر في شعبان وقد انتقل المرض من الهند حتى وصل مكة.

عام 1877م ظهر في شهر ذي الحجة وتسبب في وفيات كثيرة وأول ظهوره بين الحجاج البنغاليين.

عام 1881م أشد وباء مما قبله، ظهر في ذي القعدة ونقل بواسطة الحجاج الهنود.

عام 1893م وهو أشد وباء ظهر في تاريخ الحجاز، بلغ عدد الوفيات حوالي 30.336 ألف حاج.

عام 1902م بدأ الوباء قبيل عيد الأضحى بـ 28 يوماً وكانت الوفيات حوالي 4000 شخص.

عام 1908/1907م ظهر الوباء في 13 أكتوبر بين الحجاج القادمين من بومباي وكانت الوفيات حوالي 4739 حاجاً[5].

ثم تنتقل المؤلفة في هذا القسم إلى مناقشة موضوع يمس الحياة الاجتماعية في الحجاز من حيث البيوت والوضع السكني ودورها في الأحوال الصحية وخاصة في فترة الحج حيث يزداد عدد السكان بشكل ملحوظ في زمن معين ومكان محدد مما يشكل كثيراً من الضغط الاجتماعي والسكاني على المساكن والمنازل المعدة لإسكان الحجاج الأمر الذي يؤدي إلى مزيد من سوء الأحوال الصحية للمواطنين والحجاج على حد سواء.

وهنا تشير المؤلفة إلى مجموعة من السلبيات التي تؤدي إلى انتشار الأوبئة والأمراض مثل:

- قلة دورات المياه النظيفة في المساكن المعدة للحجاج.
- عدم وجود قنوات للصرف الصحي.
- انتشار القاذورات والمخلفات وعدم وجود إدارة خاصة بالنظافة العامة (البلديات).
- قلة الوعي الصحي لدى الحجاج وأخطاؤهم في عرفة ومنى[6].

وتؤكد الباحثة أن أهم سلبية تساعد على تفاقم هذه الأحوال هي الصراع السياسي بين الوالي العثماني في مكة والحاكم الفعلي من الأشراف مما شكل خطراً كبيراً في ازدواجية السلطة والصراع العلني أو الضمني مما يجعل العمل بروح الفريق للتخفيف من حدة الأوبئة والأمراض أمر بعيد.

أما مشكلة المياه في الحجاز ودورها في نشر الأمراضٍ وسوء الأحوال الصحية في هذه المنطقة، فقد أفردت لها المؤلفة حيزاً لا بأس به من النقاش والمعالجة أكدت فيه على دور عين زبيدة في سقي الحجاج وما جرى عليها من الترميمات والإصلاحات لتبقى كذلك، لكن المشكلة تكمن في سوء استخدام الحجاج لهذه العين وتعكير مجاريها مما يساعد على انتشار الأمراض وفي هذا الإطار يبدو دور الدولة العثمانية وحكومة الأشراف في الحجاز في الإصلاح والترميم.

ولكن أهم وقفة في هذا القسم هو ما تحدثت عنه المؤلفة فيما يتعلق بماء زمزم الذي اتهمه الأوروبيون بأنه السبب في انتشار وباء الكوليرا، ولكن القائمين على أمر الحجاز فندوا كل هذه الشائعات(7)، بل وقاموا بوضع التدابير الخاصة بإصلاح الصحة ووضع الخطط واللوائح لذلك الغرض.

ويختتم هذا القسم برؤية عامة عن محاولات الدول الأوروبية للتدخل في شؤون الحجاز الصحية وهي وسيلة للتدخل في الأمور السياسية ومن هذه المحاولات ما يلي:

1 - تشكيل هيئة صحية مختلطة من أطباء مسلمين من الدول الأوروبية وتكون مهمتهم الإشراف الطبي على الحجاج قبل وصولهم إلى مكة.

2 - منع الذهاب إلى الحج، حيث أقدمت كثير من الدول الأوروبية على فرض شروط تعجيزية على رعاياها الراغبين في الحج وذلك بحجة انتشار الوباء والمرض في الحجاز وحفاظاً على الصحة العامة، ولذلك تم منع الكثير من أداء فريضة الحج.

3 – المؤتمرات الدولية الصحية: حيث عقد مجموعة من المؤتمرات الصحية لمناقشة هذه المسألة وفرض تدخل الدول الأوروبية في شؤون الحجاز. ولعل أهم تلك المؤتمرات هو المؤتمر الصحي في باريس عام 1894م حيث نتج عنه معاهدة باريس الصحية في إبريل 1891م والتي أكدت على مجموعة من التنظيمات الصحية لمنع انتشار الأوبئة والأمراض بين الحجاج.

وبذلك تختم الباحثة القسم الثاني مؤكدة على دور الدولة العثمانية تجاه التطلعات الأوروبية للسيطرة على الحجاز مستغلين حجة المرض والوباء المنتشر في مواسم الحج بمكة المكرمة، والفعاليات العثمانية لإصلاح النواحي الصحية في الحجاز، وإقامة المحاجر الصحية، الأمر الذي جعل الباحثة تفرد القسم الثالث والأخير لمناقشة هذه المسألة، حيث تمحور الحديث هنا عن الإجراءات الإصلاحية الصحية التي سنتها الدولة العثمانية رداً على التدخلات الأوروبية وإبعاداً لها عن مسائل الحج والحجاز.

* * *

لقد تمخضت الإجراءات الإصلاحية العثمانية لمسائل الصحة في الحجاز عن تشكيل الإدارة الصحية بمكة المكرمة وما يتبع ذلك من لوائح وتنظيمات صحية كان لها أكبر الأثر في إيقاف التطلعات الأوروبية نحو الحجاز أو التقليل والتأثير من أهمية الحج في الوعي والمخيال الإسلامي.

لقد استطاعت هذه الإدارة الصحية في الحجاز من إقامة المصحات والصيدليات ودور الضيافة للفقراء، كما أسست في كمران

وجدة وينبع آلات لضخ وتنقية مياه الشرب وإنتاج الثلج وحلت مشكلة المياه إلى حد كبير، ولم تتقاعس عن تسيير حركة الحجاج بشكل منظم.

أضف إلى ذلك إنشاء المحاجر الصحية ومد خطوط مياه الشرب في مواسير حديدية وإعداد خرائط للمدن وتوسيع الشوارع ونظافتها وتوفير مبالغ مالية تحت مسمى (رسوم الإصلاحات الصحية في الحجاز والنظافة) للصرف على هذه المشروعات التي تتبناها الإدارة الصحية بالحجاز.

وكانت كل البوادر تشير إلى نجاح العثمانيين في الوصول إلى حل المشكلات الصحية بالحجاز ولكن قيام الحرب العالمية الأولى ودخول الدولة العثمانية طرفاً فيها إلى جانب الألمان وإعلان العداء لبريطانيا والدول المساندة لها أن سجل النهاية الحتمية للدولة العثمانية وانضمام الشريف حسين إلى بريطانيا 1916م بعد تنصيبه ملكاً على الحجاز وسرعان ما ألغيت كل تلك التدابير الصحية.

* * *

وبذلك تختم المؤلفة كتابها الوثائقي القيم والمتميز في معالجاته وطرحه ومنهجيته العلمية وموضوعيته، الأمر الذي يجعله من الكتب التي تحتاجها المكتبة التاريخية لأنه كتاب رائد وثائقي من الدرجة الأولى يكشف لنا كثيراً من الوثائق العثمانية التي كانت حبيسة الأضابير في الأرشفة العثمانية.

والحمد لله رب العالمين،،،

جدة: رجب 1424هـ

الهوامش

(1) البتنوني، محمد لبيب: الرحلة الحجازية، ط3، الطائف: مكتبة المعارف، (د.ت)، ص ص 64 وما بعدها.

(2) انظر د. زكريا سليمان بيومي: قراءة في تاريخ العثمانيين، جدة عالم المعرفة، ط1، 1411هـ/1991م، ص ص 203 وما بعدها.

أحمد عبدالرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ط1، 1402هـ/1982م، ص ص بيروت، دار الشرق، 209 وما بعدها.

(3) عام 1838م، 1839م، 1840م، 1846م، 1865م، الكتاب نفسه ص 43.

(4) الكتاب نفسه، ص 47.

(5) الكتاب نفسه، ص ص 139 156.

(6) الكتاب نفسه، 156-161.

(7) الكتاب نفسه، ص ص 170-177.



العجيب والغريب من أدب الرحلات الحجازية(*)

مفهوم أدب الرحلات:

الأدب هو فن الكتابة وإبداعاتها على نحو من التجويد والتحسين بحيث تقودنا إلى مزيد من القول والمعرفة والتفاعل والتثاقف.

والرحلات هي التنقل من مكان إلى مكان على سطح الأرض، أو في فضاء الله الواسع بهدف الاكتشاف والمعرفة والوقوف على الأسرار.

وهنا يصبح أدب الرحلات يعنى بالكتابة الأدبية في الترحل والانتقال والمشاهدة لعوالم الأرض الفسيحة والكون الأكثر فسحة، ونقل هذه المشاهد بالكلمة والحرف وباللغة والأسلوب وربما الصورة كذلك.

وبناء على ذلك يمكن تحديد المفهوم العام لهذا النوع من الأدب فهو «نمط خاص من أنماط القول والكتابة الأدبية يجتمع فيه كل أساليب الفنون الكتابية وموضوعاتها من شعر وقصة ومقالة دون أن تضبطه معاييرها أو يخضع لمقاييسها بحيث يخلق ضوابطه ومقاييسه

(*) محاضرة ألقيت في الصالون الثقافي (الأحدية) الذي يشرف عليه اللواء ركن الدكتور أنور عشقي صاحب ومؤسس مركز الشرق الأوسط للدراسات الاستراتيجية مساء يوم الأحد 1429/11/4هـ. وكذلك في أحدية معالي الدكتور عبدالله نصيف مساء الأحد 1430/5/15هـ.

الذاتية من داخل موضوعه ولغته». وباختصار، فإن أدب الرحلات هو: أدب يجمع كل فنون وأنواع الكتابة الأدبية!!

* * *

بدايات هذا النوع من الأدب:

يعتبر الجغرافيون أول من دونوا رحلاتهم. وقد حملت هذه المدونات الكثير من المعلومات الجغرافية وأحوال السكان والعادات والتقاليد، وبعض الأشعار والأساطير والخرافات.

وبما أنها كذلك فإن هذه الرحلات تحمل في مضامينها قيمتان: قيمة علمية وقيمة أدبية! فأما القيمة العلمية، فتتمثل فيما تحتويه من المعارف والعلوم مما شاهده وعايشه بالفعل أثناء ترحله وانتقاله وارتحاله.

وأما القيمة الأدبية، فتتجلى من خلال ما تصاغ به تلك العلوم والمعارف من أساليب أدبية وبلاغية، وما يكتنفها من مجال سردي/ قصصي، وما قد يتأتى فيها من أساطير، وخرافات وأشعار، وأفكار أقرب إلى الأدبية منها إلى العلمية.

بدأت الرحلات عند العرب منذ القدم، ومنذ الجاهلية حيث رحلتي الشتاء والصيف التجارية، ولكنها لم تسجل وتوثق كمجال معرفي مستقل بذاته. ولكن منذ أن بدأت الفتوحات الإسلامية وبدأ عصر التدوين، يمكن اعتبار هذه الفترة هي البداية الحقيقية لأدب الرحلات، حيث بدأ التوثيق والتسجيل بطريقة أولية.

ثم بدأت تتميز أدبية الرحلات - وبشكل جلي وواضح - من خلال كتابات الرحالة الذين أرسلوا لهذا الغرض مثل سلام الترجمان الذي أرسله الخليفة الواثق بالله في سفارة علمية إلى الصين لمشاهدة سد يأجوج ومأجوج الذي بناه الإسكندر حوالي منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. فقدم تقريراً موثقاً عن هذه الرحلة.

ومثل رحلة ابن فضلان الذي أرسله الخليفة المقتدر بالله إلى بلاد الصقالبة والبلغار والتي بدأت في 309/2/11هـ الموافق 921/6/21م. وقد ألف عنها ابن فضلان كتاباً عجيباً غريباً يصف فيه تلك البلاد وأهلها وعاداتهم وتقاليدهم.

ويعتبر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي فترة النضج التام لهذا الأدب، ففيه وجدت المصنفات والمؤلفات المحسوبة على الرحلات والقريبة من الأدب الجغرافي. ثم استمر التميز في القرن الحادي عشر حيث نرى رحلة ابن العربي ثم ابن جبير (الذي يعتبره المؤرخون الأب العلمي والروحي لأدب الرحلات) ثم رحلة ابن بطوطة.

وابتداءً من القرن الثالث عشر بدأت الرحلات العلمية مثل رحلة العبدري (أبو محمد) وابن عمر عبدالله النشريسي ثم ابن خلدون، ثم البغدادي، وياقوت الحموي. وجاء القرن الرابع عشر لنجد رحلات العياشي وغيره.

* * *

أدب الرحلات الحجازية/ (الحجية):

منذ بدايات القرن العشرين تطور مفهوم أدب الرحلات، وتميز في جانب هام منه، وهو جانب الرحلات الحجية، أو الرحلات إلى الحج، أو الرحلات إلى الديار المقدسة في الحجاز (مكة والمدينة) وهي ما نصطلح عليها تحت اسم الرحلات الحجازية.

وهذه الرحلات - في جملتها - رحلة روحية/ دينية، هدفها الحج والعمرة أو الزيارة النبوية أو كلها مجتمعة في آن واحد، ولكنها دخلت إلى ميدان النص الأدبي من خلال كتّابها الذين عبروا عن الذات والمشاعر وجسدوا الأحاسيس والمشاعر وسجلوا المشاهد والمواقف في لغة أدبية وأسلوبية رائعة.

وهنا يسجل لنا التاريخ الأدبي كثيراً من الرحالة إلى الحجاز الذين دونوا مشاهداتهم وسجلوا انطباعاتهم وملاحظاتهم واقتراحاتهم فكان منهم مثلاً البتنوني، والريحاني، وطه حسين، وأمير البيان شكيب أرسلان، والمازني، ومحمد حسنين هيكل، والطنطاوي وإبراهيم رفعت باشا، وغيرهم من المشرق العربي وجنوب الجزيرة العربية أو المغرب العربي أو البلاد الآسيوية والأفريقية مما لا يمكن حصره في هذا الحيز.

ولمن يريد التوسع والاطلاع نحيله إلى كتاب الشيخ محمد موسى الشريف (مختارات من الرحلات الحجازية) والذي جاء في أربع مجلدات جمع فيه كثيراً من كتب الرحلات إلى الحجاز تلخيصا وتعريفاً، كما نحيله إلى الكتب الصادرة عن وزارة الحج السعودية 1422هـ، 1423هـ، 1424هـ والتي عقدت ندوتها السنوية حول أدب الحج، وكذلك العمل الموسوعي: (جمهرة الرحلات) للكاتب أحمد محمد محمود وخاصة الأجزاء المتعلقة بـ (رحلات الحج).

نماذج من العجيب والغريب في مشاهدات الرحالة:

من الرحلات المغاربية:

ورد في رحلة ابن جبير عام 579/578هـ، أن أحد أمراء مكة واسمه مكثر بن عيسى وقع في مأزق مع أحد دهاة الأعاجم ذوي الثراء والجاه والمكانة ووصل إلى الحرم الشريف وطلب تجديد بناء القبة فوق زمزم من الأمير مكثر وأغراه بأنه إذا سمح له بالبناء دون الرجوع إلى الخليفة فإنه يعطيه من الأموال قدر ما أنفقه على البناء. وطلب منه أن يخصص من قبله ثقة يقيد كل ما ينفق على البناء وبعد التمام يحسب الحساب ويحصل الأمير مكثر على ما أنفق عليه.

فاهتز الأمير طمعاً ووافق على ذلك لعلمه أن تكاليف البناء ستكون جداً مرتفعة. ولما تم البناء وجاء موعد الحساب هرب الأعجمي وخرج من مكة وظل البناء قائماً والأمير مكثر «يقلب كفيه ويضرب أصدريه» ولم يستطع نقض القبة وإزالتها.

* * *

وفي رحلة العياشي ورد: أنه وُجِدَ في بعض المواسم رجل مع امرأة في الحرم النبوي الشريف يمارسان العلاقة الجنسية، فحملا إلى الحاكم، فشهدت البينة أنها زوجته، وقيل: ما حملك على ما فعلت؟ فقال إنه لا أولاد لنا فرجوت الله أن تحمل المرأة ببركة هذا الحرم، فعذر بجهله ولم يعاقب.

* * *

وفي رحلة الشيخ ماء العينين من علماء شنقيط سنة 1274هـ، يقول إنه لقى بمكة ولياً مشهور الولاية اسمه عبدالرحمن أفندي كان يبحث عنه حتى لقيه فدعاه إلى منزله يلتقيان فيه ثلاثة أيام بين سمر وضيافة وفي الليلة الثالثة سأله عن الشيخ الكبير والده محمد فاضل بن مامية ولما تحدث عنه وسرد سيرته أجهش بالبكاء، وقام بتقبيل قدم ماء العينين ويقول الآن استجاب الله دعائي. فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ خمسة أعوام وقال لي إن أباك الشيخ محمد فاضل خليفته في الأرض وأني أحج عنه منذ تلك الرؤيا لعلي ألقاه أو ألقى أحد أبنائه فمنَّ الله عليَّ به. وقد أخبرني الرسول صلى الله عليه وسلم أن عندك السر الذي قامت عليه السماء والأرض، وسر الحاء وعليك أن تعطينيه.

قال الشيخ ماء العينين: ففعلت ما أمرني به رسول الله وأعطيت الأفندي السر المطلوب!!

وهذه من مقولات الصوفيين التي لا نعرف حقيقتها ونأمل ممن يعرف ذلك الإشارة علينا!

* * *

من رحلات المشارقة:

جاء في رحلة البتنوني عام 1327هـ. حديثاً غريباً عما شاهده في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة فيقول: «رأينا كتاب أشعار فارسية مكتوب بالخط الأبيض الجميل لملا شاهي، وبينما نحن نعجب من جودة الخط، وإتقان الصنعة وحسن تنسيق حروفها على صغرها

ودقتها، لفت نظرنا حضرة مدير الكتبخانة إلى أن حروف الكتاب إنما هي ملصوقة على الورق فتأملناها فوجدنا شيئاً يبهت الطرف لرؤيته ويعجز اللسان عن نعته خصوصاً عندما أخبرنا أنهم كانوا يكتبون هذه الكتابة ثم يفصلونها عن ورقتها بظفرهم ثم يلصقونها على ورقة أخرى!! والتساؤل الذي يطرح نفسه، أين هذه المخطوطة الآن؟!

*   *   *

وفي رحلة عباس متولي حمادة الذي حج عام 1353هـ يذكر: أن الحكومة المصرية كانت لا تسمح للحجاج المسافرين إلا بعد حصولهم على شهادة حسن سيرة وسلوك وعدمٍ صدور أي حكم ضده أو سرقة أو نشل موقعة من العمدة والمشايخ خوفاً من أناس كانوا يسافرون للسرقة والنشل!!

كما يشير إلى يوم التروية عام 1354هـ حيث تقلبت الأجواء فأمطرت السماء وأبرقت وأرعدت وهبت العواصف الهوجاء ومر على الحجاج لحظات عصيبة لجأوا فيها إلى الدعاء والتضرع لله حتى ينقذهم مما هم فيه فاستجاب الله الدعاء وانقشع السحاب وانقطع المطر وتنفس الحجاج الصعداء.

*   *   *

ويذكر الإمام محمد رشيد رضا في رحلته الحجية عام 1334هـ/ 1916م، واصفاً أحوال الناس يوم عرفة فيقول: إن الحالة الروحية لا تبلغ الكمال في عرفات إلا في وقت الأصيل، ففي أول النهار ينشغل الناس بالموقع الجديد والمناظر الأخاذة من تجمع الناس واختلافهم والبحث عن المأكل والمشرب. وفي وسط النهار ينشغل الناس بالراحة

والأكل والانزواء عن الشمس في الخيام والظلال والجبالٍ، وفي وقت العصر ينشغل الناس بجمع المتاع وشد الرحال استعداداً للنفرة إلى مزدلفة، وفي الأصيل يتفرغون للعبادة والذكر والدعاء. وهذا كلام واقعي ومشاهد حتى في أيامنا المعاصرة!!

كما يصف صلاة الظهر والعصر جمعاً وقصراً في مسجد بجوار جبل الرحمة ولا يذكر مسجد نمرة وكأن هذا المسجد مستحدث. وهذا يحتاج إلى بحث ودراسة.

كما يصف حضور موكب الشريف حسين إلى الموقف بجبل الرحمة قبيل الغروب حيث أطلقت المدافع وعزفت الموسيقي. وهذا أمر غريب فكيف يحصل ذلك في المشعر الحرام وفي يوم عرفة وفي ساعة من أبرك الساعات حيث تجلي الرب ومباهاة الملائكة!!

كما يذكر الإمام محمد رشيد عما تثبته كتب الأدب عن مواقف بعض الشعراء الحجاج وغزلهم بالنساء أيام الحج وكأنه يجد لهم العذر في ذلك فيقول إن اجتماع النساء والرجال في مكان واحد وينظر بعضهم إلى بعض مدعاة للغزل سواء بالنظر أو الكلام. ويستشهد بأحد القسيسين الذي يقول «لقد مات الدين لأن الناس لا يقصدون المعبد إلا لمغازلة النساء» ويذكر أن أحد الحجاج المصريين وهو محصنٌ وأكثر تديناً رأى في منى امرأة في النافذة المقابلة لسكنه تحمل منظاراً تنظر فيه إلى الحجاج فتوهم أنها تنظر إليه فانشغل قلبه بذلك فترة وجوده في منى.

ويذكر - أخيراً - أن أحد الحجاج أعزباً يقول إنه لم ير في الحجاز امرأة وسيمة يشتهي المرء أن يعيد النظر إليها ويتساءل هل هؤلاء هن

نساء العرب واللواتي شبَّبَ بهن الشعراء، وياليت شعري كيف يكون غزلهم وتشبيبهم لو كان في نساء الحجاز من الجمال ما نعهده في نساء الأستانة وغيرها؟!

* * *

وفي رحلة الطبيب عبدالغني شهبندر سنة 1354هـ /1936م ويذكر انتشار أبناء البادية في الطريق بين مكة وجدة والمدينة وأكثرهم عراة الأجسام إلا ما يستر العورة والنساء عليهن لفاع يسترن به أجسادهن وهن سافرات الوجوه يلتمسن الصدقات والإحسان والأطفال ينشدون:

يا سلام اكتب سلام بين زمزم والمقام
فاطمة بنت النبي وعلى سيد الكرام

ومنها:

سيدي الحج يا عكة الله يوديك مكة
ومن مكة للمدينة ومن المدينة لبلادك
ومن بلادك لأولادك

كما يذكر انتشار وباء الكوليرا في مكة في كثير من أعوام الحج ويثبت فيها:

- إن هذا الوباء لم ينشأ في مكة وإنما انتقل إليها مع الحجاج.
- إن أكثر هذه الأوبئة يحصل في أشهر الحج الصيفية/ الحارة وتقل وتنعدم في الشتاء.
- إن السبب هو الازدحام الشديد ومخلفات الحجيج، وبقايا الذبح في منى.

* * *

وأما الرحالة اليمني يحيى بن المطهر الذي حج عام 1211هـ فقد وصف جدة بأنها مدينة كئيبة حيث أخذت من كآبة الدنيا بأوفر نصيب فدورها متهدمة، ومدافع متروكة مهملة، وعمال الميناء لا يتورعون عن شتم حجاج اليمن والوقوع في أعراضهم ويفحشون عليهم بالقول، فقد سمع أحدهم يقول: يا أهل اليمن ما يدخل بكم الحرمين تنجسونهما يا أنجاس يا أرجاس، وغير ذلك مما يسود صحائفهم.

ويتحدث عن الحرم المكي وما فيه من المقامات الأربعة وطريقة الصلاة لكل مذهب حيث يبدأ الأحناف ثم الشافعية ثم المالكية ويعتبر تلك من البدع المؤدية لتفريق المسلمين. ويقول إن أحد رفاقه سأل عن مقام الزيدية أين يكون؟ فرد عليه لا أعلم. لكن إذا رأيت أن تستأجر مقام الحنبلي!! وذلك لأن مقام الحنابلة ليس له جماعة ولا تقام لهم صلاة لوحدهم.

ويشير إلى وقوف الحجاج اليمنيين بعرفة يوم التروية (يوم الأحد) حيث كان الشك في يوم عرفة هل هو يوم الأحد أم الاثنين فوقفوا احتياطاً يومي الأحد والاثنين ويقول: ما أحسن من احتاط في مثل هذا المقام فإنه قد انكشف أن الوقوف الصحيح كان يوم الأحد، ويصف أيام منى وما فيها من ابتهاج وسعادة ومظاهر الزينة والألعاب النارية بشيء من الزهو والإعجاب يقول: «ويرسلون الفشاش والطلاعات وأشياء أخرى تشبه القمر محكمة التدبير له ارتفاع وإنارة تستقر في السماء حيناً ثم تبلى، وصور أشجار بغصون مع تدوير الأطراف كالأزاهير من نار ترتفع ثم تبلى الأغصان حتى تكاد تقع على الأرض ثم تقرح كالبندقية» هكذا يقول!!

ويشير إلى ظاهرة اجتماعيه في الحرم المكي وهي دخول السقاة والباعة بدوابهم إلى زمزم يستقون ويبيعون وينتهكون حرمة الحرم وهي مسائل يتوجب الكلام عليها والنكير!!

* * *

ويذكر إسماعيل جغمان اليمني في رحلته إلى الحج 1241هـ. إحدى الطرف والعجائب عن المطوفين ويصفهم بأنهم ذئاب عليهم ثياب، يصيدون الحجاج فأحدهم طوّف حاجاً يمنياً ولما فرغ منه عاد به إلى ما بين الركن والمقام وأخذ يدعو: اللهم إني نويت لمطوفي هذا بريال، فقال اليمني بديواني (وهو أقل عملة من الريال) فغضب المطوف وأخذ يسب الحاج اليمني ويشتمه شتماً بليغاً.

* * *

من الرحلات الشرق آسيوية:

يذكر أحد الرحالة الآسيويين من جنوب شرق آسيا وقد أدى حجه، إن العرب يشربون من كأس واحد وأنها عادة غير طبيعية لأنها تنقل المرض.

كما تعجّب من النسوة العربيات اللواتي يغطين أوجههن واعتبرها عادة من العصر الجاهلي، مشيراً إلى أن المرأة المسلمة في تركيا ومصر وإيران ولبنان وأندونيسيا لا يغطون وجوههن. ويعتبر ذلك إنقاصاً من قدر المرأة.

* * *

كما أن أحد الحجاج الآسيويين فقد أمتعته بعد وصوله جدة. وفي مكة اشترى بعض الملابس والاحتياجات ثم أخلص الدعاء لله قائلا: «اللهم يا رحمن يا رحيم إذا كنت اشتريت أمتعتي من مال حرام فلا تردها علي، وأنت تعلم وتعرف إذا اشتريتها وكل ما فيها بأموال حلال فرجائي إعادتها إليّ» وبعد عودته من الحرم إلى سكنه وجد أمتعته في الغرفة ولا أحد يعرف من أحضرها!!

* * *

وإحدى السيدات المتزوجات الآسيويات قامت بأداء الحج بمفردها مع إحدى وكالات السفر العربية وكانت غاية في الجمال، اجتماعية تجيد التواصل والتحدث مع الآخرين، وخلال إقامتها في مكة تعرف عليها أحد موظفي الوكالة ووقع في حبها، وقدم لها الكثير من الخدمات الخاصة فقد نقلها من السكن الجماعي إلى سكن خاص بمفردها وكانت علاقتهما مثار الشك والقلق من حجاج آسيا المرافقين. وفي العام التالي طلب منها الموظف أن تحج هي وزوجها على حسابه، وأرسل لها مبلغاً من المال لتغطية تكاليف السفر وقبلت العرض وجاءت وهي وزوجها وتمت خديعة الزوج ولما انكشف أمرها قام الزوج بتطليقها.

* * *

وفي إحدى حملات الحج الآسيوية، افتقدت أحد حجاجها منذ وصولهم مكة وزيارة جبل ثور، واستمر فقد الحاج حتى نهاية الحج والحملة تبحث عنه ولم تجده، وقبل العودة إلى أندونيسيا في آخر أيام الحج عادوا من الحرم بعد العشاء فوجدوا الحاج في غرفته فاستغربوا

واندهشوا فأخبرهم الرجل أن الجن خطفوه وأدى الحج معهم وأتم نسكه كاملاً، تقول زوجته إن الحاج كان ورعاً تقياً لم يسبق له معصية الله.

* * *

وفي رحلة حج يابانية نقرأ أن أحد الحجاج اليابانيين بعد رمي الجمرات كان يفكر في الحلق أو التقصير وكيف سيكون شكله لو لبس الجاكيت ورباط العنق، ربما يكون شكلاً عجيباً. فرأى من الأفضل التقصير ولما وصل إلى الحلاق تلاشي القلق والتفكير وأسلم رأسه للحلاق ولا يدري كيف حدث هذا!؟ وبالطبع فقد انتقده الناس لأن رأسه بدت كجلد النمر وأخبروه أنه سلم رأسه لحلاق غير محترف ورغم ذلك كان راضٍ تماماً عما حدث!!

* * *

وفي رحلة نواب إسكندر (بيجوم بهوبال) أي حاكمة ولاية بهوبال بالهند 1280هـ تصف نساء مكة بخشونة الصوت، والإزعاج وضخامة الجسم وعدم التناسق وقوة العضلات مثل الرجال. وتستعجب أن الناس في مكة لا يغنون ولا يرقصون ومعظم نساء مكة لا يرقصون وإن رقصن فذلك يثير الاشمئزاز.

* * *

وفي إحدى الرحلات الإيرانية يقول الرحالة / الحاج ميرزا دارد - وزير الوظائف - أنه تشرف بزيارة الحرم الشريف ليلة الجمعة 26 من الشهر فرأى باب الكعبة معداً للفتح فقرر الدخول غير مبال بما

يكلفه هذا العمل وكان يحمل المصحف الشريف فوصل إلى السلم مع مطوفه الذي يرتدي العمامة. فسمعه يقول بالعربية لرجل عربي يقف على السلم عند الباب: إن هذا الحاج يريد الدخول للكعبة وسيدفع ريالاً فأجابه الرجل لا بأس ما يخالف، فأخذ الريال وسمح له بالدخول وشرع في تلاوة الأدعية وكان هناك شاب يجلس خلف الباب فلما رآه دخل وطاب له المقام جاء إليه وطلب منه أن يدفع مجيدياً أو يخرج فاضطر الحاج الإيراني دفع المطلوب وإكمال الصلاة في الكعبة يقول يبدو أنه كان (ابن شيبة) يقصد أنه من أبناء بني شيبة (سدنة الكعبة) وحاشاهم ذلك!!

* * *

ومن الرحالة/ الحجاج اليابانيين كان عمر ياموكا، أول ياباني يحج إلى مكة في ديسمبر 1907م - 1327هـ ويبدو أنه حديث عهد بالإسلام ولم يتعرف على العبادات الدينية بشكل جيد فكان يستغرب من الحجاج وهم يؤدون الطواف سبعة أشواط ويرددون نفس الحركات في الصلاة من ركوع وسجود ويقول «لم أفهم نية هؤلاء الحجاج الحقيقية فإذا كانوا يجتمعون في مكة مثلما نجتمع نحن في معابدنا للحصول على حجاب يحمينا ويجلب لنا حسن الحظ فإني أتفهم ذلك أما التعبد والركوع فقط فبدا لي أنه من غير معنى وتوقعت أن يتجدد شيء في الأمور أو يحصل شيء آخر»!!

وعندما شاهد الحجاج في نهاية عرفة يجمعون خيامهم استعداداً للنفرة تعجب من هذا المنظر ويقول «لم أفهم لم نصب الحجاج خيامهم في عرفة إن لم ينووا المبيت بها. كل شيء مضحك بالنسبة لي».

ويقول عن سبب تواجد الناس في عرفة أنه سمع قصة لا يصدقها وهي أن آدم جد البشرية تزوج حواء على جبل الرحمة وحمدوا الله واسترحموه. يؤمن المسلمون بهذه القصة ويجتمعون في عرفة ليشكروا آدم على ولادتهم في الأرض ويسألون الله الرحمة.

* * *

من رحلات الحجاج الغربيين:

الرحالة الفرنسي كورتلمون يتحدث عن الجمال الخضر التي تأتي في كل ليلة إلى مكة المكرمة تحمل أهل التقى من موتى المسلمين من كل أنحاء العالم وتنقلهم إلى مكة (مقابر المعلاة) وتحمل منها رفات غير المستحقين إلى بلاد بعيدة حتى يحين يوم الحساب والعقاب والغفران.

ويؤكد ذلك بقصة عن الشيخ (عبود بن محمد عابد بن حسين) مفتي المالكية. عن فتى موريسكي أحب امرأة أسبانية أسلمت على يديه ثم فرّق والدها بينهما فماتت من الجوى ودفنت في بلاد الروم، ولما أراد الفتى أن ينبش قبرها ليسترد أسورة كان قد أهداها لها. فلما فتح القبر وجد جثة شيخ بدوي تلتمع في يده سبحة ثمينة فأخذها. وذات حج وهو في مكة وفي يده السبحة فإذا بفتى يصرخ في وجهه من أين لك هذه السبحة؟ إنها سبحة والدي الذي مات وكانت رغبته أن تدفن السبحة معه، لقد سرقتها يا نباش القبور. لكن الفتى يصيح ويقول، إنه أخذ السبحة من بلاد الروم، ويروي القصة بالتفصيل. فحملوه إلى القاضي الذي قرر أن يفتح قبر الشيخ في المعلاة لاستجلاء حقيقة الأمر. ولما فعلوا وجدوا جثة الأميرة الأسبانية في القبر والأسورة تلمع في ذراعها. لقد قامت الجمال الخضر بالمهمة!!

* * *

وفي رحلة الطبيب الفرنسي (آخيل آدريان) بروست إلى الحج يصف المحمل وصفاً عجيباً فهو صندوق على شكل هرم مزركش بالحلي الذهبية ويقوم على قاعدة من الخشب ويوضع على ظهر جمل أصيل يقال إنه ينحدر من صلب جمال النبي صلى الله عليه وسلم. ويوجد على القاعدة نسخة من كتاب دلائل الخيرات، وصندوق عتيق من الفضة يحتوي على بعض الأدوات التي كان النبي صلى عليه وسلم يستخدمها «طاقيته، حذاءه، مشطه، قارورة الكحل التي كان يكحل منها عينيه، وقطعة من سواكه» تحمل هذه الأدوات كل سنة في موكب مهيب من قلعة القاهرة ثم تعاد إلها بعد الحج وتوضع قرب ضريح محمد علي باشا.

* * *

ويصف أحد الرحالة الحجاج من الفرنسيين واسمه ليون روش عام 1257هـ/1841م الوضع في منى أيام الحج إنه منظر يأسر الألباب أن ترى آلاف الخيام على ضوء القمر وعلى وميض النار المتأججة وأن ترتفع أصوات النداء على الحجاج الضائعين والأدعية وأغاني الفرح الموقعة على التصفيق بالأيدي وقرع الدفوف والصراخ الناشز لأصحاب المقاهي كل هذه الضجة المقرونة بالأصوات الحزينة التي تصدر عن أكثر من 20 ألف جمل، وحمحمة الجياد، ونهيق الحمير كل ذلك يؤلف سيمفونية تصم لها الآذان!!

ويقال إن هذا الفرنسي كان مستشاراً للأمير عبدالقادر الجزائري ونصراني تظاهر بالإسلام وسمى نفسه عمر عبدالله وأثناء وقوفه في عرفات تعرف عليه بعض الحجاج الجزائريين فصاحوا (نصراني-

نصراني) فقبض عليه الجنود وقيدوه وأركبوه على جمل إلى جدة وسافر إلى بلده!!

* * *

وفي رحلة الحاج الأمريكي المسلم الأسود مالكوم إكس (مالك شباز) نجد الروح الإسلامية واستشعار أهمية الدين الإسلامي والأخوة في الله. يقول إنه لم يشهد في أرض مثل هذه الضيافة الصادقة والاحتفاء البالغ بالأخوة الحقة مثل ما لقيه في مكة أثناء موسم الحج لقد غدوت أخرساً أمام صور الكرامة المحاطة بي من قبل الناس من كل لون كان هناك عشرات الآلاف من الحجاج من كل العالم من ذوي العيون الزرقاء والبشرة السوداء الأفارقة لكنهم يؤدون شعيرة واحدة مظهرين روح الأخوة التي لم أعهدها في أمريكا.

ويقول إن أمريكا في حاجة إلى فهم الإسلام لأنه الدين الوحيد الذي يمحو من المجتمع الأمريكي المشكلة القومية لقد كنا إخوة لأن إيماننا بإله واحد قد نزع من قلوبهم (الأبيض) ونزع (الأبيض) من تصرفاتهم كما نزع (الأبيض) من أفكارهم. وقد تبين لي من ذلك أن الأمريكيين البيض إذا قبلوا وحدانية الله فمن الأجدر أن يقبلوا وحدة الجنس البشري!!

* * *

وفي حالة عجيبة غريبة نجد أحد الرحالة البرتغاليين - وكان بحاراً واسمه جريجوري كوادرا - صحب الحجاج اليمنيين من زبيد عام 906هـ/1500م ولما وصل المدينة المنورة أصابته لوثة مشوبة

بعاطفة دينية فأخذ يصيح بأعلى صوته شاتماً النبي صلى الله عليه وسلم ويقول إنه يتحدى النبي أن يكشف سره ويوضح لعموم الناس أنه نصراني وكان يردد أنه يتمنى أن يتحول المسجد النبوي إلى كنيسة، مثل ما حصل في لشبونة. دهش الناس المتجمهرين حوله وظنوه ولياً يهذي بكلام غير مفهوم. فتنافس الناس في مد يد العون له. وانتهت قصته بالهروب من المدينة راجلاً إلى البصرة ومنها إلى البرتغال حتى قضى حياته خادماً في دير للرهبان.

* * *

أما الأعجب من ذلك فإن أحد الرحالة الفرنسيين ويدعى فنسنت لوبلان حج إلى مكة وشاهد الثيران تسحب الماء من بئر زمزم داخل المسجد الحرام ودهش لذلك.

* * *

وفي هذا السياق نجد «توماس كيث» أحد المغامرين الذين شاركوا الحملة العثمانية في حروبها ضد الحجاز ثم عيّنه طوسون باشا عام 1231هـ/1815م والياً على المدنية المنورة عندما غادرها إلى نجد. وبهذا التعيين يكون «توماس كيث» أول أجنبي غير مسلم يتولى إمارة المدينة المنورة؟! وهذه معلومة لابد من التحقق منها!!

* * *

وفي عام 1277هـ/1860م زار مكة حاجاً البارون مالتزن بصحبة حاج جزائري مدمن على تعاطي الحشيش وقد اتفقا أن يدخل البارون مكة بجواز الجزائري مقابل كمية من الحشيش وتحقق ذلك، بقي

الجزائري في جدة محششاً لا يدري من أمره شيئاً ومعتقداً أنه أدى الفريضة ودخل (مالتزن) مكة ولم تترك لديه أي انطباع إيجابيٍ وشعر بعدم الراحة النفسية واعتبر الشعائر الإسلامية في الحج طقوسا مملة ذات طابع جنوني وشبّه المسجد الحرام بقلعة الشياطين. لم يكمل مناسكه. فبعض الحجاج اكتشفوا أنه نصراني فخاف وهرب إلى جدة وسلّم الجواز لصاحبه الحشاش!!

*　*　*

وأما الرحالة الانجليزي (جون كين) فهو ابن قسيس تربّى منذ شبابه لدى المسلمين الهنود، وقد زار مكة حاجاً عام 1294هـ/1877م مع أمير هندي. أحب جون مكة لدرجة أنه حسب نفسه من أهلها. وصف منظر طلاب المدرسة في مكة وهم يجلدون على أقدامهم كل مجموعة تضم خمسة تلاميذ يتلقون العقاب دفعة واحدة.

يقول كين: إنه يحب مكة ومعجب بالإسلام ولكن أهل مكة لا يستحقون الحب فأغلبهم شحاذون يطلبون البخشيش. مر يوماً بملابسه العربية والعمامة فتقدم له صبي وصاح بدون سبب انظروا إلى هذا النصراني!! فما كان من أحد المارة المتسولين إلا التقدم نحوه وطلب الإفصاح عن هويته فأخذه كين وألقاه أرضاً فتجمع الناس عليه يضربونه ويرمونه بالحجارة فاضطر لخطف طفل واتقى به رمي الحجارة حتى توقف الناس، وتمكن من الهرب إلى الشرطة وهناك ادعى الإسلام فأفرج عنه.

أما الرحالة الهولندي (كريستيان هورخرونيه) حج إلى مكة عام 1303هـ/1885م. ومن عجائب حصوله على المعلومات هي الارتباط

بزيجة في البلد الذي يزوره. وفي مكة تزوج بإحدى الجاويات وعن طريقها حصل على معلومات كثيرة عن المجتمع المكي وعاداته وتقاليده في الزواج.

* * *

أما آخر عجيبةٍ لحاج سعودي معاصر في أيام منى نزل إلى سوق العرب يتبضع شيئاً من الهدايا لأولاده وعائلته، لفت نظره فتاة جميلة تبيع الألعاب، فوقع نظره على مسدس مائي للأطفالٍ فساومها على السعر فأشارت عليه بوضع إطلاق النار فارتجل شعراً:

ناران نار هوى ونار رصاص　　قذفتهما الحسناء صوب الرائي
لتصيب إما جسمه أو روحه　　والنصر في الحالين للحسناء

والحمد لله رب العالمين،،،

جدة 1429/10/10هـ

أطروحات مرجعية
أسهمت في تشكيل بنية هذه الدراسة

(1) د. أبو بكر أحمد باقادر: الندوة الإسلامية السنوية الكبرى لموسم حج 1422هـ، وموسم حج 1423هـ (بحوث ودراسات في أدب الحج)، وزارة الحج، الطبعة الأولى، 1423هـ.
(2) د. حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م.
(3) د. عبدالله بن إبراهيم العسكر: رحلات الغربيين إلى بلاد الحجاز، محاضرة في نادي الطائف الأدبي، 1423/5/20هـ.
(4) د. محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف: المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، 4 مجلدات، دار الأندلس الخضراء، جدة، ط1، 1421هـ.
(5) الدكتورة نازك سابايارد: الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة. مؤسسة نوفل، بيروت – لبنان، ط1، 1979م.
(6) د. يوسف حسن العارف: سياحة معرفية/ قراءات ومطالعات في الرحلات الحجازية، مقالات نشرت في مجلة الحج والعمرة، (ويضمها هذا الكتاب في مباحثه الأولى).

رحلاتي إلى الحج...
من الطفولة إلى الستين!![*]
«سيرة حجيَّة»

مدخـــل:

كنت طفلاً، يوم أن زرت مكة لأول مرة، كنت حينها - لا أكاد - أفك حروف الأبجدية، أشكل منها جملاً.. وأقرأ ما عنَّ لي من شاخصات!!

أولٍ ما لفت نظري، وارتسم في خاطري - وأنا القروي - شاخصاً إعلانيا - في الطريق إلى الحرم - عن المشروب المسمى «ميرندا».

اختلطت في ذهني كل المعاني، ورحت أفك هذه المفردة إلى جزئين: «مير» و«ندا»، وأسقط على كل منهما المعنى الشعبي الذي تكتنزه ذاكرتي الطفولية، وهي بعيدة - كل البعد - عن المشروب الذي تذوقته وعرفته في مكة لأول مرة!!

كنت طفلاً - حينها - يوم دخلت الحرم لأول مرة!! كانت قامة الكعبة المشرفة - في ذهني الطفولي - تطاول السماء، كان الحجر الأسود بعيداً... بعيداً عن الأرض وعن قامة طفل - كنته - سيسقط إن رفع رأسه ليراه!

(*) هذه الورقة كتبت خصيصاً لهذا الكتاب، وهي جزء من السيرة الذاتية التي سأعمل على إنجازها في قادم الأيام إن شاء الله.

كان أبي - يرحمه الله - يلتقط هذه المشاعر الطفولية، فيحملني على منكبيه لأتمكن من تقبيل الحجر الأسود!! كان مقام إبراهيم، عليه السلام، درة مصونة داخل مبنى كبير، لا يلج إليه إلا مَن أوتي بسطةٍ في الجسم والعلم!! كان المنبر الرخامي الأبيض شاخصاً عالياً ومهيباً.

كان باب بني شيبة، بألوانه الزاهية وشكله الهندسي، باباً كل ما حوله فضاء.

وكان حمام الحرم يسبِّح ويصلي بين جموع المصلين..كنت طفلاً حينها، يوم نزلت إلى بئر زمزم لأشرب من مائها مباشرة بالدلاء وعلى يد السقائين.

ودارت الأيام.. ثم عدت إلى مكة شاباً يافعاً، يحمل «جبَّته» السوداء/ عباءة المطوف، ليقضي مواسمٍ العمرة في رمضان وأيام الحج خادماً لزوار بيت الله الحرام، ومطوفاً لهم.

كنت - كغيري من أبناء دار التوحيد بالطائف - أحفظ أدعية الطواف، وأمارس الطوافة والسعي بالحجاج، الذين لا يجيدون صياغة الدعاء لرب الأرض والسماء، فيلجأون إلى أمثالي من أصحاب العباءات السوداء!! كنت أجمع في هذه المواسم، ما يعين أسرتي على نوائب العيش وقساوة الأيام!!

ثم دارت الأيام.. وأعود إلى مكة طالباً جامعياً، فأتخذ من مقام إبراهيم مصلى..ومن الدور الثاني بالحرم مكاناً للاستذكار والمراجعة، ومن حلقات العلم بالحصيات، ما بين المغرب والعشاء، تمدرساً ومثاقفة.. ومن زمزم «طعام طعم وشفاء سقم»!!

حينها.. عشت فجيعة سيل الأربعاء.. يوم أن صبَّت السماء صباً.. وسالت الأرض بالماء، وأصبحت شوارع مكة خلجاناً ووديانا، وساحة

الحرم سداً يكنز المياه!! كان ذلك في العام 1395هـ، وتحديداً في الفترة من 24-28 ربيع أول(*).

كنا نهرب إلى الأدوار العليا لنشاهد - عظمة الله - حين يحمي بيته من الماء.. ويبتلي عباده بالماء!! كنا نشاهد الطائفين وهم يسْبحون ليكملوا الطواف!! يومها قالوا.. وسمعنا..

«لن ينقطع الطواف..
حتى لو غرق المطاف!!
ويبقى من الذكريات بواقي
ومكة - في خاطري - قبلة
أفتديها بماء المآقي»!!(**)

بهذه المفردات والمعاني ألج إلى ذاكرتي الحجيَّة أقتطف منها ما علق بها من مشاهد وذكريات، وأكتب عن ذلك التعالق النفسي والعملي والديني بيني وبين مكة المكرمة، مكة الحج، مكة الفكر، مكة الثقافة.

* * *

(1) الحج طفلاً وضياع أمي:

حدثتني «أمي» رحمها الله عن «أبي» رحمه الله أن أول حجة حججتها وأنا طفل صغير لا أتجاوز الخمس من السنين. ذلك العام قرر أبي رحمه الله أن يحج بالوالدة ومعهما ابن العمة الراشد

(*) وقد وجدت ذلك مثبتاً في مذكراتي اليومية لعام 1395هـ.

(**) مقال بعنوان: ميرندا في مكة، نشر في مجلة الحج والعمرة، السنة (59)، العدد الثاني، صفر 1425هـ، مارس/ إبريل 2004م.

- آنذاك - أحمد علي (رحمه الله) وأنا طفل صغير في حجر أمه لا راعي له في الطائف ولابد من الحج مع الوالدين.

تذكر أمي أن الحجيج يومذاك قضوا نهارهم في عرفة في دعاء وقنوت ولجوء إلى الله حتى غابت الشمس وأذن القائمون على الحج بالنفرة إلى مزدلفة فحملتني بين ذراعيها وانطلقت مع جموع الحجيج في ليل بدأ ظلامه يغطي الآفاق بين عرفة ومزدلفة، وما إن توسطت الدرب حتى شعرت بالحاجة إلى قضاء الحاجة، ويومذاك لم تكن هناك دورات مياه في الطريق ولم يكن ثمَّ إلا الخلاء (كان ذلك في بدايات عهد الملك سعود رحمه الله)(*).

تقول الوالدة (رحمها الله) إنها استأذنت الوالد لقضاء حاجتها وتركتني عنده للرعاية، فطلبها الوالد ألا تبتعد عن المكان الذي نزلوا عنده في طرف جبل يطل على مزدلفة وأكدت له ذلك. ولكنها مع الازدحام وكثرة الحجيج الراجلين والدواب التي تحملهم توغلت أكثر في طرف الجبل حتى تخلو بنفسها وتبعد عنها نظرات المارين وكأنها ابتعدت عن المكان المعلوم.. ولما قضت حاجتها وأرادت العودة إلينا ضاعت الجهات وكثر الزحام فلم تدر إلى أين تسير وكأنها اتجهت نحو عرفة! لكن الحجيج أعادوها نحو اتجاه مزدلفة.

وبدأ الطفل (أنا) في البكاء رغبة في الإطعام والحليب وبدأ الوالد وابن العمّة في القلق والخوف من الضياع وبعد فترة طويلة من الانتظار تأكد الوالد أنها قد ضاعت ولابد من البحث عنها، فذهب يصيح ويبحث، وأنا أبكي عند قدم ابن العمة أحمد علي، وهي تصيح وتبحث

(*) انظر صور عرفة قديماً وجبل الرحمة في المرفق المصور.

وتبكي ولا من مجيب. عاد الوالد من جولته ليبقى معي ويذهب ابن العمة للبحث حتى يئسنا من عودتها، ولكن الله رحيم بعباده!! مضى نصف الليل والركبان يتقاطرون جماعات وفرادى إلى مزدلفة والأم ضائعة تبحث عنا ونحن ننتظر ونبحث ونصيح علَّها تسمعنا ولا من مجيب!!

ولما فقد الوالد أعصابه وزاد بكاء الغلام (أنا) أراد الله بنا الرحمة فإذا بالأم الرؤوم قريبة منا تصيح ويسمعٍ أبي النداء فيذهب صوب الصوت حتى وجدها وانهال عليها ضرباً باليسار واليمين لما أحدثته لنا من فواجع وكيف تضيع امرأة في زحام الحجيج؟! وهي مستسلمة راضية بعقابها.. فرحة بعودتها ولقائنا!!

طبعاً نسينا الآلام واكتحلت عين الأم بوليدها واستقرت نفسيتها بعد ما عانته من ضياع وخوف وبحث وملام وعقاب وأكملنا رحلة الحج الأولى بالنسبة لي والتي لم أفقه منها إلا ما حدثتني به الوالدة وأكده الوالد وابن العمة في كل حج يمر علينا نتذكر هذه الذكريات والحمد لله!!

* * *

(2) الدَّجُّ في الحج مواقف وذكريات:

وفي كل حج، كان الوالد (رحمه الله) يخطط لأبنائه أن يصحبوه إما حاجين أو (داجين) والدَّجُّ هنا بمعناه الفصيح أي خدمة الحجيج فأهل مكة وما حولها إما (حاجين) أي يؤدوا الفريضة ويحجوا مع جموع المسلمين وإما (داجين) أي يعملوا في خدمة الحجيج!!

وهذا العام لا أذكر أي عام – لكنه بالتأكيد في نهاية الثمانينات وأنا طالب في المرحلة المتوسطة 1387 - 1390هـ أصر الوالد عليّ وعلى أخي الأكبر محمد عارف أن نذهب للحج (داجين) فنعمل في عرفة ومزدلفة ومنى طوال أيام الحج في بسطة متواضعة نبيع فيها الماء والشاي ومعلبات الأطعمة والفواكه وغيرها مما يحتاجه الحجاج فكانت لنا بسطة متنقلة من مشعر إلى آخر حتى نستقر أخيراً في منى ثلاثة أيام ثم إلى مكة حتى ينتهي شهر الحج!!

وعبر هذه التجربة التجارية كنا نلتقي بالحجاج من كل الجنسيات ونتعرف على طباعهم ولغاتهم، أذكر أحد أبناء مكة يبيع الشاي والحليب والمشروبات الساخنة والباردة. بجوارنا وكان يتقن اللغة الأندونيسية فينادي على الزبائن بقوله: «سوسو مني.. كوبي ياحاج». وكنت أظن أنها تعني: دعوة الزبائن أن يشربوا الشاي، والكوب قيمته (كذا / بالعملة الأندونيسية).

ولما استفسرت مؤخراً – وأنا أكتب هذه الذكريات – من أحد الإخوة السعوديين وأصولهم أندونيسية، صحح لي ذلك المفهوم الخاطئ، فالعبارة: سوسو سيني، كوفي يا حاج. وتعني: يوجد لدينا قهوة وحليب!!

أذكر في أول رحلة (دجيَّة) أننا إذا أردنا الراحة من (الدج) نخرج إلى سوق العرب.. و«سوق العرب» - لمن لا يعرفه - هو أحد الشوارع الرئيسة في منى، يوم أن كانت المنطقة المركزية بجوار مسجد الخيف (المشعر الحرام بمنى) تكتظ بالعمران السكني وكانت المتاجر تقبع في الأدوار الأرضية، وكانت «منى» في ذلك الزمن وحتى اليوم مدينة الحج العظمى ولمدة ثلاثة أيام أوأكثر خلال فترة الحج وزمنه المحدود.

كان ذلك الشارع المسمى بسوق العرب أكبر الشوارع وأكثرها متاجراً، يتحول إلى سوق عامرة بكل ما تعنيه الكلمة، وكان تجار مكة يستثمرون هذه السوق، فيجلبون إليها كل ما يحتاجه الحجاج. وكان التجار من الحجاج يعرضون بضائعهم التي يجلبونها من ديارهم وبلدانهم «ليشهدوا منافع لهم...»، وتقوم هناك حركة تجارية لها أسلوبها ونظامها وفعالياتها، فتتميز عما سواها من فعاليات التسوق الأخرى.

وكان المخلَّفون من أهل مكة[1] يخرجون إلى «منى» في تلك الأيام، لا للتسوق فقط، وإنما للتنزه، والتعرف والتعارف، ومقابلة الحجيج، والوقوف على حركة التسوق التي لا يمكن أن توجد بهذه الصورة والكيفية إلا في ذلك المكان «منى» والزمان «أيام الحج». فالآلاف من البشر، وصنوف من الجنسيات، واختلاف الألوان واللغات والعادات والتقاليد، تغري المكيين بمشاهدتها والتعامل معها في ذلك السوق العظيم.

كنا - ونحن نعمل في الحج وخدمة الحجيج بمكة - تستهوينا فكرة التسوق والتنزه في منى أيام التشريق، فكلما أتيحت لنا الفرصة لزيارة السوق نعجب أشد العجب مما نشاهده ونسمعه.

ولعلَّ ما تختزنه الذاكرة من تلك الأيام وذكرياتها ومشاهداتها بعض الصور والمشاهد الشعرية. فهذه مجموعة من النساء الحاجَّات (ربما يمنيات أو تهاميات) يجلسن على قارعة الطريق في ذلك السوق،

(1) هم الرجال الذين يتخلفون عن الحج ويبقون في مكة أو يشتغلون على خدمة الحجاج.

وينشدن – بشكل جماعي وبصوت رقيق أنيق وبلهجتهن التي تُقَلِبُ فيها اللامُ ميماً، والعين ألفاً – وهي لغة عربية يتكلم بها أهل تهامة اليمن وقد تحدث بها المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله: «نعم من أمبر امصيام في امسفر» – أو كما قال صلى الله عليه وسلم – ينشدن ما يلي:

«حُجَّاج يا حُجَّاج يِقْبَلْ حَجكّنْ
آلي مِنى وأرفَاتْ يِجْمَأْ شَملُكُنْ

والزَّمزَمي والطَّايفي يابُو ألي
جَيْنَا مِنَ امْكَابَه وشبَّاك امْنَبي»[2]

فيقف المتسوقون لسماع هذا الصوت الغنائي الرقيق والنسوة يكررن إنشادهن، فيتصدق المستمعون بما تجود به نفوسهم، فالحج فرصة كبيرة للمتسولين، والمتصدقين في نفس الآن!!

ومما تختزنه الذاكرة الشعرية أيضاً – في هذا السياق – ما قاله الشاعر الطائفي (نسبة إلى الطائف) الذي ذهب للتسوق والتنزه في سوق العرب، فوقف على بائعة للألعاب من إحدى الدول الإسلامية ولمح فيها جمالاً أخاذاً، وبدأ يساوم في إحدى اللعب التي تشبه الأسلحة الخفيفة (المسدس)، ويسأل عن ثمنها ليشتريها، فأخذت هي الأخرى (مسدساً) لتشرح وتصف بضاعتها ومميزاتها وتسوقها بالسعر الذي تراه، فأشارت إليه بأنه يمكن لهذا المسدس أن يصيبه في مقتل. فرد عليها شعراً:

(2) هذا الشعر كتبت حروفه بلهجة أهله التهاميين، وحروفه كما يلي: (حجكم، على، عرفات، يجمع، شملكم، يابو علي، الكعبة، النبيّ).

«ناران.. نار هَوىً، ونار رصاص
قذفتْهُمَا الحسناءُ صوبَ الرأيِ

لتُصيبَ آمَّا جسمَهُ أو رُوحَه
والنّصر في الحَالين للحَسْنَاء»[3]

هنا تذكرت الشاعر القرشي المخزومي الحجازي، شاعر الغزل والنساء، عمر بن أبي ربيعة الذي كان يتعرض للحجيج من النساء ويصف جمالهن وهن محرمات، وله كثير من القصائد الغزلية في منى لعلّ منها قوله:

«غادة تفتر عن أشنبها	حين تجلوه أقاح أو برد
ولها عينان في طرفيهما	حور منها، وفي الجيد غيد
قلت من أنت؟ فقالت أنا من	شفّه الوجد وأعياه الكمد
نحن أهل الخيف من أهل منى	ما لمقتول قتلناه قود
قلت أهلاً أنتم بغيتنا	فتسمين، فقالت أنا هند»[4]

وقوله كذلك في قصيدة أخرى:

«ضاق الغداة بحاجتي صدري
ويئست بعد تقارب الأمر

وذكرت فاطمة التي علِقت
عرضاً بنا، لحوادث الدهر

عرضت لنا بالخيف في بقر
تقرو الكباث وناظر السدر

(3) الأستاذ الشاعر سعد بن سعيد الحارثي، أحد القياديين التربويين السابقين في تعليم جدة.
(4) السيد أحمد الهاشمي: جواهر الأدب...، جـ 2، ص ص 146-147.

فسبت فؤادي إذ عرضت لها
يوم الرحيل بساحة القصر»[5]

وهنا أقول متسائلاً: وماذا بقي من سوق العرب؟! بعد التوسعة والتطور الذي شهدته «منى» في هذا العهد السعودي الزاهر، فقد توسعت منى إلى أضعاف أضعافها يوم كان «سوق العرب» يقبع في وسط منى بعماراته ومتاجره بجوار مسجد الخيف والجمرات، وكانت منى حينذاك صغيرة جداً فيها من العمران والمساكن ما يخدم أهلها والحجيج.

أما الآن فقد أزيلت تلك العمائر والمساكن وما حولها وبينها من متاجر، وأزيل معها ذاكرة اقتصادية كان لها أكبر الأثر التجاري آنذاك. وحل محلها الجسور والأنفاق والخيام غير القابلة للاشتغال والطرق الفسيحة، وتوسع المشعر الحرام (مسجد الخيف) وأقيم جسر الجمرات الذي حل كثيراً من مشكلات التدافع والزحام والوفيات[*].

فمزيداً من الحمد والشكر على نعم الله التي لا تحصى ولئن كان «سوق العرب» يمثل الذاكرة التجارية والاقتصادية لمنى، فإنه يحمل في طياته ذكريات الشعر والغزل والشعراء المبدعين[6].

* * *

وذات حج كنا نمتهن الطوافة الفردية التي كان يتقنها ويقوم بها أبناء «دار التوحيد» في الطائف بعيداً عن مؤسسات الطوافة في مكة

(5) ديوان عمر بن أبي ربيعة، منسوخ على أقراص إلكترونية CD.

(*) انظر الصور التوضيحية في المرفق المصور.

(6) نشرت هذه المقالة بعنوان: وماذا بقي من سق العرب في منى، مجلة الحج والعمرة، السنة 61، العدد الثاني، صفر 1427هـ/ مارس 2006م، ص ص 32-33.

فكنا نحفظ أدعية الطواف المطبوعة في كتاب خاص ونشتري العباءة السوداء والسجادة المكية/ الحجازية المميزة التي يحرص على اقتنائها كل مكي يؤدي صلواته في الحرم الشريف وعلى أبواب الحرم ننتظر الحجاج نعرض عليهم خدماتنا التطوعية فيقبلون ونقوم بذلك مرة نشترط أجراً معلوماً نتفق عليه، ومرات كثر نتركها للبركة وما يجود به الحاج وكنا كمطوفين نتسابق على الحجاج الإيرانيين والأتراك والمغاربة والأندونيسيين لأنهم الأكثر عطاءً، ونبتعد عن الأفارقة والسعوديين والمصريين لأنهم الأبخل في نظرنا القاصر (آنذاك)[7].

أذكر أن حجاجاً من أندونيسيا لا يتجاوزون العشرة قابلتهم عند مدخل المسعى من جهة الكعبة صاعدين نحو الصفا ويبحثون عمن يطوفهم فتفاوضت على الأجرة وأنا أطلب خمسين ريالاً وهم يستكثرونها حتى اتفقنا على الثلاثين ريالاً فقط وبدأنا السعي وبينما نحن في منتصف الشوط الأول وإذا بأحدهم يطلب مني أن أرفع الصوت بالدعاء، فالحجاج يملأون المسعى أكثر من (سبعين) حاجاً ما بين رجال ونساء!! وبحثت عن رئيسهم الذي اتفق معي فضاع بينهم والسحنة واحدة. فاعتذرت عن عدم القدرة وهربت نحو أصحابي أحكيهم الحكاية؟!

وذات يوم قابلت حاجة من قطر عربي كبيرة في السن وعرضت عليها الطواف والسعي فوافقت دون أن نتفاوض على الأجر المطلوب، على أمل أن تكون أكثر كرماً وعطاءً. وبدأنا الطواف ولعجزها وكبر سنها كنا نتأنى في الطواف ونستريح قليلاً إذا رغبت، واستمر ذلك

(7) انظر مزيداً من هذه الذكريات: حج وبيع سبح، مقال في مجلة الحج والعمرة، السنة 59، العدد 12، ذو الحجة 1425هـ، يناير/ براير 2005م، ص 92.

حتى في المسعى ولم ننته من المهمة إلا في ساعة متأخرة جداً عن الوقت المعتاد!! وهنا كانت أحلامي كبيرة في الحصول على مبلغ مجز يعوض ذلك الوقت الطويل، ولكن ما إن انتهينا من السعي والدعاء على جبل المروة وارتاحت طويلاً وأنا أنتظر عطاءها فإذا بها تمد لي مبلغاً قد طوته في يدها طوال رحلة الطواف والسعي حتى كاد يتمزق من البلل والقِدَم!!

وفرحت به فرحاً أحسبه مائة ريال، أو على الأقل خمسين ريالاً فإذا بي أفاجأ أنه ريال واحد فقط واأسفاه!! لم أندم بل بكيت على حالي وعلى ضياع وقتي مع هذه الحاجة الـ (.......)!! ولما حدثت أصحابي أخذوا يتندرون بي ويهزأون، ولكنه كان درساً لي أن أتفاوض مع أي حاج وأتفق معه قبل مباشرة المهمة وخاصة إن كن نساء عربيات!!

وفي ذات السياق جاءني مجموعة من الحجاج الأفارقة ومعهم امرأة عجوز مقعدة لا تستطيع الطواف مشياً ولابد ممن يحملها على الشبرية (وهي كرسي خشبي طويل أشبه بنعش الجنائز) يحمله رجلان ممن أتاهما الله بسطة في الجسم ويستخدمه العجزة وكبار السن والمقعدون بأجرة يتفق عليها الجميع!!

أقول جاءني هؤلاء الحجاج وتكلم أرشدهم الذي يحسن العربية نوعاً ما قائلاً: بكم تطوف بها، وتسعى بها وتحملها على ظهرك!! فقلت له: لا أستطيع حملها وليس هذا عملي وأوصلته إلى أهل الصنعة والحمد لله!!

وقبل أن أتجاوز مرحلة (الدَّج)، أتذكر الحرم في يوم النساء!! (وهو يوم عرفة/ اليوم التاسع من ذي الحجة/ يوم الحج الأكبر).

ففي هذا اليوم يخرج الرجال عن بكرة أبيهم من مكة ومن الحرمٍ وتكون الفرصة سانحة لنساء مكة شابات وعجائز (ثيبات وأبكارا) الذهاب للحرم الشريف والأسواق المحيطة فلا ترى في الحرم إلا ذوات الخدور والعباءات السوداء اللواتي جئن للطواف والصلاة والإفطار لأنهن صائمات في هذا اليوم المبارك (يوم عرفة) وهنا - في هذا الجو الاستثنائي - يجد المخلفون (الذين لم يخرجوا للحج) المطوفون أمثالي، الفرصة للصيد البريء تطويفاً ودعاءً.. وغير ذلك!!

كنا - في هذا اليوم - ننزل إلى (سوق المدعى والغزة والجودرية وسوق الليل والسوق الصغير والقشاشية)[8] لنشاهد النساء وهن يشترين الدفوف والطِّيَران والصبايا يغنين فرحاً لقدوم العيد في اليوم التالي، ويمتلئ الحرم بالنساء وما جا نه من السوق!! ويحصل الازدحام النسوي الشديد!!

في هذا اليوم يتم تغيير كسوة الكعبة وتكون الفرصة مناسبة لمحاولة دخول الكعبة والصلاة فيها ومشاهدة ما فيها من كنوز وهدايا وآثار إسلامية والمشاركة في هذه المهمة ولكن تحول دون ذلك ظروف وصروفٍ. وذات حج حاولت أنا وأخي محمد عارف الدخول فتجمعنا مبدئياً ولما وصلنا إلى الباب حال دوننا والدخول رجال الأمن بالباب والمسؤولون في الحرم الشريف إلا أن أخي تمكن من الدخول وأنا حُرِمْتُ هذا الفضل العظيم ولا أزال حتى يومنا هذا أتمنى أن أنال هذا الشرف وأتمكن من دخول الكعبة والصلاة فيها إن شاء الله!!

* * *

(8) كل هذه الأماكن أزيلت ودخلت في التوسعات المتتالية للحرم الشريف - والحمد لله -.

(3) الحج فعلاً (ممارسة ومشاهدات):

كثيرة هي الحجج التي قمت بأدائها والحمد لله منذ أن كنت شاباً وحتى التقدم في سني العمر نحو الشيخوخة والمشيب. أذكر أن كثيراً من الحجج القديمة كنا نسميها حملة الرصيف الصالح ذلك أن حملات الحج الداخلية أسلوب جديد في حياتنا الاجتماعية السعودية فلم نكن نعرف إلا حملات الحج لخارجية أما حجاج الداخل فهم أهل الدار يؤدون الفريضة/ الحج متى وكيف يشاؤون فكنا - من الطائف أو من مكة أو جدة - لا ننوي الحج إلا يوم 8 ذي الحجة يوم التروية أو اليوم التاسع - يوم عرفة - فنلبس الإحرام ونجتمع مع الزملاء أو الإخوان ثم نغادر نحو المشاعر المقدسة بادئين بالحرم المكي حيث طواف القدوم وسعي الحج ثم نغادر إلى منى - إن بدأنا الحج اليوم الثامن أو نغادر نحو عرفة - إن بدأنا حجنا اليوم التاسع -.

وفي عرفة كانت مخيمات الوزارات مفتوحة لكل الراغبين من الحجاج يقضون فيها ظهيرة هذا اليوم المبارك، وخاصة مخيم الدعوة والإرشاد أو مسجد نمرة حيث نصلي فيه صلاتي الظهر والعصر جمعاً وقصراً ونقضي فيه بقية الظهيرة حتى يقرب وقت العصر فنصعد نحو جبل الرحمة وهناك نقف مع الواقفين في دعاء وابتهال وتضرع حتى يحين وقت النفرة إلى مزدلفة والتي كنا نقوم بها راجلين في متعة إيمانية وروح تعبق بالمساواة مع بني البشر القادمين للحج. فكان منظر الحجاج النافرين رجالاً أو ركباناً كأنه السيل الهادر تلبية ودعاءً في حالة نفسيَّة واجتماعية رائعة، محبة وأخوة، أثرة وتعاوناً، تعارفاً وألفة لا تتكرر كثيراً.

وفي مزدلفة - عند المشعر الحرام - يكون نزولنا والصلاة إن استطعنا فيه، وإن لم نتمكن بحثنا عن أقرب مكان في ذلك الوادي أو بجوار الجبل أو قبل وادي محسر في حدود المشعر فنصلي المغرب والعشاء جمعاً وقصراً ثم نبيت ونلقط ما استطعنا من الحصى.. وعادة لا نشعر بالحاجة للنوم لأن حركة الحجاج وأصوات الملبين وزحمة الناس تطرد النعاس مهما كان التعب شديداً، ومع طلوع الفجر نصلي الفريضة ثم نتوجه نحو منى والجمرة الكبرى فنرميها ثم نحلق ونتحلل التحلل الأول!! ثم نهبط نحو مكة والحرم لطواف الإفاضة!! وبذلك نختم المرحلة الأولى من الحج، ولا يبقى إلا المبيت في منى الأيام الثلاثة الباقية من الحج المعروفة بأيام التشريق وهنا تجيء حملة الرصيف الصالح!!

ففي نهار أيام منى نتوجه من الصباح أو شروق الشمس إلى دور أصحابنا وإخواننا القريبة من منى وهي في أحياء العزيزية والششة والمعابدة أو سكن طلاب الجامعة أو منزل أخي الدكتور عبدالرحمن العارف فيما بعد، أو المساجد في هذه الأحياء التي تفتح أبوابها وتستقبل الحجاج فننام طوال النهار، ومنا من يغادر إلى الطائف أو جدة ثم يعود بعد العشاء ليقضي الليل سهراً على أحد أرصفة الشوارع في منى أو تحت الجسور أو فوقها أو بجوار المخيمات أو عند الجبال والمرتفعات فيما يسمى حالياً بظاهرة «الافتراش».

المهم أن نقضي طرفاً من الليل في منى حتى يطلع الصباح فنعود إلى مضافاتنا النهارية!! وفي ذلك من المتعة النفسية والمعنوية والدينية

ما فيها لأنك تشاهد حجاج بيت الله من مختلف اللغات والجنسيات وتعيش نبضهم وإحساسهم وفرحهم بأداء هذه الفريضة!!

وهكذا كنا نقضي أيام الحج في رفقة حملة الرصيف الصالح وفيها ما فيها من التعب والنقص نسأل الله التوبة والقبول والمغفرة والرحمة.

ولعلي أقف عند ثلاث حجج معتبرات كاملة إن شاء الله قمت بها في أوقات متفرقات يفصل ما بين كل منها عدد من السنوات تطول وتقصر لكنها تستوعب كثيراً من المتغيرات اللافتة والتي سنقف على شيء منها!!

أما أولى الحجات المعتبرة والمكتملة - إن شاء الله – فلقد عقدت قراني على المباركة أصلاً وحسباً وفصلاً ونسباً نوال عبدالله الجندي اليماني في شهر رمضان 1405هـ في العشر الأواخر منه في 9/21، وتم الزواج في غرة ذي القعدة 1405هـ (أي أن ذلك الزواج المبارك كان في أشهر الحج) ولذلك عزمنا على الحج فبحثنا عمن يسهل لنا ذلك من أصحاب الحملات الحجية التي كانت في بدايات تطبيق هذا النظام الجديد!! فوجدت أحد زملاء العمل الأستاذ فهد باشا – معلم الرياضيات في القادسية المتوسطة آنذاك، والذي أنهى حياته العملية مشرفاً للتدريب التربوي، ومرَّ بكثير من الإدارات والأعمال القيادية من وكيل مدرسة، إلى مشرف تربوي إلى مساعد لمدير مركز إشراف، وكان من أسرة مكية لها إسهام في حملات الحج والطوافة، فسجلنا معه في تلك الحجة بمبلغ لا يتجاوز 4000 ريال لشخصين. أما في هذه الأيام فإن تكلفة الحملة للشخص الواحد لا تقل عن 6000-8000 ريال

للفرد الواحد، عدا ما ظهر علينا من فندقة وخيام VIB التي لا تقل عن عشرات الآلاف من الريالات وتصل إلى الملايين!!

كان على مضيفنا أن يوفر لنا مخيماً في عرفة مع طعام الغداء وما يستوجبه ذلك النهار الفضيل من ضيافة وشراب وماء وعصيرات وقهوة وشاي وخلافه، وخيمة خاصة في منى لمدة أيام التشريق وهذا ما كان. ففي عرفة كان هناك مخيمان أحدهما للرجال والآخر للنساء وكان الفصل بين الرجال والنساء سيد الموقف، فلم ألتق بزوجتي إلا في عصر ذلك اليوم حيث الدعاء المشترك وتبادل عبارات الزوجية التي يتقنها الزوجان المبتدئان!!

أذكر من تلك الرحلة الحجية ثلاثة مواقف، الأول ونحن في طواف القدوم حيث وصلنا إلى الحرم مساء اليوم السابع، فلما انتهينا من الطواف والسعي لجأنا - زوجتي وأنا - إلى إحدى الزوايا البعيدة في التوسعة الجديدة وكان الوقت متأخراً جداً حوالي الساعة الثانية قبل الفجر، وكنا مرهقين من السعي والطواف وأخذ منا التعب مأخذه فاتكأنا بجوار ذلك العمود نمارس شيئاً من الغزل العفيف لإراحة الأعصاب بعد التعب والسهر، فشاهدتنا إحدى المحتسبات الموظفات في الحرم وأبلغت عنا القيادات في الحرم الشريف فإذا نحن باثنين من رجال الهيئة ومعهما امرأتان وتم استجوابنا كلاً على حدة والتعرف على ماهية المرأة التي معي والرجل الذي معها، ولما تأكدا من زواجنا (وشرعية خلوتنا في حرم الله) همس في أذني - أحدهم - قائلاً لاداعي لهذه الحركات المريبة في حرمٍ الله.. فقلت سامحك الله وسامح المخبرة ألا ترى محرماً وحاجاً ومنتهياً للتو من الطواف

والسعي ويبدو عليه الإرهاق الشديد، أفي ذلك مدعاة للشك؟! لا حول ولا قوة إلا بالله!!

انتهى الموقف الذي أزعجنا وأزعج زوجتي وهي الشابة البريئة التي لم تتعود على مثل هذه المواقف الاحتسابية الخاطئة؟! وخرجنا مسرعين نحو الحافلات المنتظرات بعيداً عن الحرم استعداداً ليوم التروية!!

وأما الموقف الثاني فكان في أول أيام التشريق، فقد كانت الخيمة التي أعدت لسكننا في منى في أعلى جبل الصابح - وهو الحد الجنوبي لمشعر منى وفي سفحه يوجد المشعر الحرام/ مسجد الخيف - ومن ذلك العلو كنا نشرف بشكل بانورامي على وادي منى، والجمرات الثلاث وسوقٍ العرب ومسيرة الحجاج وهم يرمون الجمرات فكان المنظر أخاذاً ولاسيما في الليل والمساء أي منذ زوال الشمس وحتى منتصف الليل حيث يتوافد الحجاج على شعيرة الرمي.

وفي أول أيام الرمي نزلنا (زوجتي وأنا) ما بين العصر والمغرب لنرمي الجمرات وكان الزحام والتدافع على أشده فلما توسطنا الجسر سقطت عمامتي الشماغ على الأرض وبين أرجل الحجاج - كما تقول الزوجة - فحاولت الإنحناء لأخذها وكادت تسقط وتدوسها الأقدام وتحدث كارثة لا سمح الله. ولكني تحاملت وقاومت حتى أنقذتها وواصلنا السير حتى أتممنا شعيرة الرمي للجمرات الثلاث وعدنا للمخيم سالمين غانمين(*).

ومن يومها قررت زوجتي ألا ترمي بنفسها، وأوكلتني للقيام برمي الجمار نيابة عنها، وكنت أجد مشقة وعنتاً طوال الأيام الباقية وخاصة

(*) انظر صور رمي الجمرات قديماً في المرفق المصور.

من الحجاج الأفارقة وبدو الجنوب الأشداء، الذين يشكلون جماعات يصعب القرب منها أو اختراقها حيث يدفعون كل مَن يحاول الاقتراب منهم ويؤذوه وربما يرجموه بما لديهم من حصى!

كنا نرمي.. ونسهر.. ونتسوق في سوق العرب ونصعد الجبل مشياً على الأقدام وربما ننام بعض الوقت ارتياحاً فقط. وليس نوماً عميقاً. وفي آخر الليل ومع شروق الشمس نغادر نحو مكة إلى (بيت أرحامي) في «جبل الشراشف» حيث نقضي يومنا كله هناك حتى إذا أمسى الليل عدنا إلى منى لرمي الجمار والمبيت حسب سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وأما الحِجَّة الثانية فهي حِجَّة الأدب والثقافة، حجة في معية الفضلاء من المفكرين والعلماء والأدباء الذين استضافتهم وزارة الحج عام 1422هـ للمشاركة في ندوة الحج الكبرى الثالثة التي تعقدها الوزارة في عهد وزيرها المثقف إياد بن أمين مدني، تلك الندوة المتجددة موضوعاً وأسلوباً وتنظيماً وضيوفاً وتنفيذاً منذ عام 1397هـ، وكانت عبارة عن لقاء ينتدى فيه مجموعة من المحاضرين/ الحجاج المدعوين على حساب الوزارة، ثم تنامت وتطورت لتصبح منذ العام 1421هـ ندوة يدعى لها ثلة من مفكري العالم العربي والإسلامي ويتناولون على مدى يومين موضوعاً يستكتبون فيه ثم يناقشونه ويتحاورون فيه[9].

(9) انظر أ. د. أبو بكر أحمد باقادر: الندوة الإسلامية الكبرى للحج من 1397-1419هـ، ط1، 1425هـ/ 2005م.

والكتاب الآخر: ندوتا الحج الكبرى لعامي 1420هـ، 1421هـ. (د.ت).

ومنذ العام 1422هـ تطورت الندوة لتصبح موسماً ثقافياً لوزارة الحج ينتظره الجميع لما يقدم فيه خلال أيام ثلاثة من أطروحات فكرية ومناقشات علمية تثبت أنها امتداد لما تحمله الندوة من تاريخٍ حافلٍ وإرث فكري وحضاري. وكانت في هذا العام تناقش موضوعاً حيوياً وهو أدب الحج[10].

ولقد كان هذا التنامي في الموضوعات وأسلوب إخراج الندوة أحد منجزات الزميلين الكريمين، والمثقفين الأديبين سعادة الأستاذ الدكتور أبو بكر أحمد باقادر وسعادة الأستاذ حسين بافقيه الذين كان لتواجدهما في وزارة الحج أكبر الأثر في تحويل هذه الندوة إلى موسم ثقافي بكل ما تعنيه الكلمة وهما نتاج الفعاليات والمشاركات الثقافية من خلال نادي جدة الأدبي الثقافي والمنتديات والمؤتمرات الجامعية داخل وخارج المملكة!!

وفي حجة هذا العام 1422هـ كنت مدعواً - وزوجتي - للمشاركة في هذه الندوة وأداء فريضة الحج ضيوفاً على وزارة الحج. كان علينا أن نقضي الأيام الأولى من ذي الحجة في المنتدى الفكري والثقافي خلال الأيام 4-6 ذي الحجة 1422هـ - 18 فبراير 2002م الذي استضافته مؤسسة مطوفي حجاج جنوب آسيا الواقعة في حي الرصيفة بمكة المكرمة. وفي قاعة المحاضرات الأنيقة اجتمعت تلك الوفود الثقافية بأسمائها وقاماتها الفكرية والثقافية التي تمثل الصفوة في عالمنا

(10) أ. د. أبو بكر أحمد باقادر: الندوة الإسلامي السنوية الكبرى لموسم الحج من 1422هـ، ط1، 1423هـ/ 2003م.

العربي والإسلامي وحصل التعارف والتآلف والحوار والنقاش في موضوع أحسب أنه فتح جديد على مسيرتي الثقافية إذ اتجهت فيه نحو أدب الرحلات الذي وجدت أنه مجال ثقافي ولغوي وديني واقتصادي وسياسي رحب، وقدمت فيه ورقة علمية بعنوان «أدب الحج في المشرق العربي» نشرت في كتاب الندوة التوثيقي[11] ويعاد نشره ضمن كتابي هذا لمزيد الفائدة.

كانت هذه الأيام بالنسبة لنا - زوجتي وأنا - حافلة بالتعارف مع القيادات الفكرية الإسلامية والتعرف على القيم والعادات والتقاليد والحضارة لكثير من هؤلاء القادمين للحج والندوة وذلك من خلال الندوة ونقاشاتها، والحافلات واجتماعاتها، وجلسات السمر وفعالياتها، والمطاعم وأكلاتها الحجازية!!

كانت تلك الأيام المباركة والتي أسميها (الأيام الثقافية في الحج) من أجمل الأيام في حياتي ثقافة وفكراً واطلاعاً ثم بدأت أيام الحج الدينية والشعائرية، فمنذ اليوم الثامن انطلق الحجيج المثقف من مكة إلى منى لنقضي يوم التروية، كان الرجال في مخيم كبير للجلوس والنوم، والنساء في مخيم منفصل، وبينهما مخيم الاجتماعات ومطبخ الطعام وحولهما دورات المياه وكل ما يحتاجه الضيف/ المثقف.

وفي صباح اليوم التاسع توجه الجميع إلى عرفات وكانت المخيمات بنفس الأسلوب والنظام والخدمة على أعلى مستوياتها.

(11) المرجع السابق.

وانقضت أيام الحج/ الثقافية بيسر وسهولة وتوجهنا بخطاب شكر لوزير الثقافة ووزارته على كل الجهود والحفاوة التي لقيناها ثقافةً وحجاً مبروراً إن شاء الله، وكذلك رؤية واقتراح لندوة الحج القادمة عام 1423هـ[12] وهذه صور لها:

المرفق 1/12

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
الإدارة العامة للتعليم بمنطقة مكة المكرمة - تعليم جدة
إدارة الثقافة والمكتبات

وزارة الحج

الرقم: ....
التاريخ: ...../..../....
المرفقات: ....

معالي وزير الحج .. الأستاذ السيد / إياد بن أمين مدني وفقه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

يطيب لي بعد مشاركتي في ندوة الحج لهذا العام والتشرف باللقاء بكم والجلوس إليكم والحديث معكم . وبعد أن من الله علي وعلى زوجتي بحج البيت الحرام ضمن ضيوف الوزارة .

بعد كل هذا يطيب لي أن أرفع لمقامكم جزيل شكري وتقديري على الحفاوة البالغة والضيافة العالية ، والنجاح الباهر لهذه الشعيرة المقدسة وللندوة المباركة .

وليس هذا بغريب على أمثالكم تقولون وزارتكم بكل اقتدار وتخطيط وجماعية تؤكد المقولة الإدارية التي تنادي بالعمل بروح الفريق وروح الجماعة . فلا فردية ولا أنانية ولكن جماعية متوازنة .

إن ما عايشناه طوال أيام الندوة المباركة يدل على التنظيم الجيد والمتابعة الدقيقة والحرص المتناهي من فريق العمل الثقافي الذي يقوده سعادة الأستاذ / أبو بكر بن أحمد باقادر وسعادة الأستاذ حسين بافقيه ، وهما مكسب للوزارة التي صاغت من خلالهما البعد الثقافي لوزارة الحج .

وإن ما عايشناه طوال فترة الحج والضيافة الكريمة من ترتيب وتنظيم وخدمة عالية من الفريق المشرف على جميع أمور السكن والضيافة والمواصلات بين المشاعر يدل دلالة على تفاعل الجميع من منسوبي وزارتكم الموقرة مع الشعار المرفوع للوزارة (خدمة الحاج شرف لنا) .

شرف الله مقدار كم وزادكم عزا وكرامة وأدام عليكم لباس التقوى والصلاح .. ووفق الله العاملين معكم المشكورة كل جهودهم ومساعيهم لراحة حجاج بيت الله الحرام من ضيوف الوزارة ، وبهذه المناسبة أقدم لمعاليكم هذه المقترحات لفعاليات الندوة الكبرى لحج عام ١٤٢٣هـ إن شاء الله راجيا أن تنال استحسانكم واستحسان اللجان الثقافية بوزارتكم الموقرة ، ويسرني أن أضع نفسي متعاونا معكم لإنجاح هذا الاقتراح .

وتقبلوا أسمى تحياتي وتقديري ...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

أخوكم

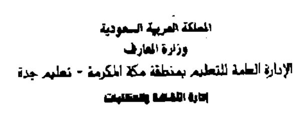
د . يوسف بن حسن العارف

---

(12) انظر الصور: (1) خطاب الشكر لوزارة ووزير الحج.

(2) اقتراح ندوة العام التالي 1423هـ.

المرفق 2/12


المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
الإدارة العامة للتعليم بمنطقة مكة المكرمة - تعليم جدة
إدارة الثقافة والمكتبات

الرقم : ....
التاريخ : ....
المرفقات : ....

ندوة الحج الكبرى للعام ١٤٢٣ هـ

رؤية واقتراح

انطلاقا من توصيات ندوة الحج الكبرى لهذا العام والتي أقرت موضوعا رئيسا لندوة الحج للعام القادم ١٤٢٣ هـ تحت عنوان (الجوانب الثقافية والحضارية لمكة المكرمة) وذلك تمشيا مع اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية ، فإن الاقتراح الذي اراه يتناسب مع هذه الفعالية المتميزة كما يلي :-

أولا: ان تتولى الوزارة هذا الموضوع وتشرك معها كل الأجهزة والمؤسسات الحكومية والخاصة في مكة المكرمة لدعم هذا المشروع طوال العام القادم مثل جامعة أم القرى ، معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج ، رابطة العالم الإسلامي ، نادي مكة الثقافي الغرفة التجارية بمكة المكرمة . إدارة تعليم العاصمة المقدسة . كلية المعلمين . الكلية التقنية وغيرها .

ثانيا: يوزع الموضوع الرئيسي إلى محاور متعددة ويعقد لكل محور ندوة مصغرة أو حلقة نقاش كل شهر مرة واحدة طوال العام ويشارك فيه مثقفون من مكة المكرمة ومن البلاد العربية والإسلامية .

ثالثا: يخصص شهر الحج ١٤٢٣ هـ للفعالية الكبرى وهي من جزئين :-

* الجزء الأول :- الندوة الكبرى ويخصص لها ثلاثة أيام تناقش فيها العديد من أوراق العمل ومستخلصات اللقاءات الشهرية . ويقام على هامش الندوة أمسيات شعرية وقصصية ومحاضرات وندوات ومساجلات ومناظرات مما يبرز وجه مكة الثقافي والأدبي والتاريخي .

* الجزء الثاني :- إقامة معرض متكامل عن العالم الإسلامي وثقافته المسموعة والمرئية والمكتوبة عن مكة المكرمة وشعائر الحج ويعرض فيه الكتب والوثائق والتراث والجوانب الحضارية البارزة لكل بلد إسلامي وعرض الأطعمة والملبوسات وصور عن الحياة الاجتماعية وعروض فلكلورية وشعبية ويستمر هذا المعرض طوال شهر الحج ويدعى إليه الحجاج وأبناء مكة للزيارة والاطلاع للتعرف على مافيه من تراث وفلكلور وحضارة .

ويكون للتراث والحضارة المكية ركن يعرض فيه كل ما يمس هذا الجانب ، ويمكن أن ينسق مع سفارات الدول لإحضار معروضاتها والإشراف على الجناح الخاص بكل دولة وتقديم عروضها الثقافية والتراثية وبذلك تسهم وزارة الحج في نقل (الحج) من كونه مظاهرة دينية بحتة إلى تظاهرة ثقافية وفعاليات متميزة يتعرف فيها المكيون والحجاج على ثقافات وتراث الدول الإسلامية مما يمكن إدخاله في باب المنافع التي يهدف إليها الحج حسب قوله تعالى (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات) .

رابعا: نقل جزء من هذه الفعاليات إلى جدة والمدينة المنورة على اعتبار أن هاتين المدينتين ضمن مدن الحجاز التي يهمهما أمر الحج والحجاج .

وأخيرا أسأل الله أن يكون في هذا الاقتراح ما يجعل عمل الوزارة في الشأن الثقافي عملا متجددا متناميا متطورا .

والحمد لله رب العالمين...

د. يوسف حسن العارف
مدير إدارة الثقافة والمكتبات
تعليم جدة

وأما الحجة الثالثة والأخيرة - حتى الآن - فهي حجة البنت الحبيبة «سها»، أكبر بناتي التي تحضر الآن الماجستير والدكتوراه في البعثة الدراسية السادسة لبرنامج خادم الحرمين الشريفين للابتعاث الخارجي، برفقة زوجها فهد حلواني!!

كانت هذه الحجة في عام 1429هـ، حيث قررت - أنا وأمها - أن نحج بها حجة العمر - كما يقولون - قبل زواجها. فلجأنا إلى حملات الحج وكنا من نصيب حملة عبدالله عمر خياط لحجاج الداخل وبمبلغ خيالي لكل فرد ما بين (6000-8000) تقريباً لا أذكر تحديداً.

ومن الطرائف في هذه الحجة أنه كان لزاماً على كل حاج الحصول على تصريح للحج - حسب اشتراطات وزارة الحج وإمارة المنطقة - وهذه التصاريح مسؤول عن استخراجها أصحاب الحملة. وكنا مطمئنين لاسيما وأن تسعيرة الحملة تشمل ذلك، وفي اليوم الثامن تجمعنا أمام إحدى الاستراحات بجوار جسر التحلية بجدة استعداداً للانطلاق نحو مكة، وهناك تم توزيعنا على الحافلات وبدأنا المسيرة وما إن وصلنا محطة التفتيش حتى أسقط في أيدينا فكثير من الحجاج في هذه الحافلة لا يوجد لديهم تصاريح ولم تستخرج لهم - وهذا خطأ من أصحاب الحملة للأسف الشديد - ولكنهم كانوا يثقون في رجال الأمن أنهم لن يعيدوا الحجاج غير المصرح لهم، ولكن خاب الظن في المرة الأولى فأعيدت الحافلة ولم يسمح لها بالمرور ودام تكرار المحاولة أكثر من ثلاث مرات ورجال الأمن لا يسمحون ويرجعون الحافلة نحو جدة، وفي المحاولة الأخيرة أشار علينا أحد رجال الأمن أن تتجه الحافلة نحو خط جدة مكة القديم وكان ذلك وسمح لنا بالمرور نحو مكة دون سؤال أو تفتيش!!

وصلنا الحرم وطفنا وسعينا ثم ارتحلنا نحو منى حيث نقضي يوم التروية ومساءه. لنجد الضيق والعنت فمكان الخيام بعيد جدا عن مركزية منى، ولا يوجد أي تنظيم في المخيم، ولم نجد الفرش واحتياجات النوم وقلة دورات المياه.

كل ذلك ونحن نحتسب ﴿ **فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج**﴾، وحملة عبدالله خياط تسببت في كل تلك المشكلات فياويلهم من الله ومن دعاء الصالحين المظلومين في هذه الحملة!!

قضينا ليلتنا في التعارف مع الرجال/ الحجاج في الحملة وبعضهم أشقاء سعوديون، وحجاج عرب ومسلمون من المقيمين في جدة!!

ولما أصبح اليوم التاسع تحركنا نحو عرفات الله مرددين «إلى عرفات الله يا خير زائر.. عليك سلام الله في عرفات». وما بين تلبية وابتهال ودعاء واستغفار وصلت حافلتنا إلى مخيم الحملة في عرفة.

أذكر في هذه الحجة أننا في مخيم عرفات كنا قريبين من جبل الرحمة ولكننا لم نستطع الذهاب إليه أو الوقوف بجواره للزحام الشديد فقد بلغ عدد حجاج هذا العام حسب الإحصائيات 1،729،841 من الخارج و600،100 من الداخل وهذا عدا من حجوا بغير تصريح، واكتفينا بالوقوف في المخيم وكانت أسعد اللحظات تلك التي يتثاءب فيها النهار منتظراً إقبال المساء ونفرة الحجيج، تلك هي لحظة ما بعد العصر وقبيل المغرب فيما يعرف بوقت الأصيل، حيث يقف الحجاج مبتهلين متضرعين داعين وراجين مستغفرين ومنيبين، ولا تسمع إلا البكاء والنحيب. وهنا - في هذا الموقف - تذكرت مقولة الإمام محمد

رشيد رضا صاحب المنار في حجة عام 1334هـ/1916م وهو يصف هذه اللحظات بقوله:

«إن منظر الحجاج في عرفات محرك لمشاعر الخشوع والعبودية، وأصواتهم بالتلبية والدعاء على اختلاف اللهجات والأجناس يثير مكامن التفكير في القدرة الإلهية وخاصة وقت الأصيل عندما يفرغ الحجاج من شعائرهم يوم عرفة ويقترب موعد النفرة والإفاضة إلى مزدلفة فيكثر التسبيح والدعاء والبكاء. فياله من موقف وما أعظمه، وما أصدق من شبهه بيوم القيامة فإن فيه لكل مؤمن من الشغل بنفسه والتوجه إلى ربه ما لا يعهد مثله فهو في خلوة مع ربه لا يشغله شاغل».

ثم يؤكد هذه الحالة في قوله: «إن الحالة الروحية لا تبلغ الكمال في عرفات إلا في وقت الأصيل، ففي أول النهار ينشغل الناس بالموقع الجديد، والمناظر الأخاذة من تجمع الناس واختلافهم والبحث عن المأكل والمشرب، وفي وسط النهار ينشغل الناس بالراحة والأكل والانزواء عن الشمس في الخيام والظلال والجبال. وفي وقت العصر ينشغل الناس بجمع المتاع وشد الرحال استعدادا للنفرة إلى مزدلفة. وفي الأصيل يتفرغون للعبادة والذكر والدعاء»(13).

أفضنا من عرفات بعد غروب الشمس ولم نصل مزدلفة إلا بعد منتصف الليل حوالي الساعة الثانية والنصف أو قريباً منها ولم نلبث أن صلينا المغرب والعشاء جمعاً وقصراً وجمعنا من الحصى ما نرمي به جمرة العقبة وكان الحجاج من حولنا يبحثون عن الحجارة والحصى ليجمعوا أكبر قدر ممكن للأيام الثلاثة في منى، وما تحتاجه الجمرات

(13) د. يوسف إيبش: رحلة الإمام محمد رشيد رضا/ رحلة الحجاز، ص ص 92-210، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1971م، ص 163.

من حصى معدودة، وما إن اقترب الفجر حتى أفضنا إلى منى لأن معنا النساء وكبار السن وبعض الضعفاء والعجزة، لنصلي الفجر في مخيماتنا بمنى القريبة من نفق المعيصم كما قلنا، وكان النساء وحدهن في مخيم والرجال في مخيم آخر، وما بيننا من التواصل إلا بالهاتف الجوال أو الخروج معاً إلى رمي الجمرات أو التسوق فيما حول المخيمات!!

أذكر أنه في أول وصولنا للمخيم اكتشفنا تلاعب أصحاب المخيم وتدليسهم على الحجاج فقد استقبلوا حجاجاً رجالاً ونساءً أكثر مما هو مخصص للحملة وتستوعبه الخيام، فلم نجد من الفرش والأسرّة والألحفة ما يكفي، ولم تجد النسوة (خاصة) مكاناً للمبيت فحصل الجدال بين الحجاج وأصحاب المخيم. وهذا مما يؤلم الحاج ويقلل من حسناته بسبب هذه التصرفات غير المسؤولة من أصحاب الحملات للأسف الشديد!!

ومن المواقف الطريفة - أيضاً - أن السكن في منى كان في أبعد نقطة عن الجمرات بجوار نفق المعيصم - ذلك النفق الذي يحمل ذكرى سيئة سابقة حيث حصل فيه عام 1406هـ تدافع وتزاحم واختناقات بسبب الغاز السام الذي بثته إحدى الجماعات الإيرانية تخريباً للحج للأسف الشديد. تذكرنا هذه الحادثة وحمدنا الله على السلامة!! كنت أذكر للرفاق في المخيم قصة ذلك المواطن الزهراني الذي أصيب في تلك الحادثة من جراء التدافع والدهس والركل فكان يصيح «آه يا رفس جاني» بلهجته البدوية، أي أنه يتألم مما أصابه من الرفس والدهس بالأرجل. ولكن رجال الأمن كانوا يسمعون الصياح

فيحسبون أنه يذكر الرئيس الإيراني «رافسنجاني» فيبحثون عنه ولكنهم لم يجدوا إلا صياح/ صراخ الزهراني!!

كان من أمتع اللحظات في هذه الحجة هو المسير نحو الجمرات حيث ارتاح المسلمون مما كان يعانيه إخوة لهم في السنوات السابقة من تدافع وزحام شديد عند رمي الجمرات، ولكنها في هذا العام ارتاحت لافتتاح جسر الجمرات العظيم الذي يعد أحد أهم منجزات الحكومة السعودية في مشاعر الحج. ولله الحمد والمنة. كنا نرمي بكل يسر وسهولة في الأدوار المتعددة فلا نجد الزحام ولا التدافع، وارتحنا من توكيل النساء للرجال بالرمي(*)!!

اليوم العاشر هو يوم عيد الأضحى، عيدِ النحرِ، عيدِ الحج الأكبر. أذكر أن الحملة والقائمين عليها أقاموا حفلاً عيدياً مبسطاً بعد العشاء في هذا اليوم المبارك، وفوجئت بطلبي للحديث في هذا الحفل فارتجلت كلمة بسيطة ضمنتها بعض أبيات شعرية نظمتها في نفس اللحظة قلت فيها:

(1) الحج لولا الحج ما أتينا

ولا تعارفنا ولا مشينا

ولا سمت إلى العلا أرواحنا

ولا غدت قلوبنا نسرينا

فمرحباً ضيوف الله في منى

وبالقبول رددوا آمينا

(*) انظر الصور التوضيحية في المرفق المصور.

(2) **الحج رحلة فيها العنا**

وأجرها التوفيق إن رضينا

والحج فرصة فيها المنى

يارب فاقبلنا ولا تخزينا

وآخر المواقف طرافة في هذه الحجة، ما حصل لنا يوم التعجل ونهاية شعائر الحج، فقد كان لزاماً علينا - حسب السنة النبوية - أن نرمي الجمرات الثلاث بعد الزوال، وقبيل المغرب نخرج من منى إلى مكة المكرمة حيث طواف الوداع!! وقد تم كل ذلك والحمد لله.

ولما بدأنا في النفرة نحو مكة، كان المأمول من حافلات الحملة أن توصلنا إلى الحرم الشريف، لاسيما ومعنا العجزة وكبار السن من الرجال والنساء. ولكن حافلات الحملة لم تحقق لنا ذلك الأمل، وأوقفتنا في كداء حيث مواقف الحافلات والسيارات الخاصة التي توصل الحجاج نحو الحرم. وقد عانينا أشد المعاناة لعدم توفر السيارات نظراً للزحام الشديد، ومعنا أختين كريمتين إحداهما من نجران واسمها (أم صالح) والدة عجوز مع ولدها الشاب. والأخرى من دولة مصر الشقيقة أيضاً امرأة عجوز فقدت ولديها منذ وصلوا مكة، وظلت على تواصل معهما بالهاتف الجوال وهي تبكي طوال الطريق من منى وحتى الحرم.

بحثنا عن الحافلات فلم نجد بها متسعاً واضطررنا لاستئجار سيارة نقل خاصة، كان سائقها شاباً مندفعاً متمرداً على كل أنظمة وقوانين السير فكان يصعد الأرصفة، ويخالف الطريق، ويدخل بنا من

جبل إلى شعب حتى وصلنا إلى الحرم بعد جهاد شديد وخاصة النسوة اللاتي كن معنا!!

لم نتمكن من طواف الإفاضة إلا في سطح المسجد الحرام لكثرة الزحام وقد تحملت زوجتي وابنتي هذه المسافة الطويلة لنبتعد عن الزحام داخل صحن المطاف والحمد لله.

وهكذا كانت أيام الحج المباركة كلها جهد وتعب، ونصب، ولكنها عند الله «حج مبرور.. وسعي مشكور.. وعمل صالح مقبول» إن شاء الله والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة كما ورد في الأحاديث النبوية!!

* * *

(4) التنامي والتطور في البيئة الحجية:

وأخيراً لا يمكن أن أنهي هذه المذكرات عن رحلاتي الحجية دون الإشارة إلى التطور الكبير الذي شهدته مشاعر الحج بدءاً من مكة والحرم مروراً بعرفات ومزدلفة وانتهاءً بمنى والجمرات.

أذكر الحرم المكي الشريف منذ أول زيارة طفولية وما تلاها من زيارات في عمر الشباب أيام المرحلة الثانوية، كانت الحصوات تحيط بالكعبة المعظمة من كل الجهات ولا يوجد الرخام إلا في صحن المطاف والممرات التي توصل بينه وبين أبواب الحرم الكبيرة (السلام - العمرة - الفتح - الصفا - الملك عبدالعزيز).

أذكر من تلك الحصوات، الحصوة المقابلة لباب الكعبة وكان الشيخ محمد علوي مالكي يلقي دروسه بعد صلاة المغرب من كل ليلة. وكذلك إحدى الحصوات في جهة باب السلام وكان الشيخ عبدالله بن

حميد يلقي دروسه وحوله طلاب العلم وابنه الشيخ صالح كان يقرأ على والده من أحد الكتب الدينية، والشيخ يقوم بالتفسير والشرح والإجابة على أسئلة المستفتين!! أذكر تلك الحصوات، ولكنها أزيلت لتوسعة صحن المطاف في عهد الملك خالد رحمه الله 1398هـ تقريباً.

كما أذكر من معالم الحرم القديمة، باب بني شيبة.. وهو عقد على شكل نصف دائرة مبني على عمودين مربعين من حجر الرخام المتين ومزين بنقوش وزخرفات إسلامية وكتابات قرآنية ويرتفع عن الأرض حوالي 8 أمتار.

ومن تلك المعالم أيضاً أذكر البناء الخشبي المحيط بمقام سيدنا إبراهيم عليه السلام وكانت تسمى المقصورة، وهي غاية في الروعة والجمال والنقوش الإسلامية[14]. وقد أزيلت هذه المقصورة أثناء التوسعة السعودية الأولى وتم تجديد الهيكل المعدني والإطار الزجاجي والنحاسي والقاعدة الرخامية للمقام حتى يتوافق جمالياً مع مكونات التوسعة الجديدة التي تمت في عهد الملك فهد عام 1409هـ.

وفي ذلك الحين كانت بئر زمزم قريبة جداً من مقصورة مقام إبراهيم، وينزل إليها الحجاج بدرج مكشوف داخل ساحة المطاف ينقسم إلى قسمين أحدهما للرجال والآخر للنساء وكنا نتمكن من الوصول إلى البئر والشرب منها مباشرة بواسطة الدلاء المعلقة عليها وكنا نشاهد الماء وهو قريب جداً من فوهة البئر. وفي فترة لاحقة تمت تغطية هذا المدخل وإضافته إلى صحن المطاف وتأخير الدرج المؤدي إلى بئر زمزم

(14) يمكن مشاهدة هذه المعالم القديمة على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت). وبعض الصور المرفقة في نهاية الكتاب (المرفق المصور).

وتمت تغطية البئر بحاجز زجاجي وفوقها مضخة لرفع الماء كهربائياً وتوزيعه على صنابير الشرب التي وزعت في منطقة البئر تحت أرضية المكان، وكانت مرتفعة وعلى صفوف طولية على قدر قامة الإنسان. وكان الحجاج يشربون ويغسلون إحراماتهم وربما يتوضؤون منها.

وأذكر أنه كان في صحن المطاف وقريباً من بئر زمزم كراسي حديدية نسميها (المرفع) توضع عليها دوارق لحفظ ماء زمزم وهي «شراب» مصنوعة من الطين والفخار أشبه ما تكون (بالقلل) ويسميها أهل مكة الدورق وجمعها الدوارق ويقوم عليها السقاؤون الذين ينظفونها ويبخرونها أو يضيفون إليها ماء الورد أو الكادي ليعطي للماء نكهة جديدة.

ثم أزيلت هذه الدوارق - في فترة متأخرة - واستبدلوها بالترامس البرتقالية التي انتشرت في أطراف الحرم وأروقته ليشرب الناس منها والآن تحولت إلى اللون (البيج)!! كما انتشرت صنابير المياه داخل الحرم وخارجه لهذا الغرض.

وشهدت بئر زمزم أكبر عملية تنظيف وتجديد عندما أمر الملك خالد عام 1399 / 1400هـ بهذا الأمر وقام به فريق عمل يرأسه الدكتور يحيى حمزة كوشك، وفي عهد الملك فهد في سنة 1424هـ تم تغطية مساحة البئر ونقل مداخلها إلى جهة المسعى والاستفادة من هذه المساحة لزيادة ساحة المطاف والتوسعة على الحجاج والمعتمرين.

كما أذكر المنبر المخصص لإمام وخطيب الجمعة، وكان بجوار باب بني شيبة وهو من المآثر العثمانية، ويقال إنه أهدي للحرم في عهد

السلطان سليمان القانوني عام 962م وجدده السلطان مراد خان أثناء توسعته عام 984م وفيه من جمال الصنعة والنقوش ما يسلب الألباب وهو من الرخام الخالص وله درج طويل وباب خشبي مرتفع. وقد أزيل ضمن توسعة المطاف في التوسعة السعودية الجديدة وذلك في عهد الملك خالد رحمه الله.

وآخر المعالم في منطقة المطاف أذكر «حجر إسماعيل» الذي نالته يد التجديد والتحسين والتطوير منذ العام 1396هـ حيث أعيد تعميره وتجديد رخامه وأرضياته وتركيب ثلاثة فوانيس معدنية ضوئية[15]، وذلك في بدايات عهد الملك خالد رحمه الله. وقد وجدت في مذكراتي اليومية لهذا العام أنني في مساء يوم السبت 14 جمادى الآخرة 1396هـ، حضرت في الحرم هدم الحِجْر، بغرض تجديد بنائه، وذلك حوالي الساعة العاشرة والنصف (10,30) مساءً.

ثم أعيد تجديده مرة أخرى في عهد الملك فهد (رحمه الله) سنة 1417هـ وذلك أثناء تجديد وترميم بناء الكعبة.

كما شهدت مكة المكرمة والمنطقة المحيطة بالحرم الكثير من التطوير والتجديد خلال الأربع والأربعين عاماً الماضية (1390-1434هـ) وهي الفترات التي حكم فيها المملكة العربية السعودية كل من الملك فيصل ثم خالد ثم فهد رحمهم الله جميعاً والآن نحن في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله أطال الله عمره، وبحمد الله فقد عاصرتها وأدركتها منذ أن كنت شابا في سنوات التمدرس في المرحلة الثانوية وحتى

(15) يمكن مشاهدة هذه المعالم القديمة على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت). وانظر الصور المرفقة.

الآن، حيث الاقتراب من حياة التقاعد 1435هـ بعد حياة علمية وعملية حافلة بالتواصل مع الحج سلوكاً وممارسة/ علماً ومشاهدة.

ففي هذه السنوات كانت مكة المكرمة والحرم الشريف ومشاعر الحج تشهد العديد من التّوسعات، والتجديد، والتحسينات المستمرة، والتطوير المتنامي في الطرق والأنفاق الأرضية والجبلية التي تخترق الجبال وتربط بين أطراف مكة المكرمة في خطوط دائرية تحيط بالحرم من كل الجهات مما جعل هذه المناطق تستحوذ على الميزانيات والمصروفات المالية.

كما تم إيجاد ساحات فسيحة مفروشة بالرخام الأبيض وتحيط بالحرم الشريف من كل الجهات، وكذلك العديد من الفنادق والأبراج السكنية المعدة للحجاج والزوار والمعتمرين، وكذلك الاهتمام بالمرافق الخدمية من مواقف للسيارات ودورات مياه أرضية والصرف الصحي وتصريف مياه السيول والأمطار ونظام التهوية والتبريد لكامل الحرم الشريف. أضف إلى ذلك السلالم المتحركة الكهربائية التي تساعد في صعود الحجاج إلى الأدوار العليا في الحرم والمسعى، واخيراً تجديد الشبكة الصوتية/ الإذاعية داخل الحرم وأروقته وساحاته ومناراته.

وأما المشاعر المقدسة عرفات ومزدلفة ومنى، فقد نالتها يد التطور والتجديد. فالمشعر الحرام بعرفة حظي بتوسعة تاريخية في عهد الملك خالد 1395-1402هـ لم يسبق لها مثيل حيث أصبحت مساحته الإجمالية 27.000 متر مربع ويتسع لـ (300.000) ثلاثمائة ألف مصلي تقريباً وله ست مآذن/ منارات وحوله مساحة مظللة وخزانان للمياه ودورات مياه متعددة وشبكة تبريد وتكييف متميزة.

وكذلك المشعر الحرام بمزدلفة الذي شملته يد التطوير والتوسعة حتى أصبح يستوعب أكثر من 12.000 ألف مصلي ومساحته الإجمالية حوالي 5040 متراً مربعاً وتم الاهتمام بمنطقة المشعر وتوسعتها من ناحية الجبال وهيئت بالأنوار والمرافق الطبية ودورات المياه وكل ما تحتاجه تلك الليلة التي يقيم فيها الحاج بعد الإفاضة من عرفات بهذا المكان المبارك.

وقد شهدت وعايشت - في أولى سنوات حجي وعملي (الدَّجي) - ذلك المسجد القديم قبل التوسعة التي تمت في عهد الملك خالد وكان لنا بجواره بسطة متواضعة نبيع فيها على الحجاج ونطبخ لهم الأكل ونوفر لهم الماء والعصيرات. كما ذكرنا ذلك من قبل.

وأما مشعر منى فهو المشعر الذي حظي بأكبر اهتمام من الحكومات السعودية المتعاقبة لأن الحاج يقضي فيها ثلاثة أيام التشريق وفيها الجمرات ومسجد الخيف والمنحر وكل هذه حصلت على الكثير من التطوير والتحسين والتجديد.

أذكر مسجد الخيف في حجاتي الأولى في بدايات عهد الملك فيصل أنه مربع الشكل له ساحة داخلية تتوسطها قبة ومنارة ويتزاحم على الصلاة فيه الحجاج وكانت أعدادهم آنذاك قليلة(*).

أذكر أيضاً أنني وجدت أحد الأفارقة يجلس في أحد الأروقة القبلية وبيده سبحة طويلة وكبيرة جداً وكان يسبح فيها بشكل سريع ولما ينتهي يقف ليصلي ركعة واحدة سريعة ثم يعود للتسبيح وعجبت من ذلك كل العجب فلا الصلاة صلاتنا ولا التسبيح كما نعرف.

(*) انظر الصورة المرفقة في نهاية الكتاب.

ومما أعرفه أن هذا المشعر توقف فترة طويلة على التجديد العثماني الذي تم في عهد الخليفة السلطان محمد خان سنة 1092هـ. ولما جاء العهد السعودي مر بثلاث توسعات كلها شهدتها والحمد لله.

ففي عام 1393هـ في عهد الملك فيصل رحمه الله تمت توسعته الأولى ثم في عام 1402هـ في عهد الملك فهد (رحمه الله) زادت توسعته ونظافته وتكييفه، ولما جاء العام 1407هـ كانت التوسعة الأخيرة في عهد الملك فهد أيضاً فأصبحت مناراته أربعة وزادت مساحته الإجمالية، ووفرت له الخدمات العامة وخاصة دورات المياه التي أصبحت 1000 دورة تقريباً.

أما الجمرات فأذكر أنها كانت في نفس الطريق العام لمنى وهي 3 شواخص بارتفاع المترين داخل صحن دائري تتجمع فيه الحصيات التي يرجم بها وكان التزاحم والتدافع على أشده. وفي بدايات عهد الملك فيصل تمت إقامة جسر للجمرات لاستيعاب الحجاج والقضاء على التدافع ولكن ذلك لم يكن كافياً، حيث استمر مسلسل التدافع والزحام والوفيات من كثرة الحجاج في وقت الرمي المحدد في فترة ما بعد الزوال حسب الفتاوى الفقهية المتشددة آنذاك، وكثرة الحجاج المفترشين والمقيمين على الجسر، وطوال طريق المشاة بما يزيد في ذلك التدافع والزحام!! ولذلك جاءت التوسعة العملاقة التي شهدها عهد الملك عبدالله وسنشير إليها لاحقاً.

ومما يميز مشعر منى - أخيراً - تلك التوسعات والطرق والأنفاق والخيام ضد الحريق والجسور حتى وصلنا إلى عهد القطار، ومشروع الهدي والأضاحي وتطوير المجازر الآلية وأماكن النحر، والبنايات

السكنية والأبراج العالية في سفوح جبال منى لاستيعاب الكثافة من الحجاج والذين لا تستوعبهم الخيام(*).

ولعل أهم تطور وتحسين للحرم الشريف والمشاعر المقدسة هو ما نعيشه الآن في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله الذي تولى الحكم بعد وفاة الملك فهد عام 1426هـ، وهانحن اليوم في العام 1434هـ أي خلال ثمان سنوات وأنا شاهد عصرٍ في هذه الحقبة الزمنية ومطّلع على كل ما أنجز ولن أقف عندها طويلاً فيكفي الإشارة إلى تلك المنجزات التي تحققت في هذا العهد الزاهرٍ وسأتركٍ التفاصيل لمن أراد التوسع وذلك عبر الشبكة العنكبوتية حدثاً وتاريخاً وتعليقاً. وهذا مسرد بتلك المنجزات التي شاهدتها ووقفت عليها بنفسي وهي كما يلي:

* جسر الجمرات: وهو جسر متعدد الطوابق يصل إلى خمسة طوابق إضافة إلى الأنفاق والبدروم وتجديد مناطق الجمرات الثلاثة بأسلوب جديد وانسيابي يمكن الحجاج من الرمي بسهولة ويسر ويقضي على التدافعٍ والازدحام بمداخله ومخارجه المتعددة والتي تصل إلى 12 مدخلا و12 مخرجاً وقد تم إنجازه بشكله النهائي الذي يخلب الألباب.
* توسعة المسعى: حيث أصبح يتكون من أربعة طوابق مع توسعة منطقتي الصفا والمروة وتوسعة عرض المسعى إلى 40م في مسارين منفصلين ومسارات خاصة بعربات ذوي الاحتياجات الخاصة وكبار السن.
* وقف الملك عبدالعزيز للحرمين وبرج الساعة: وهو معلم إسلامي رائع ونموذج فريد يطل على الحرم الشريف والكعبة المعظمة ويتكون من

(*) انظر الصور المرفقة في نهاية الكتاب.

7 أبراج وترتفع أدوارها ما بين (28، 35، 45) دوراً والبرج الرئيسي (برج الساعة) حوالي 60 دوراً وأصبحت ساعة مكة أبرز معلم إسلامي تحيل العالم إلى توقيت مكة/ أم القرى وقبلة المسلمين.

* السدود والأنفاق لتصريف السيول والأمطار في المشاعر (وهي مجموعة سدود في منى وعرفة ومزدلفة وأنفاق لتصريف سيول الأمطار لحماية الحجاج).

* قطار المشاعر: لتخفيف الازدحام المروري الذي تسببه الحافلات الخاصة بنقل الحجاج واستيعابه للعدد الكبير من الحجاج في التنقل بين المشاعر.

* مشروع سقيا زمزم: وهو مصنعٍ للحفاظ على ماء زمزم وتنقيته من كل ما يسيء إليه تعبئة وتخزيناً بطرق آلية بحيث ينتج هذا المصنع 200،000 عبوة يومياً تتاح للمستهلكين من الحجاج والمقيمين.

* توسعة الحرم الشريف الجديدة المعروفة بتوسعة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله والتي شملت الجهة الشمالية والغربية في أكبر توسعة للحرم كما تشمل أعمال الساحات والمظلات الخارجية والطرق العلوية والأرضية والخدمات العامة وغيرها.

* طريق الملك عبدالعزيز الموازي الذي يربط بين مدخل مكة الغربي من جهةٍ جدة والحرم الشريف ويخترق المناطق العشوائية ويضفي تحسيناً جديداً من خلال المباني والفنادق والساحات والمسجد الكبير.

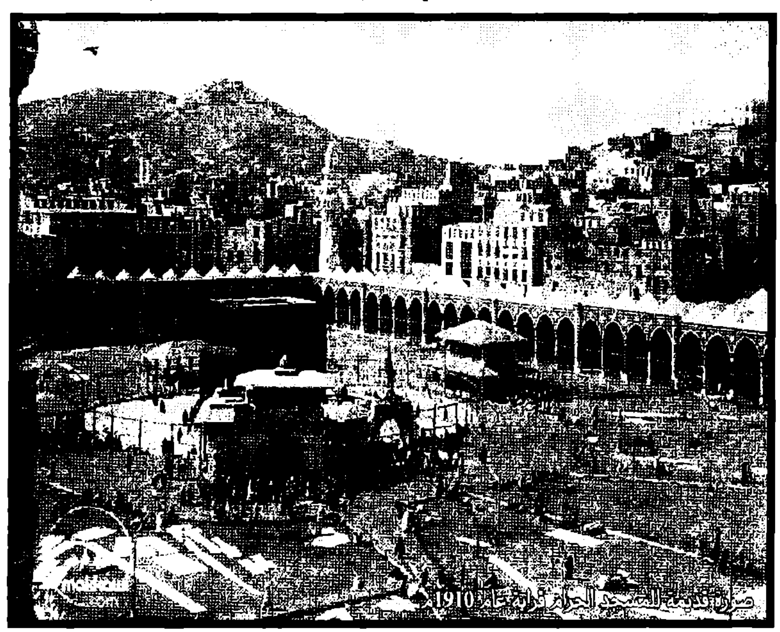
* توسعة المطاف: والتي بدأت بعد حج العام المنصرم 1433هـ ومع مطلع العام الجديد 1434هـ ليصبح الانتهاء منه خلال 3 سنوات

القادمة مستوعباً لما يقارب 3 أضعاف الطاقة الاستيعابية الحالية أي ما يقرب من 150 ألف طائف في الساعة.

وبذلك يؤسس خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله لأكبر وأضخم حقبة تطويرية لمكة والحرم الشريف والمشاعر المقدسة وكل ذلك امتداد لاهتمام القيادة السعودية منذ المؤسس رحمه الله وحتى العصر الحاضر، لينعم الحجاج والمعتمرون من أقطار العالم الإسلامي ومن أنحاء بلادنا السعودية بحج آمن ومشاعر إيمانية فياضة تجعل من رحلة الحج أمنية كبرى لكل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، واستطاع إلى ذلك سبيلا.

جدة - مساء الأربعاء 1434/3/18هـ

بدارتنا بحي النعيم، رزقنا الله جنات النعيم إنه جواد كريم



الخاتمـــة

... وبعد..

فإن أدب الرحلة الحجية، لا يكتمل - عند كثير من الرحالة الذين دونوها - إلا بزيارة المدينة المنورة، المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم. والكتابة عنها وعن حرمها وبقيعها ومآثر الإسلام والنبوة والصحابة فيها. ويصفون الطريق بينها وبين مكة أو بينها وبين ديارهم التي قدموا منها وما عانوه من تعب نصب حتى وصلوا إلى هذه الأرض المباركة، وقد مر معنا في ثنايا الكتاب شيئاً من ذلك.

أما أنا كحاج - وبصفة عامة كل حجاج الداخل - فلم تكن المدينة النبوية وزيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من محاور حجنا، وإنما نفردها بالزيارة في أي وقت من العام لأن المجال متاح ومفتوح لنا - نحن أبناء البلاد السعودية - ولأن علاقة أكثرنا بمدينة الرسول أزلية وأبدية!!

أنا شخصياً - في مراحل متأخرة من عمري قبل الستين - أزور المدينة المنورة أكثر من 4 مرات كل عام بالعائلة والأولاد في رمضان حيث نقضي العشر الأواخر أو العشرين الأخيرة. وفي إجازات الربيع الدراسية، وفي إجازة شهر الحج وفي بعض الإجازات الأسبوعية.

ولكني أذكر أني زرتها أول مرة وأنا شاب لم أتجاوز السادسة عشر من عمري وكنت في بدايات الدراسة الثانوية، وكان الحرم النبوي للتو اكتملت توسعته السعودية الأولى التي بدأت في أيام الملك سعود رحمه الله وانتهت مع عهد الملك فيصل رحمه الله.

ثم زرتها وأنا قريب من التخرج من الجامعة مع ثلة من طلاب قسم التاريخ بجامعة أم القرى حوالي عام 1394هـ. وكان لي فيها كثيراً من الذكريات والشواهد التي لا تستوعبها هذه الورقة الختامية.

إلا أن الذي وقر في ذهني وذاكرتي من تلك الزيارات المبكرة هو التوسعة السعودية الأولى للحرم النبوي الشريف، والحصوات والتغييرات فيما يحيط بالحجرة النبوية والروضة الشريفة والمنارات الأربعة المرتفعة إلى سبعين متراً، والقائمين على شؤون الحرم من الأغوات ودورهم الخدمي والرقابي آنذاك.

ثم تتالت التوسعات السعودية في كل عهد من عهود حكام الدولة السعودية حتى عهدنا الحاضر عهد الملك عبدالله الذي سيشهد أكبر توسعة تاريخية حتى حينه.

والحديث عن طيبة الطيبة/ المدينة المنورة يطول ويطول ويحتاج إلى بحث منفرد مستقل بذاته!!

* * *

بقي أن أقول إن هذا الكتاب يفتح باباً معرفياً عن أدب عربي له سماته وتجلياته اختص بأحد أركان الإسلام وهو الحج، وقد وقفت

فيه على مجموعة من كتب الرحلات الحجية المعروفة في تراثنا الأدبي عرفت بها وبما فيها من مضامين وأفكار تتعلق بمنطقة الحجاز وخاصة مكة والمشاعر المقسة والمدينة المنورة.

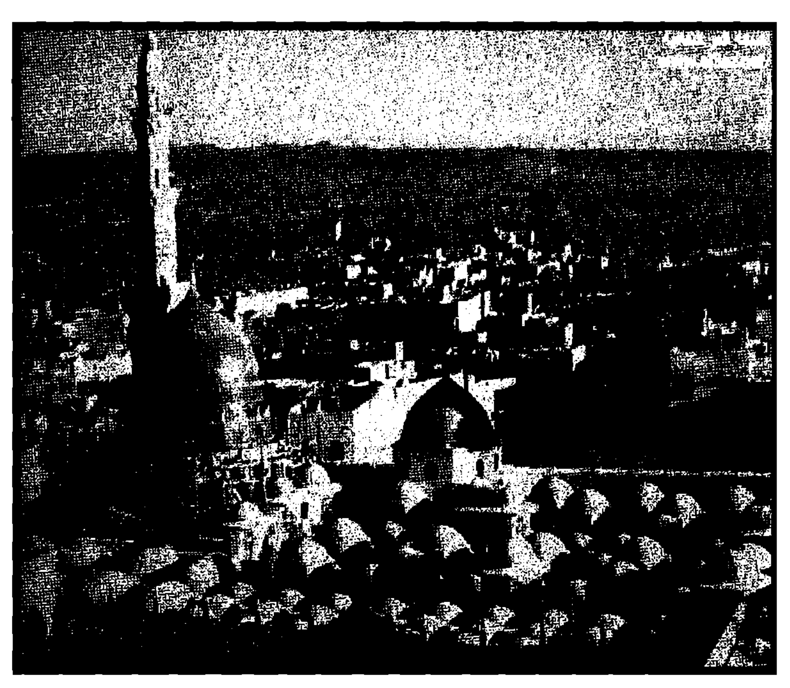
وختمتها بذكريات حجية عشتها ومارستها فعلاً لأدخل نفسي ضمن الأدباء الذين سجلوا رحلاتهم الحجية وذكرياتهم ومشاهداتهم.

آملاً أن يكون فيها ما يفيد..

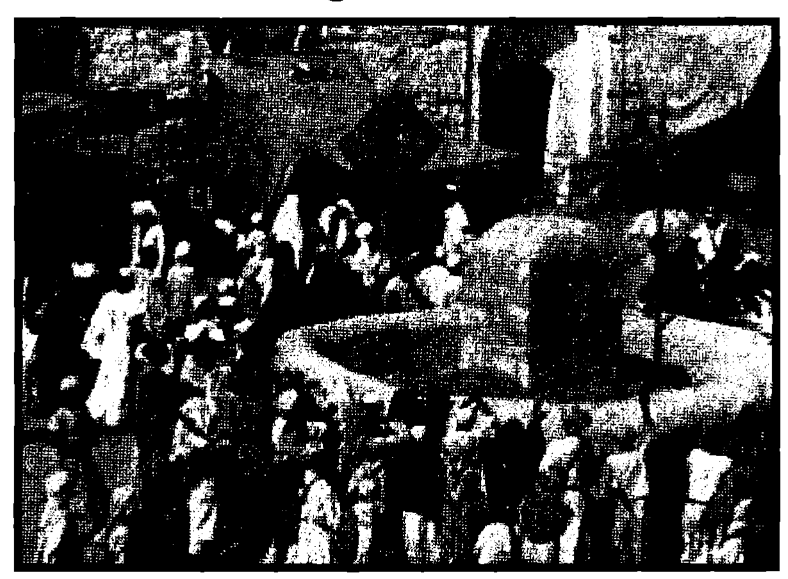
والحمد لله رب العالمين ،،،

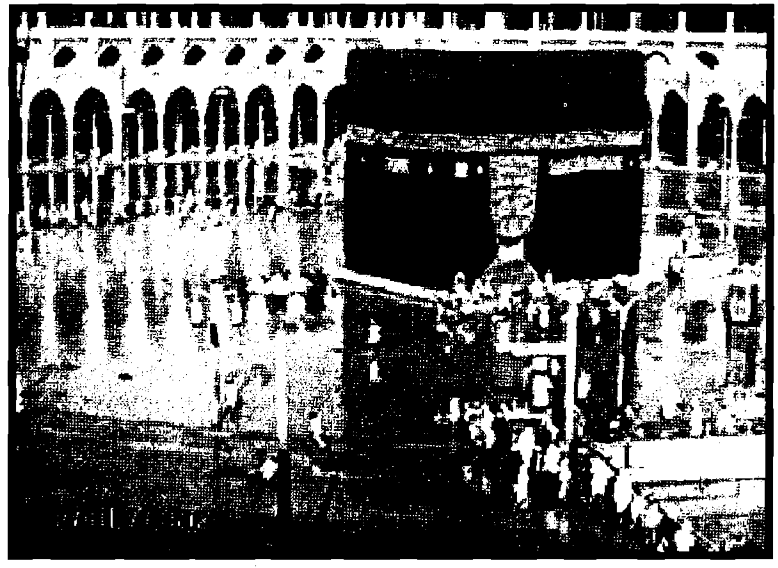
جدة

1434/4/18هـ

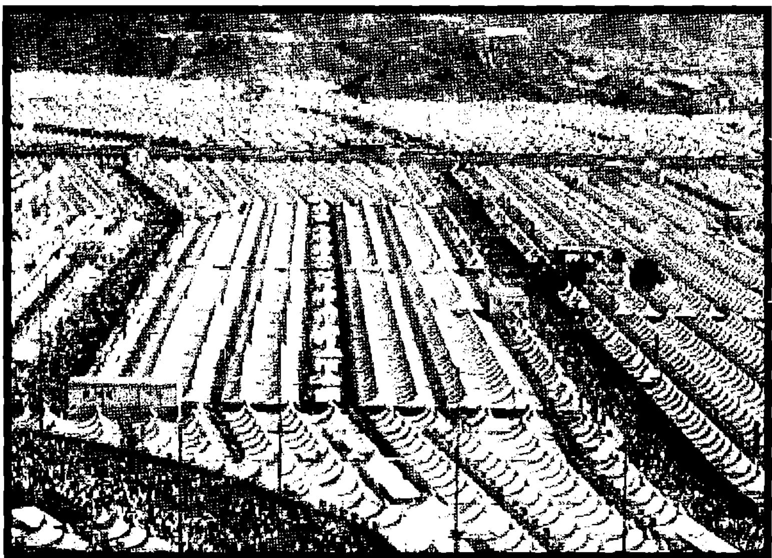


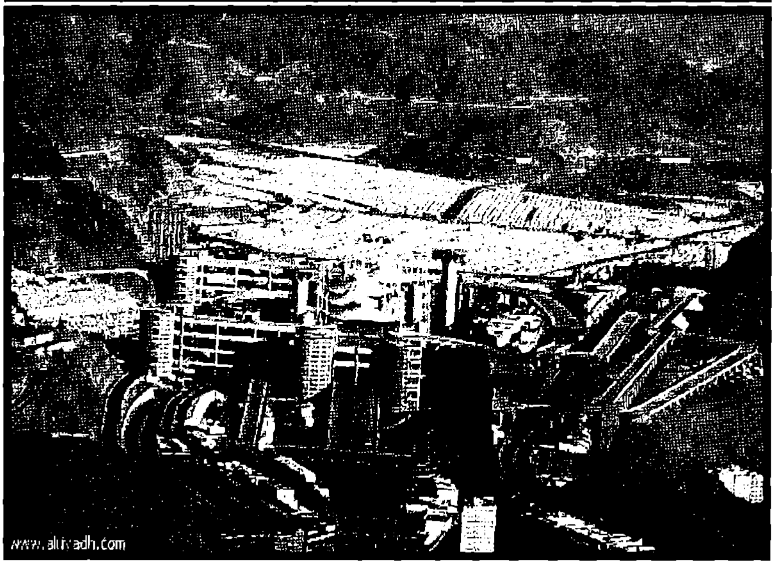
صور ومعالم لمشاعر الحج قديماً وحديثاً



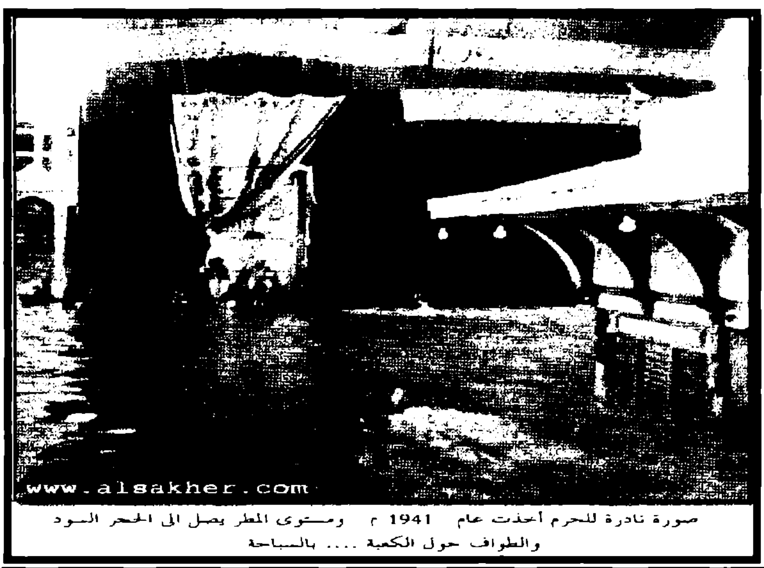


صور ومعالم لمشاعر الحج قديماً وحديثاً





صور ومعالم لمشاعر الحج قديماً وحديثاً

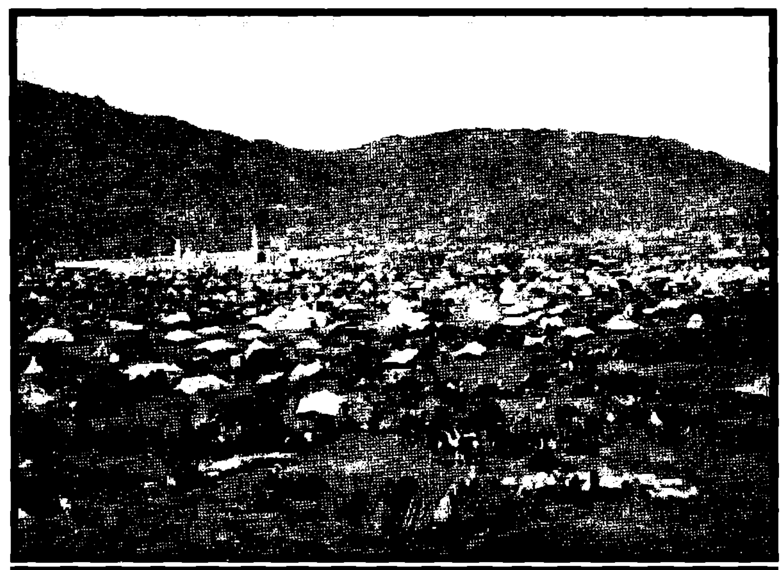


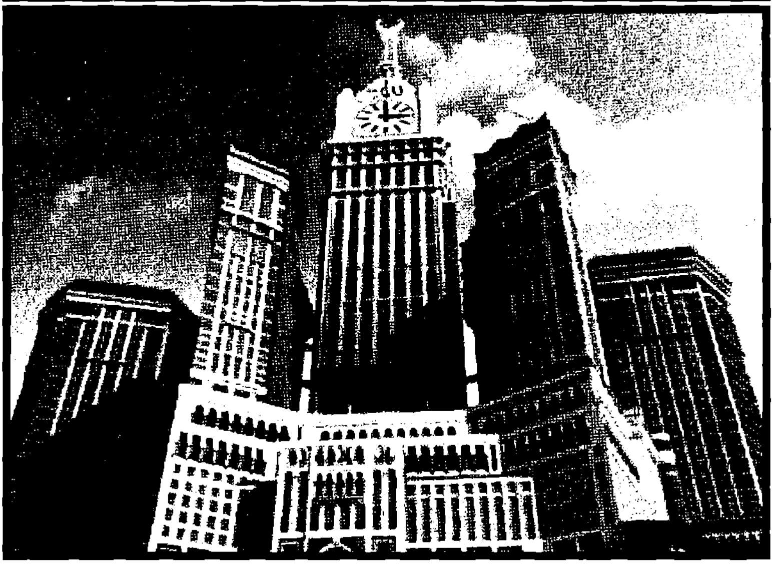
صورة نادرة للحرم أخذت عام 1941 م ومستوى المطر يصل الى الحجر الاسود
والطواف حول الكعبة .... بالسباحة



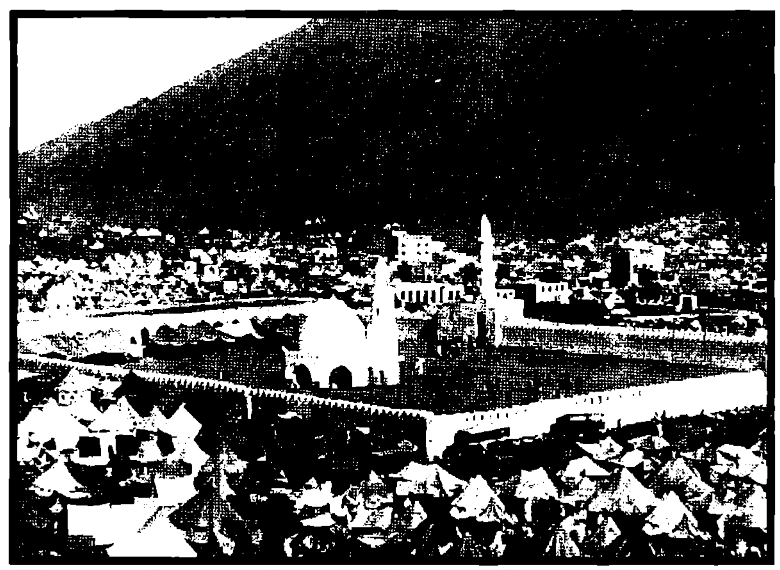
جبل الرحمة بعرفات

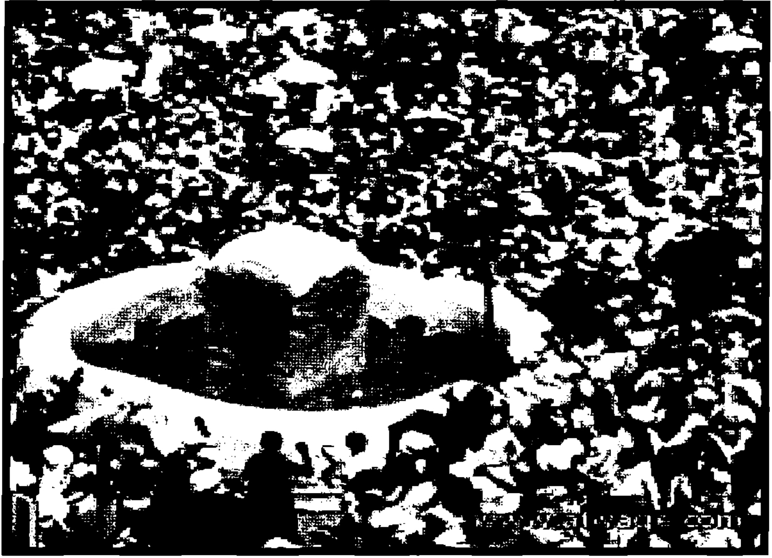
صور ومعالم لمشاعر الحج قديماً وحديثاً



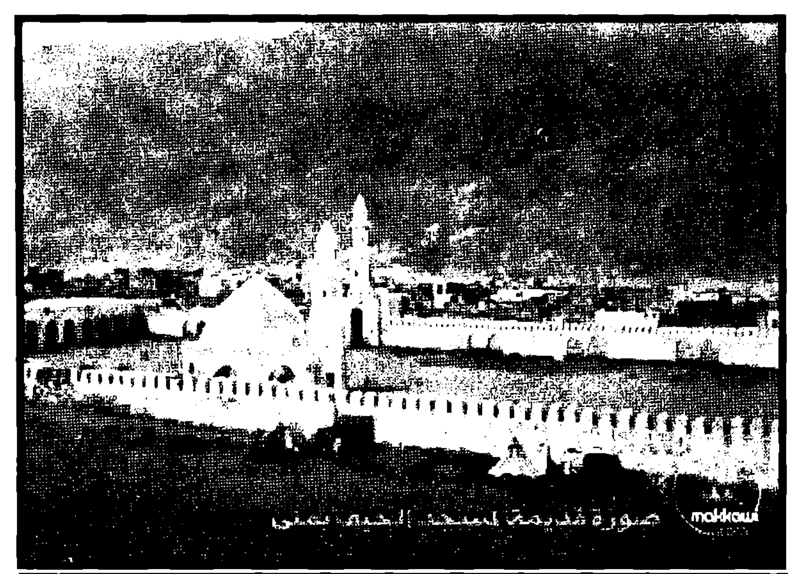


صور ومعالم لمشاعر الحج قديماً وحديثاً

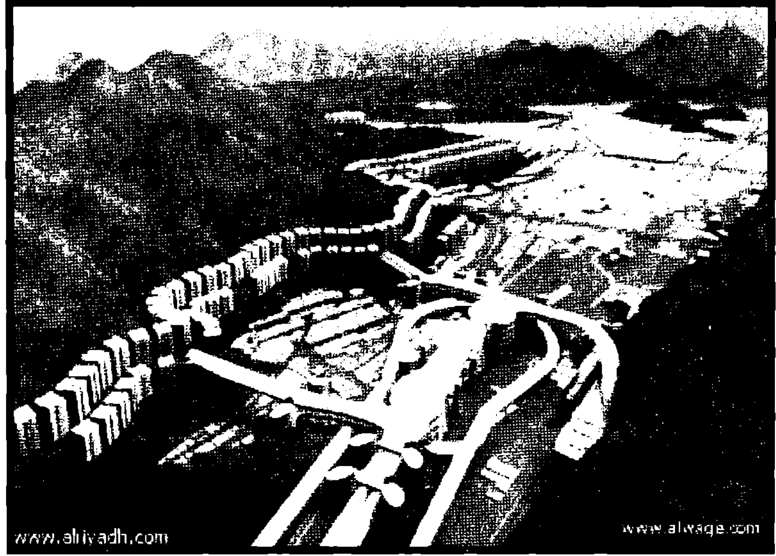




صور ومعالم لمشاعر الحج قديماً وحديثاً



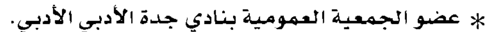
صورة قديمة لمسجد الخيف بمنى



السـيرة الذاتيـة

* الدكتور يوسف حسن العارف

- الطائف - المملكة العربية السعودية - 1375هـ.
- دكتوراه في التاريخ الحديث 1412هـ.
- ماجستير في التاريخ الحديث 1405هـ.



* عضو الجمعية العمومية بنادي جدة الأدبي الأدبي.

* **الإصدارات الشعرية** (8) منشورة.
(2) مخطوطة.

* **الإصدارات التاريخية** (4) منشورة.
(2) مخطوطة.

* **الإصدارات التربوية** (6) منشورة.
(2) مخطوطة.

* **الإصدارات النقدية:**



١٤٢٣هـ/٢٠٠١م — ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م — ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م

١٤٣٤هـ/٢٠١٣م — ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م — ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م

للتواصل:

جدة: ص. ب ٥٩١٥ - الرمز البريدي: ٢١٤٣٢جدة
هاتف جوال: ٠٥٠٤٦٠٨٠٥٧ - هاتف ناسوخ: ٠٢/٦٥٥٢٦٠٩
Email: Al.aref@jedu.gov.sa



الحج إلى الديار المقدسة في الحجاز ، رحلة إيمانية يهجر فيها الحاج أهله وأرضه، ليتصل اتصالاً مباشراً بالمشاعر المقدسة ابتداءً من الكعبة وما حولها من مشاعر، وانتهاء بعرفات ومزدلفة ومنى، ثم المدينة المنورة لزيارة مسجد المصطفى صلى الله عليه وسلم.

ولقد كان ممن حظي بشرف هذه الرحلة كثير من رجال الأدب والفكر والعلم الذين انصهرت قلوبهم بحب الله ورسوله، وسعوا طوال أيامهم كي يحوزوا هذه المكرمة الربانية، و ينالوا هذا الشرف العظيم، فيحجوا البيت الحرام ويشاهدوا عظمة الحق ونور النبوة التي سطعت في هذه البقعة المباركة، وانتشرت إلى كل أصقاع المعمورة، فتحقق لكثير منهم تلك (الرحلة الحجية)، وسجلوا ما شاهدوا وما وجدوا من صعوبات ومهالك، ورووا أحداثاً ألمت بهم بعضها يسر وبعضها يدمي الخاطر. وقد سجلوا كل ذلك بعبارات منمقة تدل على أدب وثقافة وعلم وقدرة على الصياغة اللغوية والأسلوبية مستخدمين في كل ذلك الدقة والأمانة العلمية .

وبناء على ذلك تشكل لدينا سفرٌ متكاملٌ لأحوال الأمة الإسلامية التي كانت تصل وفودها إلى الحج في كل عام ، وحظيت المكتبة العربية والإسلامية بالعديد من (الرحلات الحجية) .

وفي هذا الكتاب يتعرف القارئ إلى ملامح وصور وفضاءات أدبية مما سجله بعض الرحالة / الحجاج وذلك من خلال القراءة الواعية في المتن والمضامين!!